البداية والنهاية

الإمام الحافظ

المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، مصنوعة وملحقة بأشياء لم تذكر في السابق مقابلة على عدة من النسخ المطبوعة، فهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ولو تبصر المنصور لعلم أن كل واحد من أولئك القراء خير من ملء الأرض مثل عمرو بن عبيد، والزهد لا يدل على صلاح، فإن بعض الرهابين قد يكون عنده من الزهد ما لا يطيقه كثير من المسلمين في زمانه.

وقد روينا عن إسماعيل بن مسلمة القعنبي قال: رأيت الحسن بن جعفر في المنام بعد ما مات بعبادان فقال لي: أيوب ويونس وابن عون في الجنة. قلت: فعمرو بن عبيد؟ قال: في النار. ثم رآه مرة ثانية ويروى ثالثة، ويقول له مثل ذلك.

وقد رثيت له منامات قبيحة، وقد طوّل شيخنا في «تهذيبه» [١٢٣/٢٢-١٣٥] ترجمته ولخصنا حاصلها في كتابنا التكميل، وأشرنا ههنا إلى نبذ من حاله ليعرف فلا يغتر به والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائة

فيها ندب المنصور الناس إلى غزو الديلم، لأنهم قتلوا من المسلمين خلقاً، وأمر أهل الكوفة والبصرة من كان منهم يقدر على عشرة آلاف فصاعداً أن يذهب مع الجيش إلى الديلم، فانتدب خلق كثير وجم غفير لذلك.

وحج بالناس في هذه السنه عيسى بن موسى نائب الكوفة وأعمالها.

وفيها توفي

حجاج الصواف، وحميد بن تيرويه الطويل، وسليمان بن طرخان التيمي، وعمرو بن عبيد في قول، وقد ذكرناه في التي قبلها، وليث بن أبي سليم على الصحيح. ويحيى بن سعيد الأنصاري.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائه

فيها سار محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه المنصور إلى بلاد الديلم ومعه الجيوش من الكوفة والبصرة وواسط والموصل والجزيرة.

وفيها قدم محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور على أبيه من بلاد خراسان ودخل بابنة عمه ريطة بنت السفاح بالحيرة.

وفيها حج بالناس أبو جعفر المنصور واستخلف على الميرة والعسكر خازم بن خزيمة، وولى رياح بن عثمان المزني المدينة وعزل عنها محمد بن خالد بن عبد الله القسري.

وتلقى الناس أبا جعفر المنصور في أثناء طريق مكة في حجه في سنة أربعين ومائة. وكان في جملة من تلقاه عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، فأجلسه المنصور معه على السماط، ثم جعل يحادثه وأقبل عليه إقبالاً زائداً بحيث اشتغل بذلك عن عامة غدائه، وسأله عن ابنيه إبراهيم ومحمد لم لا جاءاني مع الناس؟ فحلف عبد الله بن حسن أنه لا يدري أين صارا من أرض الله. وصدق في ذلك، وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان، وكان في جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس، فلما صارت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً، وذلك لأنه توهم منهما أنهما لا بد أن يخرجا عليه والذي خاف منه المنصور وقع فيه، ولما خافاه ذهبا منه هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن، ثم سارا إلى الهند ثم تحوّلا إلى المدينة فاختفيا بها، فدل على مكانهما الحسن بن زيد فهربا إلى موضع آخر، فاستدل عليه الحسن بن زيد ودل عليهما، ثم كذلك، وانتصب ألباً عليهما عند المنصور. والعجب أنه من أتباعهما، واجتهد المنصور بكل طريق على تحصيلهما فلم يتفق له ذلك إلى الآن. فلما سأل أباهما عنهما حلف أنه لا يدري أين صارا إليه من البلاد، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال: والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما. فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله، فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بحبس بني حسن عن آخرهم فحبسهم، وجد في طلب إبراهيم ومحمد جداً، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين، ويكمنان في المدينة في غالب الأوقات، ولا يشعر بهما من ينم عليهما ولله الحمد. والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولي عليها غيره ويحرضه على إمساكهما والفحص عنهما، ويبذل الأموال في طلبهما، وتعجزه المقادير عنهما لما يريده الله عز وجل.

وقد واطأهما على أمرهما أمير من أمراء المنصور يقال له أبو العساكر خالد بن حسان، فعزموا في بعض الحجات على الفتك بالمنصور بين الصفا والمروة. فنهاهم عبد الله بن حسن لشرف البقعة. وقد اطلع المنصور على ذلك وعلم بما ما لأهما ذلك الأمير، فعذبه حتى أقر بما كانوا تمالؤوا عليه من الفتك به. فقال: وما الذي صرفكم عن ذلك؟ فقال: عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك. فأمر به الخليفة فغيب في الأرض فلم يظهر حتى الآن.

وقد استشار المنصور من يعلم من أمرائه ووزرائه من ذوي الرأي في أمر ابني عبد الله بن حسن، وبعث الجواسيس والقصاد إليهما فلم يقع لهما على خبر، ولا ظهر لهما على عين ولا أثر، والله غالب على أمره.

وقد جاء محمد بن عبد الله بن حسن إلى أمه فقال يا أمه! إني قد شفقت على أبي وعمومتي، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي. فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها، فقالوا: لا، بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً، ونحن نصبر وفرجنا بيد الله وتمالؤوا كلهم على ذلك رحمهم الله.

وفي هذه السنة نُقلوا من المدينة إلى حبس بالعراق وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال. وكان ابتداء تقييدهم من الربذة بأمر أبي جعفر المنصور، وقد أشخص معهم محمد بن عبد الله العثماني، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه، وكانت ابنته تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وقد حملت قريباً، فاستحضره الخليفة وقال: قد حلفت بالعتاق والطلاق إنك لم تغشني، وهذه ابنتك حامل، فإن كان من زوجها فقد خَبُثَتْ، وإن كان من غيره فأنت ديوث. فأجابه العثماني بجواب أحفظه به، فأمر به فجردت عنه ثيابه فإذا جسمه مثل الفضة النقية. ثم ضُرب بين يدي الخليفة مائة وخمسين سوطاً، منها ثلاثون فوق رأسه، أصاب أحدها عينه فسالت، ثم رده إلى السجن وقد بقي كأنه عبد أسود من زرقة الضرب، وتراكم الدماء فوق جلده، فأجلس إلى جانب أخيه لأمه عبد الله بن حسن، فاستسقى ماء فما جسر أحد أن يسقيه حتى سقاه خراساني من جملة الجلاوزة الموكلين بهم. ثم ركب الخليفة هودجه وأركبوا أولئك في محامل ضيقة، وعليهم القيود والأغلال، فاجتاز بهم المنصور وهو في هودجه، فناداه عبد الله بن حسن:

والله يا أبا جعفر ما هكذا صنعنا بأسراكم يوم بدر، فأخساه المنصور وتَغَـل عليه ونفر عنهم.

ولما انتهوا إلى العراق حبسوا بالهاشمية، وكان فيهم محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وكان جميلا يذهب الناس لينظروا إليه من حسنه. وكان يقال له: الديباج الأصفر. فأحضره المنصور بين يديه وقـال لـه: أما والله لأقتلنك قتلة ما قُتلها أحد. ثم ألقاه بين أسطوانتين وسد عليه حتى مـات. وقد هلك كثير منهم في السجن حتى فرج عنهم فيما بعد على ما سنذكره.

فكان فيمن هلك في السجن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بـن أبي طالب، وقد قيل وهو الأظهر أنه قتل صبراً، وأخوه إبراهيم بن الحسـن وغيرهما، وقل من خرج منهم من الحبس، وقد كانوا في سجن لا يسمعون فيه التأذين، ولا يعرفـون فيـه وقـت الصـلاة إلا بـالتلاوة، ثـم بعـث أهـل خراسان يشفعون في محمد بن عبد الله العثمـاني، فـأمر بـه فضربـت عنقـه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان.

وهو

■ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الأمـوي. أبو عبـد الله المدني المعروف بالديباج، لحسن وجهه. وأمه فاطمـة بنـت الحسـين بـن علي، روى الحديث عن أبيه وأمه وخارجة بن زيـد وطـاوس وأبي الزنـاد والزهري ونافع وغيرهم، وحدث عنه جماعة. ووثقه النسائي وابـن حبـان، وكان أخا عبد الله بن حسن بن حسن لأمه، وكانت ابنته رقية زوجـة ابـن أخيه إبراهيم بن عبد الله، وبسببها قتله أبو جعفر المنصـور في هـذه السـنة. وكان كريماً جواداً ممدحاً.

قال الزبير بن بكار: أنشدني سليمان بن عياش السـعدي لأبـي وجـزة السعدي يمدحه:

وجدنا المحض الأبيض من قريـش ... فتـى بـين الخليفـة والرسـول

أتـاك المجـد مـن هنـا وهنـا ... وكنـت لـه بمعتلـج السـيول

فمـا للمجـد دونـك مـن مبيـت ... ومـا للمجـد دونـك مـن مقيـل

ولا مُنْضَـىً وراءك تبتغيـه ... ولا هـو قـابل بـك مـن بديـل

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائة

فمما كان فيها من الأحداث خرج محمد بن عبد الله بن حسن بالمدينـة وأخيه إبراهيم بالبصرة، على ما سنبينه إن شاء الله تعالى.

أما محمد فإنه خرج على إثر ذهاب أبي جعفر المنصور ببني حسن من المدينة إلى العراق على الصفة والنعت الذي تقدم ذكره، وسجنهم في مكـان ساء مستقراً ومقاماً، لا يسـمعون فيـه التـأذين ولا يعرفـون دخـول أوقـات الصلوات إلا بالأذكار والتلاوات. وقد مات أكثر أكـابرهم هنـالك رحمهم الله. هذا كله ومحمد بن عبد الله بـن حسـن مختـف بالمدينـة، حتـى إنـه في بعض الأحيان اختفى في بئر نزل فيها، فلم يبق منه سوى رأسه، وباقيه مغمور بالماء، وقد تواعد هو وأخوه وقتـاً معينـاً يظهـران فيـه، هـو بالمدينـة وإبراهيم بالبصرة، ولم يزل الناس من أهل المدينة يؤنبون محمد بن عبد اللّـه في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج، وذلك لما أضـرّ بـه شـدة الاختفاء من كثرة إلحاح رياح نائب المدينة في طلبه ليلا ونهاراً، فلمـا اشـتد به الأمر وضاق الحال واعد أصحابه على الظهور في الليلـة الفلانيـة، فلمـا كانت تلك الليلة جاء بعض الوشاة إلى متولي المدينة فأعلمه بذلـك، فضـاق ذرعاً بذلك وانزعج انزعاجـاً شـديداً، وركـب في جحـافل فطـاف بالمدينـة وحولها ليستعلم مكان محمد بن حسن فأعياه ذلك، وقد مرّ في رجوعه على دار مروان، وهم بها مجتمعون، فلم يشعر بهم. فلما رجـع إلى منزلـه بعـث إلى بـني حسـين بـن علـي فجمعهـم ومعهـم رؤوس مـن سـادات قريـش وغيرهم، فوعظهم وأنّبهم وقال: يا معشر أهل المدينة، أمير المؤمنين يتطلـب هذا الرجل في المشارق والمغارب وهو بين أظهركم، ثـم مـا كفـاكم كتمانـه حتى بايعتموه على السمع والطاعة؟ والله لا يبلغني عن أحد منكـم خـرج معه إلا ضربت عنقه. فأنكر الذين هـم هنـالك أن يكـون عندهـم علـم أو شعور بشيء مما وقع مما يقوله، وقالوا: نحن نأتيك برجال متسلحين يقاتلون دونك إن وقع شيء من ذلك. فنهضوا فجاؤوه بجماعة مسلحين فاسـتأذنوه في دخولهم عليه، فقال: لا إذن لهم، إنـي أخشـى أن يكـون ذلـك خديعـة. فجلس أولئك على الباب ومكث الناس جلوساً حول الأمير وهـو واجـم لا يتكلم إلا قليلا حتى ذهبت طائفة من الليل، ثـم مـا فجـىء النـاس إلا وأصحاب محمد بن عبد الله قد ظهروا وأعلنوا بالتكبير، فانزعج النـاس في جوف الليل، وأشار بعض الحاضرين علـى الأمير أن يضـرب أعناق بني حسين، فقال أحدهم: علام ونحن مقرون بالسمع والطاعة؟ واشتغل الأمير عنهم بما فجأه من الأمر، فاغتنموا الغفلة ونهضـوا سـراعاً فتسـوروا جـدار الدار وألقوا أنفسهم على كناسة هنالك.

وأقبل محمد بن عبد الله بن حسن في مائتين وخمسين فارساً، فأقبل بمن معه فمر بالسجن فأخرج من فيـه، وجـاء دار الإمـارة فحاصرهـا فافتتحهـا وأمسك على رياح بن عثمان نائب المدينة فسـجنه في دار مـروان، وسـجن معه ابن مسلم بن عقبة، وهو الـذي أشـار بقتـل بـني حسـين في أول هـذه الليلة فنجوا وأحيط به. وأصبح محمد بن عبد الله بن حسن وقـد اسـتظهر على المدينة ودان له أهلها. فصلى بالناس الصبح وقرأ فيها ﴿إنا فتحنا لـك فتحاً مبيناً﴾. وأسفرت هذه الليلة عن مستهل رجب من هذه السـنة. وقـد خطب محمد بن عبد الله أهل المدينة في هذا اليوم، فتكلـم في بـني العبـاس وذكر عنهم أشياء ذمهم بها وأخبرهم أنه لم ينزل بلداً من البلـدان إلا وقـد بايعوه على السمع والطاعة، فبايعه أهل المدينة كلهم إلا القليل.

وقد روى ابن جرير [تاريخه:٧/٥٦٠] عن الإمام مالك أنـه أفتى النـاس بمبايعته، فقيل له: إنّ في أعناقنا بيعة المنصور، فقال: إنما كنتم مكرهين وليس لمكره بيعة، فبايعه الناس عند ذلك عن قول مالك، ولزم مـالك بيتـه. وقـد قال له إسماعيل بن عبد الله بن جعفر حين دعاه إلى بيعتـه: يـا ابـن أخـي إنك مقتول. فارتدع بعض الناس عنـه واسـتمر جمهورهـم معـه، فاسـتناب عليهم عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى قضائها عبـد العزيـز بـن المطلب بن عبد الله المخزومي، وعلى شرطتها عثمان بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى ديوان العطاء عبد الله بن جعفـر بـن عبـد الرحمـن بـن مسـور بـن مخرمة، وتلقـب بـالمهدي طمعـاً أن يكـون هـو الموعـود بـه في الأحاديث التي سنوردها في كتاب الفتن والملاحم فلم يكن إيّـاه، ولا تم لـه ما تمناه.

وقد ارتحل بعض أهل المدينة عنهـا ليلـة دخلهـا ابـن الحسـن، فطـوى المراحل البعيدة إلى المنصور في سبع ليال، فورد عليه فوجده نائماً في الليـل، فقال للربيع الحاجب: اسـتأذن لي علـى الخليفـة، فقـال:إنـه لا يوقـظ هـذه الساعة. فقال: إنه لا بد من ذلك فأخبر الخليفة فخـرج فقـال: ويحـك! مـا وراءك؟ فقال: إنه خرج ابن حسن بالمدينـة. فلـم يظهـر لذلـك اكتراثـا ولا انزعاجاً، بل قال: أنت رأيته؟ قال: نعم! فقال: هلك والله وأهلك معه من

اتبعه. ثم أمر بالرجل فسجن، ثم جاءت الأخبار بذلك وتواترت. فأطلقه المنصور وأطلق له عن كل ليلة ألف درهم فأعطاه سبعة آلاف درهم.

ولما تحقق المنصور الأمر من خروجه ضاق ذرعاً بذلك، فقال له بعض المنجمين: يا أمير المؤمنين لا عليك منه، فوالله لو ملك الأرض بحذافيرها فإنه لا يقيم أكثر من سبعين يوماً.

ثم أمر الخليفة جميع رؤوس الأمراء أن يذهبوا إلى السجن فيجتمعوا بعبد الله بن علي فيخبروه بما وقع وبخروج محمد ويسمعوا ما يقول لهم. فلما دخلوا عليه أخبروه بذلك فقال: ما ترون ابن سلامة فاعلا؟ - يعني المنصور - فقالوا: لا ندري. فقال: والله لقد قتل صاحبكم البخل ينبغي له أن ينفق الأموال ويستخدم الرجال، فإن ظهر فاسترجاع ما أنفق من الأموال عليه سهل، وإلا لم يكن لصاحبكم شيء في الخزائن. فرجعوا إلى الخليفة فأخبروه بذلك،

وأشار الناس على الخليفة بمناجزته، فاستدعى عيسى بن موسى فنلبه إلى ذلك، ثم قال: إني سأكتب إليه كتاباً أنذره به قبل قتاله فكتب إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم! من عبد الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن عبد الله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِم وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣-٣٤] ثم قال: فلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله، إن أنت أقلعت ورجعت إلى الطاعة لأؤمننك ومن اتبعك، ولأعطينك ألف ألف درهم، ولأدعنك تقيم في أحب البلاد إليك، ولأقضين لك جميع حوائجك، في كلام طويل.

فكتب إليه محمد جواب كتابه:

من عبد الله محمد بن عبد الله بن حسن: ﴿طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ، وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص من ١-٥] ثم قال: وإني أعرض عليك من الأمان مثل ما عرضت عليّ، فأنا أحق بهذا الأمر منكم، وأنتم إنما وصلتم إليه بنا، فإن عليّاً كان الوصيّ وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ونحن أشرف أهل الأرض نسباً، فرسول الله ﷺ خير الناس وهو جدنا، وجدتنا خديجة وهي أفضل زوجاته، وفاطمة أمنا وهي أكرم بناته، وإن هاشماً ولد علياً مرتين، وإن حسناً ولده عبد المطلب مرتين، وهو وأخوه سيدا شباب أهل الجنة، وإن رسول الله ﷺ ولدني مرتين، وإني أوسط بني هاشم نسباً، وأصرحهم نسباً، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأخفهم عذاباً في النار، فأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد، فإنك أعطيت ابن هبيرة العهد ونكثته، وكذلك بعمك عبد الله بن علي، وبأبي مسلم الخراساني.

فكتب إليه أبو جعفر جواب ذلك في كتاب طويل حاصله: أما بعد فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جلّ فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، وقد أنزل الله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وكان له حينئذ أربعة أعمام، فاستجاب له اثنان أحدهما أبي، وكفر اثنان أحدهما أبو ك فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينهما إلاّ ولا ذمة، وقد أنزل الله في عدم إسلام أبي طالب ﴿إِنَّكَ لا تهدي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وقد فخرت به لأنه أخف أهل النار عذاباً، وليس في الشر خيار، ولا ينبغي لمؤمن الفخر بأهل النار، وفخرت بأن عليا ولده هاشم مرتين. وأن حسنا ولده عبد المطلب مرتين، فهذا رسول الله ﷺ خير الأولين والآخرين إنما ولده عبد المطلب وهاشم مرة واحدة، وقولك إنك لم تلدك أمهات الأولاد، فهذا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ من مارية، وهو خير منك، وعلي بن الحسين من أم ولد وهو خير منك، وكذلك ابنه محمد بن علي، وابنه جعفر بن محمد، جدتهما أم ولد وهما خير منك.

وأما قولك: إنكم بنو رسول الله ﷺ:فقد قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد جاءت السنة التي لا خلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورثون، ولم يكن لفاطمة ميراث من رسول الله ﷺ بنص الحديث، وقد مرض رسول الله ﷺ وأبوك حاضر فلم يأمره بالصلاة بالناس، بل أمر غيره، ولما توفي رسول الله ﷺ لم يعدل الناس بأبي بكر ثم عمر، ثم قدموا عليه عثمان في الشورى، ثم ولّوه بعد مقتل عثمان واتهمه بعضهم به، وقاتله طلحة والزبير، وامتنع سعد من مبايعته، ثم بايع بعد ذلك معاوية، ثم طلبها أبو ك وقاتل عليها الرجال، ثم اتفق على التحكيم فلم يف به، ثم صارت إلى الحسن فباعها بخرق ودراهم، وأقام بالحجاز يأخذ مالا من غير حله، وسلم الأمر إلى غير أهله، وترك شيعته في أيدي معاوية. فإن كانت لكم فقد تركتموها وبعتموها بثمنها، ثم خرج عمك حسين على ابن مرجانة وكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وحرقوكم بالنيران، وحملوا نساءكم على الإبل كالسبايا إلى الشام، حتى خرجنا عليهم نحن فأخذنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم، وذكرنا فضل سلفكم، فجعلت ذلك حجة علينا، وظننت أنا إنما ذكرنا فضله تقدمةً منّا له على حمزة والعباس وجعفر، وليس الأمر كما زعمت، فإن هؤلاء مضوا ولم يدخلوا في الفتن، وسلموا من الدنيا وابتلي بذلك أبوك. وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلوات المكتوبات، فذكرنا فضله وعنفناهم بما نالوا منه، وقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وخدمة زمزم، وحكم لنا بها رسول الله ﷺ في الإسلام ولما قحط الناس زمن عمر استسقى بأبينا العباس، وتوسل به إلى ربه وأبو ك حاضر، وقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد رسول الله ﷺ إلا العباس، فالسقاية سقايته، والوراثة وراثته، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف في الجاهلية والإسلام في الدنيا والآخرة إلا والعباس وارثه ومورثه.

في كلام طويل فيه بحث ومناظرة وفصاحة وبلاغه. وقد استقصاه ابن جرير بطوله والله سبحانه أعلم.

فصل في ذكر مقتل محمد بن عبد الله بن حسن

بعث محمد بن عبد الله بن حسن في غبون ذلك رسلاً إلى أهل الشام يدعوهم إلى بيعته وخلافته فأبوا قبول ذلك منه، وقالوا: قد ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال. ولم يكترثوا بأصحابه فرجعوا إليه بعد ما خافوا على أنفسهم وجعل يستميل رؤوس أهل المدينة، فمنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه، وقال له بعضهم: كيف أبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيه مال تستعين به على استخدام الرجال؟ ولزم بعضهم منزله فلم يخرج حتى

قتل محمد بن عبد الله بن حسن. وبعث محمد الحسنَ بن معاوية في سبعين رجلا ونحواً من عشرة فوارس على مكة إن هو دخلها فساروا إليها، فلما بلغ أهلها قدومهم خرجوا إليهم في الوف من المقاتلة، فقال لهم الحسين بن معاوية: علام تقاتلون وقد مات أبو جعفر المنصور؟ فقال السري بن عبد الله زعيم أهل مكة: إن برده جاءتنا من أربع ليال وقد أرسلت إليه فأنا أنتظر جوابه إلى أربع، فإن كان ما تقولون حقاً سلمتكم البلد وعليّ مؤنة رجالكم وخيلكم. فامتنع الحسن بن معاوية من الانتظار وأبى إلا المناجزة، وحلف لا يبيت الليلة إلا بمكة، إلا أن يموت. وأرسل إلى السري أن ابرز من الحرم إلى الحل حتى لا تراق الدماء في الحرم. فلم يخرج، فتقدموا إليهم فصافُوهم فحمل عليه الحسن وأصحابه حملة واحدة فهزموهم وقتلوا منهم نحو سبعة، ودخلوا مكة، فلما أصبحوا خطب الحسن بن معاوية الناس وعزّاهم في أبي جعفر، ودعا لمحمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالمهدي.

خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن

وظهر بالبصرة أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وجاء البريد إلى أخيه محمد بن بذلك فانتهى إليه ليلا فاستؤذن له عليه وهو بدار مروان فطرق بابها. فقال: اللّهم إني أعوذ بك من شر طوارق الليل إلا طارقاً يطرق بخير. ثم خرج فأخبره عن أخيه بذلك فاستبشروا جداً وفرح بذلك كثيراً، وكان يقول للناس بعد صلاتي الصبح والمغرب: ادعوا للّه لإخوانكم أهل البصرة، وللحسين بن معاوية بمكة، واستنصروه على أعدائكم.

وأما ما كان من المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبد اللّه بن حسن، صحبة عيسى بن موسى أربعة آلاف فارس من الشجعان المتخبين، منهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة وجعفر بن حنظلة البهراني، وكان المنصور قد استشاره فيه فقال: يا أمير المؤمنين ادع بمن شئت ممن تثق به من مواليك فينزل وادي القرى فيمنعه من ميرة الشام، فيموت هو ومن معه جوعاً، فإنه ببلد ليس فيه مال ولا رجال ولا كراع ولا سلاح، وقدم بين يديه كثير بن الحصين العبدي وقد قال أبو جعفر المنصور لعيسى بن موسى حين ودعه: يا عيسى! إني أبعثك إلى ما بين جنبي هذين، فإن ظفرت بالرجل فشم سيفك وناد في الناس بالأمان. وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به، فإنهم أعلم بمذاهبه. وكتب معه كتباً إلى رؤساء قريش والأنصار من أهل المدينة يدفعها إليهم خفية يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة. فلما اقترب عيسى بن موسى من المدينة بعث الكتب مع رجل فأخذه حرس محمد بن عبد اللّه بن حسن فوجدوا معه تلك الكتب فدفعوها إلى محمد فاستحضر جماعة من أولئك فعاقبهم وضربهم ضرباً شديداً وقيوداً ثقالا، وأودعهم السجن. ثم إن محمداً استشار أصحابه في المقام بالمدينة حتى يأتي عيسى بن موسى فيحاصرهم بها، أو أن يخرج بمن معه فيقاتل أهل العراق. فمنهم من أشار بهذا، ومنهم من أشار بذاك، ثم اتفق الرأي على المقام بالمدينة، لأن رسول اللّه ﷺ ندم يوم أحد على الخروج منها، ثم اتفقوا على حفر خندق حول المدينة كما فعل رسول اللّه ﷺ يوم الأحزاب، فأجاب إلى ذلك كله، وحفر مع الناس في الخندق بيده اقتداء برسول اللّه ﷺ، وقد ظهر لهم لبنة من الخندق الذي كان حفره رسول اللّه ﷺ، ففرحوا بذلك واستبشروا وكبروا وبشروه بالنصر. وكان محمد حاضراً عليه قباء أبيض، وفي وسطه منطقة، وكان شكلا ضخماً أسمر عظيم الهامة.

ولما نزل عيسى بن موسى الأعوص واقترب من المدينة، صعد محمد بن عبد اللّه المنبر فخطب الناس وحثهم على الجهاد وندبهم إليه - وكانوا قريباً من مائة ألف - فقال لهم في جملة ما قال: إني جعلتكم في حل من بيعتي، فمن أحب منكم أن يقيم عليها فليفعل. ومن أحب أن يتركها فليفعل. فتسلل كثير منهم أو أكثرهم عنه، ولم يبق معه إلا شرذمة من الناس، وخرج أكثر أهل المدينة بأهليهم منها لئلا يشهدوا القتال بها، فنزلوا الأعراض ورؤوس الجبال. وقد بعث محمد أبا القَلَمّس ليردهم عن الخروج فلم يمكنه ذلك في أكثرهم، واستمروا ذاهبين. وقال محمد لرجل: أتأخذ سيفاً ورمحاً وترد هؤلاء الذين خرجوا من المدينة؟ فقال: نعم إن أعطيتني رمحاً أطعنهم وهم بالأعراض، وسيفاً أضربهم به وهم في رؤوس الجبال فعلت. فسكت محمد ثم قال: ويحك! إن أهل الشام والعراق وخراسان قد بيضوا - يعني لبسوا البياض - موافقة لي وخلعوا السواد، فقال: وما ينفعني أن لو بقيت الدنيا زبدة بيضاء وأنا في مثل صوفة الدواة، وهذا عيسى بن موسى نازل بالأعوص. ثم جاء عيسى بن موسى فنزل قريباً من المدينة: على ميل منها، فقال له دليله ابن الأصم: إني أخشى إذا كشفتموهم أن يرجعوا إلى معسكرهم سريعاً قبل أن تدركهم الخيل. ثم ارتحل به فأنزله الجرف على سقاية سليمان بن عبد الملك على أربعة أميال من المدينة، وذلك يوم السبت لصبح ثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة. وقال: إن الراجل إذا هرب لا يقدر على الهرولة أكثر من ميلين أو ثلاثة فتدركه الخيل.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس فنزلوا عند الشجرة في طريق مكة، وقال لهم إن هرب هذا الرجل فليس له ملجأ إلا مكة فاقتلوه، وحولوا بينه وبينها. ثم أرسل عيسى إلى محمد يدعوه إلى السمع والطاعة أو الرجوع إلى المبايعة لأمير المؤمنين المنصور، فإنه قد أعطاه الأمان له ولأهل بيته إن هو أجاب إلى ذلك، فقال محمد للرسول: لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتك. ثم بعث إلى عيسى بن موسى يقول له: إني أدعوك إلى كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، فاحذر أن تمتنع فأقتلك فتكون شر قتيل. أو تقتلني فتكون قتلت من دعاك إلى اللّه وسنة رسوله ﷺ، ثم جعلت الرسل تتردد بينهما ثلاثة أيام يدعوه فيها عيسى بن موسى إلى السمع والطاعة والرجوع إلى الجماعة. وجعل عيسى بن موسى يقف في كل يوم من هذه الأيام الثلاثة على الثنية عند سلع فينادي: يا أهل المدينة إن دماءنا علينا حرام فمن جاءنا فوقف تحت رايتنا فهو آمن، ومن دخل مسجد رسول اللّه ﷺ فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، فليس لنا في قتالكم أرب، وإنما نريد محمداً وحده لنذهب به إلى الخليفة. فجعلوا يسبونه وينالون من أمه، ويتكلمون معه بكلام شنيع، ويخاطبونه مخاطبة فظيعة. وقالوا: هذا ابن رسول اللّه ﷺ معنا ونحن معه، نقاتل دونه.

فلما كان اليوم الثالث أتاهم في خيل ورجال وسلاح ورماح لم ير مثلها، فناداه يا محمد! إن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقاتلك حتى أدعوك إلى السمع الطاعة، فإن فعلت أمنك وقضى دينك وأعطاك أموالا وأراضي، وإن أبيت قاتلتك فقد دعوتك غير مرة. فناداه محمد: إنه ليس لكم عندي إلا القتال. فنشبت الحرب حينئذ بينهم، وكان جيش عيسى بن موسى فوق الأربعة آلاف، وعلى المقدمة حميد بن قحطبة، وعلى ميمنته محمد بن السفاح، وعلى ميسرته داود بن كراز، وعلى الساقة الهيثم بن شعبة، ومعهم عدد لم ير مثلها. وفرق عيسى أصحابه في كل قطر طائفة. وكان محمد

وأصحابه على عدة أصحاب أهل بدر، واقتتل الفريقان قتالا شديداً جداً، وترجل محمد إلى الأرض فيقال إنه قتل بيده من جيش عيسى بن موسى سبعين رجلا من أبطالهم، وأحاط بهم أهل العراق فقتلوا طائفة من أصحاب محمد بن عبد الله بن حسن، فاقتحموا عليهم الخندق الذي كانوا حفروه وعملوا أبو اباً على قدره، وقيل إنهم ردموه بجدائج الإبل حتى أمكنهم أن يجوزوه، وقد يكونون هذا في موضع منه، وهذا في موضع آخر والله أعلم.

ولم يزل القتال ناشباً بينهم من بكرة النهار حتى صليت العصر. فلما صلى محمد العصر نزلوا إلى مسيل الوادي بسلع فكسر جفن سيفه وعقر فرسه وفعل أصحابه مثله وصبروا أنفسهم للقتال وحميت الحرب حينئذٍ جداً، فاستظهر أهل العراق ورفعوا راية سوداء فوق سلع، ثم دنوا إلى المدينة فدخلوها ونصبوا راية سوداء فوق مسجد رسول الله ﷺ.

فلما رأى ذلك أصحاب محمد تنادوا: دُخِلت المدينة، وهربوا وبقي محمد في شرذمة قليلة جداً ثم بقي وحده، وفي يده سيف صلت يضرب به من تقدم إليه، فلا يقوم له شيء إلا أنامه، حتى قتل خلقاً من أهل العراق من الشجعان، ويقال إنه كان في يده يومئذٍ ذو الفقار ثم تكاثر عليه الناس فتقدم إليه رجل فضربه بسيفه تحت شحمة أذنه اليمنى فسقط لركبتيه وجعل يحمي نفسه ويقول: ويحكم ابن نبيكم مجروح مظلوم. وجعل حميد بن قحطبة يقول: ويحكم! دعوه لا تقتلوه، فأحجم عنه الناس وتقدم إليه حميد بن قحطبة فحز رأسه وذهب به إلى عيسى بن موسى فوضعه بين يديه. وكان حميد قد حلف أن يقتله متى رآه، فما أدركه إلا كذلك، ولو كان على حاله وقوته لما استطاعه حميد ولا غيره من الجيش.

وكان مقتل محمد بن عبد الله بن حسن عند أحجار الزيت يوم الاثنين بعد العصر، لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وقال عيسى بن موسى لأصحابه حين وضع رأسه بين يديه: ما تقولون فيه؟ فنال منه أقوام وتكلموا فيه، فقال رجل منهم: كذبتم والله! لقد كان صواماً قواماً، ولكنه خالف أمير المؤمنين وشق عصى المسلمين فقتلناه على ذلك. فسكتوا حينئذٍ.

وأما سيفه ذو الفقار فإنه صار إلى بني العباس يتوارثونه حتى جربه بعضهم فضرب به كلباً فانقطع السيف. ذكره ابن جرير وغيره.

وقد بلغ المنصور في غبون هذا الأمر أن محمداً فر من الحرب فقال: لا إنا أهل بيت لا نفر.

وقال ابن جرير [تاريخه:٧/٥٩٧]: حدثني عبد الله بن راشد حدثني أبو الحجاج قال: إني لقائم على رأس أبي جعفر المنصور وهو مسائلي عن مخرج محمد، إذ بلغه أن عيسى بن موسى قد هُزم وكان متكئاً فجلس فضرب بقضيب معه مصلاه وقال: كلا، فأين لعب صبياننا بها على المنابر ومشورة النساء؟ ما أني لذلك بعد، وبعث عيسى بن موسى بالبشارة إلى المنصور مع القاسم بن الحسن وبالرأس مع ابن أبي الكرام، ثم أمر بدفن الجثة فدفن بالبقيع، وأمر بأصحابه الذين قتلوا معه فصلبوا صفين ظاهر المدينة ثلاثة أيام ثم طرحوا على مقبرة اليهود عند سلع. ثم نقلوا إلى خندق هناك، وأخذ أموال بني حسن كلها فسوغها له أبو جعفر المنصور، ويقال إنه ردها بعد ذلك إليهم، حكاه ابن جرير.

ونودي في أهل المدينة بالأمان فأصبح الناس في أسواقهم، وترفع عيسى بن موسى في الجيش إلى الجرف من مطر أصاب الناس يوم قتل محمد، وجعل يتتاب المسجد من الجرف، وأقام بالمدينة إلى اليوم التاسع عشر من رمضان، ثم خرج منها قاصداً مكة وكان بها الحسن بن معاوية من جهة محمد بن عبد الله بن حسن، وكان محمد قد كتب إليه ليقدم عليه، فلما خرج من مكة وكان ببعض الطريق تلقته الأخبار بقتل محمد بن عبد الله، فاستمر فاراً إلى البصرة إلى إبراهيم بن عبد الله. الذي كان قد خرج بها ثم قتل بعد أخيه في هذه السنة على ما سنذكره.

ولما جيء المنصور برأس محمد بن عبد الله بن حسن فوضع بين يديه أمر به فطيف به في طبق أبيض ثم طيف به في الأقاليم بعد ذلك، ثم شرع المنصور في استدعاء من خرج مع محمد من أشراف أهل المدينة، فمنهم من قتله ومنهم من ضربه ضربا مبرحاً، ومنهم من يعفو عنه.

ولما توجه عيسى بن موسى إلى مكة استناب على المدينة كثير بن حصين، فاستمر بها شهراً حتى بعث المنصور على نيابتها عبد الله بن الربيع، فعاث جنده في المدينة فساداً واشتروا من الناس أشياء لا يعطونهم ثمنها، وإن طولبوا بذلك ضربوا المطالب، وخوفوه بالقتل، فثار عليهم طائفة من السودان واجتمعوا ونفخوا في بوق لهم فاجتمع على صوته كل أسود في المدينة. وحملوا عليهم حملة واحدة وهم ذاهبون إلى الجمعة، لسبع بقين من ذي الحجة من هذه السنة، وقيل: لخمس بقين من شوال منها، فقتلوا منهم طائفة كثيرة بالمزاريق وغيرها، وهرب نائب المدينة الأمير عبد الله بن الربيع وترك صلاة الجمعة. وكان رؤساء السودان: وثيق ويعقل ورمقة وحديا وعنقود، ومسعر، وأبو قيس وأبو النار.

فركب عبد الله بن الربيع في جنوده والتقى مع السودان فهزموه أيضاً فلحقوه بالبقيع فألقى لهم دراهم شغلهم بها، حتى نجا بنفسه ومن اتبعه، فلحق ببطن نخل على ليلتين من المدينة، ووقع السودان على طعام لأبي جعفر المنصور كان مخزوناً في دار مروان قد قدم به في البحر لأجل الجند الذين بالمدينة من دقيق وسويق وزيت وقَسْب، فانتهبوه وباعوه بأرخص ثمن. وذهب الخبر إلى المنصور بما كان من أمر السودان، وخاف أهل المدينة من معرة ذلك. فاجتمعوا في المسجد وخطبهم ابن أبي سبرة - وكان مسجوناً - فصعد المنبر وفي رجليه القيود، فحثهم على السمع والطاعة للمنصور، وخوفهم شر ما صنعه مواليهم، فاتفق رأيهم على أن يكفوا مواليهم ويفرقوهم وأن يذهبوا إلى أميرهم فيردوه إلى عمله، ففعلوا ذلك، فسكن الأمر وهدأ الناس وانطفأت الشرور، ورجع عبد الله بن الربيع إلى المدينة فقطع يد وثيق وأبي النار ويعقل ومسعر.

ذكر خروج إبراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة وكيفية مقتله

كان إبراهيم قد نزل في بني ضبيعة من البصرة، في دار الحارث بن عيسى، وكان لا يرى بالنهار، وكان قدومه إليها بعد أن طاف بلاداً كثيرة جداً، وجرت عليه وعلى أخيه خطوب شديدة هائلة. وانعقد أسباب هلاكهما في أوقات متعددة، ثم كان آخر ما استقر أمره بالبصرة في سنة ثلاث وأربعين ومائة، بعد منصرف الحجيج.

وقيل إن قدومه إليها كان في مستهل رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، بعثه أخوه إليها بعد ظهوره بالمدينة النبوية. قاله الواقدي. [تاريخ الطبري:٧/٦٣٤]

قال: وكان يدعو في السر إلى أخيه، فلما قتل أخوه أظهر الدعوة إلى نفسه في شوال من هذه السنة، والمشهور أنه قدمها قبل ذلك وأنه أظهر

الدعوة في حياة أخيه ودعا إلى نفسه كما قدمنا والله أعلم.

ولما دخل البصرة أول قدومه إليها نزل عند يحيى بن زياد بن حسان النبطي، فاختفى عنده هذه المدة كلها، حتى ظهر في هذه السنة وكان أول ظهوره في دار أبي فروة، وكان أول من بايعه نميلة بن مرة، وعفوُ الله بن سفيان، وعبد الواحد بن زياد، وعمر بن سلمة الهجيمي، وعبيد الله بن يحيى بن حصين الرقاشي، وندبوا الناس إليه فاستجاب له خلق كثيرة فتحول إلى دار أبي مروان في وسط البصرة، واستفحل أمره، وبايعه قام من الناس، وتفاقم الخطب به، وبلغ خبره إلى المنصور فازداد غماً إلى غمه بأخيه محمد، وذلك لأنه ظهر قبل مقتل أخيه وإنما كان السبب في تعجيله الظهور بالبصرة كتاب أخيه إليه فامتثل أمره ودعا إلى نفسه، فانتظم أمره بالبصرة، وكان نائبها للمنصور سفيان بن معاوية وكان مماثلاً لإبراهيم في الباطن، ويبلغه أخباره فلا يكترث بها، ويكذب بما يُخبر منها ويودّ أن لو صح أمر إبراهيم، وقد أمده المنصور بأميرين من أهل خراسان معهما ألفا فارس وراجل، فأنزلهما عنده ليتقوى بهما على محاربة إبراهيم، وتحول المنصور من بغداد - وكان قد شرع في عمارتها - إلى الكوفة، وجعل كلّما اتهم رجلا من أهل الكوفة في أمر إبراهيم بعث إليه من يقتله في الليل في منزله، وكان الفراضة العجلي قد هَمَّ بالوثوب بالكوفة فلم يمكنه ذلك لمكان المنصور بها، وجعل الناس يقصدون البصرة من كل فج لمبايعة إبراهيم، ويفدون إليها جماعات وفرادى. وجعل المنصور يرصد لهم المسالح فيقتلونهم في الطرقات ويأتونه برؤوسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ بها الناس. وأرسل المنصور إلى حرب الراوندي - وكان مرابطاً بالجزيرة في ألفي فارس لقتال الخوارج - يستدعيه إلى الكوفة، فأقبل بمن معه فلما اجتاز ببلدة بها أنصار لإبراهيم فقالوا له: لا ندعك تجتاز، لأنك إنما طلبك ليحارب إبراهيم. فقال: ويحكم! دعوني، فأبوا فقاتلهم فقتل منهم خمسمائة وأرسل برؤوسهم إلى المنصور. فقال: هذا أول الفتح. ولما كانت ليلة الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة، خرج إبراهيم بن عبد الله في الليل إلى مقبرة بني يشكر في بضعة عشر فارساً، وقدم في هذه الليلة أبو حماد الأبرص في ألفي فارس مدداً لسفيان بن معاوية، فأنزلهم الأمير في القصر، ومال إبراهيم وأصحابه ومن التف عليه وصار إليه على دواب أولئك العسكر واسلحتهم فأخذوها جميعاً، فكان هذا أول ما أصاب. وما أصبح الصباح إلا وقد استظهر جداً، فصلى بالناس صلاة الصبح في المسجد الجامع، والتفّت الخلائق عليه ما بين ناظر وناصر، وتحصن سفيان بن معاوية نائب الخليفة بقصر الإمارة وجلس عنده الجنود فحاصرهم إبراهيم بمن معه، فطلب سفيان بن معاوية من إبراهيم الأمان فأعطاه الأمان، ودخل إبراهيم قصر الإمارة فبسطت له حصير ليجلس عليها في مقدم إيوان القصر، فهبت الريح فقلبت الحصير ظهراً لبطن، فتطير الناس بذلك، فقال إبراهيم: إنا لا نتطير. وجلس على ظهر الحصير، وأمر بحبس سفيان بن معاوية مقيداً وأراد بذلك أن يبرئ ساحته عند أبي جعفر المنصور، واستحوذ على ما كان ببيت المال فإذا فيه ستمائة ألف، وقيل ألفا ألف. فقوي بذلك جداً

وكان في البصرة جعفر ومحمد ابنا سليمان بن علي، وهما ابنا عم الخليفة المنصور، فركبا في ستمائة فارس فأرسل إليهما إبراهيم المضاءَ بن القاسم في ثمانية عشر فارساً وثلاثين راجلا فهزم بهؤلاء ستمائة فارس. وآمن من بقي منهم، وبعث إبراهيم إلى أهل الأهواز فبايعوه له وأطاعوه، وأرسل إلى نائبها مائتي فارس عليهم المغيرة فخرج إليه محمد بن الحصين نائب البلاد في أربعة آلاف فارس فهزمه المغيرة واستحوذ على البلاد، وبعث إبراهيم إلى بلاد فارس فأخذها، وكذلك واسط والمدائن والسواد، واستفحل أمره جداً، ولكن لما جاءه نعي أخيه محمد انكسر جداً، وصلى بالناس يوم العيد وهو مكسور. فقال بعضهم: واللّه لقد رأيت الموت في وجهه وهو يخطب الناس فنعى إلى الناس أخاه محمداً، فازداد الناس حنقاً على المنصور وأصبح فعسكر بالناس واستناب على البصرة نميلة وخلف ابنه حسناً معه.

ولما بلغ المنصور خبره تحير في أمره وجعل يتأسف على ما فرق من جنده في الممالك، وكان قد بعث مع ابنه المهدي ثلاثين ألفاً إلى الري. وبعث مع محمد بن الأشعث إلى إفريقية في أربعين ألفا والباقون مع عيسى بن موسى بالحجاز، ولم يبق معه في معسكره سوى ألفي فارس. وكان يأمر بالنيران الكثيرة فتوقد ليلا، فيحسب الناظر إليها أن هناك جنوداً كثيراً. ثم كتب المنصور إلى عيسى بن موسى وهو بالحجاز بعد قتل محمد بن عبد الله بن حسن: إذا قرأت كتابي هذا فأقبل من فورك ودع كل ما أنت فيه. فلم ينشب أن أقبل إليه فقال له: اذهب إلى إبراهيم بالبصرة ولا يهولنك كثرة من معه، فإنهم جملا بني هاشم المقتولان جميعاً، فابسط يدك وثق بما عندك وستذكر ما أقول لك فكان الأمر كما قال المنصور.

وكتب المنصور إلى ابنه المهدي أن يوجه خازم بن خزيمة في أربعة آلاف إلى الأهواز، فذهب إليها فأخرج منها نائب إبراهيم - وهو المغيرة - وأباحها ثلاثة أيام، ورجع المغيرة إلى البصرة، وكذلك بعث إلى كل كورة من هذه الكور التي خلعت بيعته جندا يردُّونهم إلى الطاعة. قالوا: ولزم المنصور موضع مصلاه فلم يبرح منه ليلا ولا نهاراً في بِذْلَةِ ثيابٍ عليه قد اتسخت، فلم يزل مقيماً هناك بضعاً وخمسين يوماً حتى فتح الله عليه، وقد قيل له في غبون ذلك يا أمير المؤمنين: إن نساءك قد خبثت أنفسهن لغيبتك عنهن، فانتهر القائل وقال: ويحك ليست هذه أيام نساء، حتى أرى رأس إبراهيم بين يدي، أو يحمل رأسي إليه.

وقال بعضهم: دخلت على المنصور وهو مهموم من كثرة ما وقع من الشرور والفتوق والخروق، وهو لا يستطيع أن يتابع الكلام من كثرة كربه وهمه، وهو مع ذلك قد أعد لكل أمر ما يسد خلله، وقد خرجت عن يده البصرة، والأهواز وأرض فارس والمدائن وأرض السواد. وفي الكوفة عنده مائة ألف سيف مغمدة تنتظر به صيحة واحدة، فيثبون عليه مع إبراهيم، وهو في ذلك يعرك النوائب ويمرسها ولم تقعد به نفسه وهو كما قال الشاعر:

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما

فصيرته ملكا هماما

وأقبل إبراهيم بن عبد الله قاصداً من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل فأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفا، وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وجاء إبراهيم فنزل في باخمرا في جحافل عظيمة، فقال له بعض الأمراء: إنك قد اقتربت من المنصور فلو أنك سرت إليه بطائفة من جيشك هذا لأخذت بقفاه فإنه ليس عنده من الجيوش ما يردون عنه. فقال آخرون منهم: إن الأولى أن نناجز هؤلاء الذين بإزائنا، ثم هو في قبضتنا. فثناهم ذلك على الرأي الأول، ولو فعلوه لتم لهم الأمر. ثم قال بعضهم: خندق حول الجيش. وقال آخرون: إن هذا الجيش لا يحتاج إلى خندق حوله، فترك ذلك. ثم أشار بعضهم أن يبيت

جيش عيسى بن موسى فقال إبراهيم: إني لا أرى ذلك، فتركه. ثم أشار آخرون بأن يجعل جيشه كراديس فإن غلب كردوس ثبت الآخر، وقال آخرون: إن الأولى أن نقاتل صفوفاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

والأمر لله وما شاء فعل ولو ساروا إلى الكوفة وبيتوا الجيش أو جعل جيشه كراديس لتم له الأمر مع تقدير الله تعالى.

وأقبل الجيشان فتصافوا في باخمرا وهي على ستة عشر فرسخاً من الكوفة فاقتتلوا بها قتالا شديداً فانهزم حميد بن قحطبة بمن معه من المقدمة، فجعل عيسى ينادهم الله في الرجوع والكرة فلا يلوي عليه أحد، وثبت عيسى بن موسى في مائة رجل من أهله، فقيل له: لو تنحيت من مكانك هذا لئلا يحطمك جيش إبراهيم فقال: والله لا أزول عنه حتى يفتح الله لي أو أقتل ها هنا. وكان المنصور قد تقدم إليه بما أخبره به بعض المنجمين أن الناس يكون لهم جولة مع عيسى بن موسى ثم يقومون إليه وتكون العاقبة له، فاستمر المنهزمون ذاهبين فانتهوا إلى نهر بين جبلين فلم يمكنهم خوضه فكروا راجعين بأجمعهم، فكان أول راجع حميد بن قحطبة الذي كان أول من انهزم. ثم اجتلدوا هم وأصحاب إبراهيم فاقتتلوا قتالا شديداً، وقتل من كلا الفريقين خلق كثير، ثم انهزم أصحاب إبراهيم وثبت هو في خمسمائة، وقيل في أربعمائة. وقيل في سبعين رجلا، واستظهر عيسى بن موسى وأصحابه، وقتل إبراهيم في جملة من قتل واختلط رأسه مع رؤوس أصحابه، فجعل حميد يأتي بالرؤوس فيعرضها على عيسى بن موسى حتى عرفوا رأس إبراهيم فبعثوه مع البشير إلى المنصور، وكان نبيخت المنجم قد دخل على المنصور قبل مجيء البشير على المنصور فقال له: يا أمير المؤمنين إن لم تصدقني فاحبسني فإن لم يكن الأمر كما ذكرت لك فاقتلني. فبينا هو عنده إذ جاء البشير بهزيمة جيش إبراهيم، ولما جيء بالرأس تمثل المنصور ببيت معقر بن أوس بن حمار البارقي:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

وقيل إن المنصور لما نظر رأى الرأس بكى حتى جعلت دموعه تسقط على الرأس وقال: والله لقد كنت لهذا كارهاً، ولكنك ابتليت بي وابتليت بك، ثم أمر بالرأس فنصب بالسوق، وأقطع نبيخت المنجم الكذاب ألفي جريب.

فهذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة، فهم كذبة كفرة وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين وذلك ضلال لا يجوز.

وذكر صالح مولى المنصور قال: لما جيء برأس إبراهيم جلس المنصور مجلساً عاماً وجعل الناس يدخلون عليه فيهنئونه وينالون من إبراهيم ويقبحون الكلام فيه ابتغاء مرضاة المنصور، والمنصور واجم متغير اللون لا يتكلم. حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فوقف فسلم ثم قال: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرّط فيه من حقك. قال فاصفر لون المنصور وأقبل عليه وقال له: يا أبا خالد مرحباً وأهلا، ههنا فاجلس؟! فعلم الناس أن ذلك وقع منه. فجعل كل من جاء يقول كما قال جعفر بن حنظلة.

قال أبو نعيم الفضل بن دكين: كان ذلك في ليلة الثلاثاء لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة. يعني سنة خمس وأربعين ومائة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

وقد قتل في هذه السنة جماعة من أعيان أهل البيت منهم عبد الله بن حسن وابناه محمد وإبراهيم، وأخوه حسن بن حسن، وأخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان الملقب بالديباج. وقد تقدمت ترجمته في آخر الجزء الذي قبله.

فأما

■ **عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي فتابعي**، روى عن أبيه وأمه فاطمة بنت الحسين وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهو صحابي جليل، وغيرهم. وعنه جماعة منهم سفيان الثوري والدراوردي ومالك، وكان معظماً عند العلماء مبّجلاً، وكان عابداً كبير القدر.

قال يحيى بن معين: كان ثقة مأموناً، وفد على عمر بن عبد العزيز فأكرمه، ووفد على السفاح فعظمه وأعطاه ألف ألف درهم، فلما ولي المنصور عكس هذا الإكرام الله عز وجل، وأخذه وأهل بيته مقيدين مغلولين مهانين من المدينة إلى الهاشمية، فأودعهم السجن الضيق كما قدمنا، فمات أكثرهم فيه، فكان عبد الله بن حسن هذا أول من مات فيه بعد خروج ولده محمد بالمدينة، وقد قيل إنه قتل عمداً. وقيل بل مات حتف أنفه والله أعلم وكان عمره يوم مات خمساً وسبعين سنة، وصلى عليه أخوه لأمه الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي.

ثم مات بعده أخوه حسن فصلى عليه أخوه لأمه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ثم قتل بعده وحمل رأسه إلى خراسان كما تقدم.

وأما محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب فروى عن أبيه ونافع، وعن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة في كيفية الهويّ إلى السجود، وحدث عنه جماعة، ووثقه النسائي وابن حبان وقال البخاري: لا يتابع على حديثه. وقد ذكر أن أمه حملت به أربع سنين، وكان طويلا سميناً أسمر مفخّماً ضخماً ذا همة سامية، وسطوة عالية وكان مقتله بالمدينة في منتصف رمضان سنة خمس وأربعين ومائة، وله خمس وأربعين سنة. وقد حملوا رأسه إلى المنصور، وطيف به في الأقاليم.

■ (إبراهيم بن حسن)

وأما أخوه إبراهيم فكان ظهوره بالبصرة بعد ظهور أخيه بالمدينة وكانت وفاته بعد وفاته في ذي القعدة من هذه السنة وليس له شيء في الكتب الستة.

وقد حكى أبو داود السجستاني عن أبي عوانة أنه قال: كان إبراهيم وأخوه محمد خارجيّين. ثم قال أبو داود: وبئسما قال، هذا رأي الزيدية.

قلت: وقد حكى عن جماعة من العلماء والأئمة أنهم مالوا إلى ظهورهما. وفي هذا نظر والله أعلم

وفيها توفي أيضاً من المشاهير

الأجلح بن عبد الله، وإسماعيل بن أبي خالد في قول، وحبيب بن الشهيد، وعبد الملك ابن أبي سليمان، وعمر مولى عفرة، ويحيى بن الحارث الذماري، ويحيى بن سعيد أبو حيان التيمي،

و■ رؤبة بن العجاج والعجاج لقب واسمه أبو الشعثاء عبد الله بن رؤبة، أبو محمد التميمي البصري، الراجز بن الراجز، ولكل منهما ديوان رجز، وكل منهما بارع في فنه لا يجارى ولا يمارى، عالم باللغة.

و■ عبد الله بن المقفع الكاتب المفوه، أسلم على يد عيسى بن عليّ

عمّ السفاح والمنصور، وكتب له، وله رسائل وألفاظ صحيحة، وكان يُتّهم بالزندقة، وهو الذي صنف كتاب كليلة ودمنة، ويقال: بل هو الذي عربها من المجوسية إلى العربية.

قال المهدي بن المنصور: ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله من ابن المقفع.

وقال الجاحظ: الزنادقة ثلاثة ابن المقفع ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد.

قالوا: ونسي الجاحظ نفسه وهو رابعهم. وكان مع هذا فاضلا بارعاً فصيحاً.

قال الأصمعي: قيل لابن المقفع: من أدبك؟ قال: نفسي. إذا رأيت من غيري قبيحاً أبيته، وإذا رأيت حسناً أتيته.

ومن كلامه: شربت من الخطب رياً، ولم أضبط لها روّياً، فغاضت ثم فاضت، فلا هي نظاماً، وليست غيرها كلاماً.

وكان قتله على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة نائب البصرة، وذلك أنه كان يعبث به ويسب أمه، وإنما كان يسميه ابن المغتلمة وكان كبير الأنف، وكان إذا دخل عليه يقول: السلام عليكما - على سبيل التهكم.

وقال سفيان بن معاوية مرة: ما ندمت على سكوت قط. فقال: صدقت، الخرس خير لك فاتفق أن المنصور تغضّب على ابن المقفع فكتب إلى نائبه سفيان بن معاوية هذا أن يقتله، فأخذه فأمى له تنوراً وجعل يقطعه إرباً إرباً ويلقيه في ذلك التنور حتى حرقه كله وهو ينظر إلى أطرافه كيف تقطع ثم تحرق، وقيل غير ذلك في صفة قتله. قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان:٢/١٥٥]: ومنهم من يقول: ابن المقفع نسبة إلى بيع القفاع وهي من الجريد كالزنبيل بلا آذان، والصحيح أنه ابن المقفع وهو أبوه داذويه كان الحجاج قد استعمله على الخراج فخان فعاقبه حتى تقفعت يداه والله أعلم.

وفيها خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة.

وحج بالناس في هذه السنة السريّ بن عبد الله بن الحارث بن عباس بن عبد المطلب نائب مكة وكان نائب المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي. وعلى الكوفة عيسى بن موسى، وعلى البصرة سَلْم بن قتيبة، وعلى مصر يزيد بن حاتم.

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائة

فيها تكامل بناء مدينة السلام ببغداد، وسكنها المنصور في صفر من هذه السنة، وكان مقيماً قبل ذلك بالهاشمية المتاخمة للكوفة. وكان قد شرع في بنائها في السنة الخارجة، وقيل: في سنة أربع وأربعين ومائة فالله أعلم.

وقد كان السبب الباعث له على بنائها أن الراوندية لما وثبوا عليه بالكوفة ووقاه الله شرهم، فقهرهم وقتلهم، كما تقدم بقيت منهم بقية فخشي على جنده منهم، فخرج من الكوفة يرتاد لهم موضعاً لبناء مدينة، فسار في الأرض حتى بلغ الجزيرة فلم ير موضعاً أحسن لوضع المدينة من موضع بغداد الذي هي فيه الآن، وذلك بأنه موضع يُغدى إليه ويراح بخيرات ما حوله في البر والبحر، وهو محصن بدجلة والفرات. لا يقدر أحد أن يتوصل إلى موضع الخليفة إلا على جسر، وقد بات به المنصور قبل بنائه ليالي فرأى الرياح ليلا ونهاراً وطيب الهواء في تلك المحلة وقد كان موضعها قرى وديورة لعباد النصارى وغيرهم - ذكر ذلك مفصلا بأسمائه وتعداده أبو جعفر بن جرير رحمه الله - فحينئذٍ أمر المنصور باختطاطها فرسموها له بالرماد فمشى في طرقها ومسالكها فأعجبه ذلك، ثم سلم كل ربع منها لأمير يقوم على بنائه، وأحضر من كل البلاد فُعّالا وصُنّاعاً ومهندسين، فاجتمع عنده ألوف منهم، ثم كان هو أول من وضع لبنة فيها بيده وقال: بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله. وأمر ببنائها مدورة سمك سورها من أسفله خمسون ذراعاً، ومن أعلاه عشرون ذراعاً، وجعل لها ثمانية أبواب في السور البراني، ومثلها في الجواني، وليس كل واحد تجاه الآخر، ولكن جعله أزور عن الذي يقابله، ولهذا سميت بغداد الزوراء، لازورار أبوابها بعضها عن بعض، وقيل سميت بذلك لانحراف دجله عندها والله أعلم.

وبنى قصر الإمارة في وسط البلد ليكون الناس منه على حد سواء، واختط المسجد الجامع إلى جانب القصر، وكان الذي وضع قبلته الحجاج بن أرطاة.

وقال ابن جرير [تاريخه:٧/٦٥٢]: ويقال إن في قبلته انحرافاً يحتاج المصلي فيه أن ينحرف إلى ناحية باب البصرة، وذكر أن مسجد الرصافة أقرب إلى الصواب منه لأنه بني قبل القصر، وجامع المدينة بني على القصر، فاختلت قبلته بسبب ذلك.

وذكر ابن جرير عن سليمان بن مجالد أن المنصور أراد أبا حنيفة النعمان بن ثابت على القضاء بها فامتنع فحلف المنصور أن يتولى له، وحلف أبو حنيفة أن لا يفعل، فولاه القيام بأمر المدينة وضرب اللبن وعدّه، وأخذ الرجال بالعمل، فكان أبو حنيفة المتولي لذلك حتى فرغوا من استتمام حائط المدينة مما يلي الخندق، وكان استتمامه في سنة تسع وأربعين ومائة.

قال ابن جرير [تاريخه:٧/٦١٩]: وذكر عن الهيثم بن عدي أن المنصور عرض على أبي حنيفة القضاء والمظالم فامتنع، فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل، فأخبر بذلك أبو حنيفة فدعا بقصبة فعد اللبن ليبر بذلك يمين أبي جعفر، ومات أبو حنيفة ببغداد.

وذكر أن خالد بن برمك هو الذي أشار على المنصور ببنائها. وأنه كان مستحثاً فيها، وقد شاور المنصور الأمراء في نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد لأجل قصر الإمارة بها، فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فانه آية في العالم، وفيه مصلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. فخالفهم ونقل منه شيئاً كثيراً فلم يف ما تحصل منه بأجرة ما يصرف في حمله فتركه، ونقل أبو اب قصر واسط إلى أبواب بغداد. وقد كان الحجاج نقلها من مدينه هناك كانت من بناء سليمان بن داود، وكانت الجن قد عملت تلك الأبواب.

وقد كانت الأسواق قريباً من قصر الإمارة. فكانت أصوات الباعة وهوشات الأسواق تسمع منه، فعاب ذلك بعض بطارقة النصارى ممن قدم في بعض الرسائل من الروم، فأمر المنصور بنقل الأسواق من هناك إلى موضع آخر، وأمر المنصور بتوسعة الطرقات أربعين ذراعاً في أربعين ذراعاً، ومن بنى في شيء من ذلك هدم.

وقال ابن جرير [تاريخه:٧/٦٥٥]: وذكر عن عيسى بن المنصور أنه قال: وجدت في خزائن المنصور في الكتب أنه أنفق على بناء مدينة السلام

ومسجدها الجامع وقصر الذهب بها والأسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأبوابها، أربعة آلاف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين درهماً، وكان أجرة الأستاذ من البنائين كل يوم قيراط فضة، وأجرة الصانع من الحجتين إلى الثلاثة.

قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٦٩/١]: وقد رأيت ذلك في بعض الكتب. وحكى عن بعضهم أنه قال: أنفق عليها ثمانية عشر ألف ألف فالله أعلم.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٦٥٤/٧، ٦٥٥] أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الإمارة فنقصه درهماً عمّا ساومه، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهماً فحبسه حتى أحضرها.

قال الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد [٦٧/١]: وبناها مدورة، ولا يعرف في أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم، ثم ذكر عن بعض المنجمين قال: قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد: خذ الطالع فنظرت في طالعها - وكان المشتري في القوس - فأخبرته بما تدل عليه النجوم، من طول زمانها، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس إلى ما فيها. قال: ثم قلت له: وأبشرك يا أمير المؤمنين ببشارة أخرى؛ وهي أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً. قال: فرأيته يبتسم ثم قال: الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه:

قضى ربها أن لا يموت خليفة ... بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب أبو بكر البغدادي وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء مع اطلاعه ومعرفته.

قال: وزعم بعض الناس أن الأمين قتل بدرب الأنبار منها فذكرت ذلك للقاضي أبي القاسم علي بن المحسّن التنوخي فقال: محمد الأمين أيضاً لم يقتل بالمدينة، وإنما كان قد نزل في سفينة إلى دجلة ليتنزه فقبض عليه في وسط دجلة وقتل هناك. وذكر ذلك الصولي وغيره.

وذكر عن بعض مشايخ بغداد أنه قال: اتساع بغداد مائة وثلاثون جريباً، وذلك يعدل ميلين في ميلين.

قال الإمام أحمد بن حنبل: بغداد من الصراة إلى باب التبن.

وذكر الخطيب [تاريخ بغداد: ٧١/١-٧٣] عن بعضهم أن بين كل بابين من أبوابها الثمانية ميلا، وقيل أقل من ذلك. وذكر الخطيب [تاريخ بغداد: ٧١/١-٧٣] صفة قصر الإمارة وأن فيه القبة الخضراء طولها ثمانون ذراعاً، على رأسها تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يدور به فإلى أي جهة استقبلها واستمر مستقبلها، علم أن في تلك الجهة قد وقع حدث فينظر في أمره الخليفة وهذه القبة على مجلس في صدر إيوان المحكمة وطوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً. وقد سقطت هذه القبة في ليلة برد ومطر ورعد وبرق، ليلة الثلاثاء لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

وذكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٧٠/١] أنه كان يباع في بغداد في أيام المنصور ببغداد الكبش بدرهم والحمل بأربعة دوانق، وينادى على لحم الغنم كل ستين رطلا بدرهم، ولحم البقر كل تسعين رطلا بدرهم، والتمر كل ستين رطلا بدرهم، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم، والسمن كل ثمانية أرطال بدرهم، والعسل عشرة أرطال بدرهم.

ولهذا الأمن والرخص كثر ساكنوها وعظم أهلوها وكثر الدارج في أسواقها وأزقتها، حتى كان المار فيها لا يكاد يجتاز في الأسواق لكثرة أهلها. قال بعض الأمراء وقد رجع من السوق: طالما طردت خلف الأرانب في هذا المكان.

وذكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٧٨/١، ٧٩] أن المنصور جلس يوماً في قصر الإمارة وعنده بعض رسل الروم فسمع ضجة عظيمة ثم أخرى ثم أخرى فقال للربيع الحاجب: ما هذا؟ فكشف فإذا بقرة قد نفرت من جازرها هاربة في الأسواق، فقال الرومي: يا أمير المؤمنين إنك بنيت بناء لم يبنه أحد قبلك، وفيه ثلاثة عيوب، بعده من الماء، وقرب الأسواق منه، وليس عنده خضرة، والعين خضرة تحب الخضرة. فلم يرفع بها المنصور رأساً ثم أمر بتغيير ذلك، بعد ذلك وساق إليه الماء وبنى عنده البساتين، وحوّل الأسواق من ثم إلى الكرخ.

قال يعقوب بن سفيان: كمل بناء بغداد في سنة ست وأربعين ومائة، وفي سنة سبع وخمسين حول الأسواق إلى باب الكرخ وباب الشعير وباب المحول وأمر بتوسعة الأسواق أربعين ذراعاً، وبعد شهر من ذلك شرع في بناء قصره المسمى بالخلد، فكمل سنة ثمان وخمسين ومائة. كما سيأتي. وجعل أمر ذلك إلى رجل يقال له الوضاح، تبنى قصر الوضّاح وبُني للعامة جامعٌ للصلاة والجمعة لئلا يدخلون إلى جامع مدينة المنصور، فأما دار الخلافة التي كانت ببغداد فإنها كانت أولا للحسن بن سهل، فانتقلت من بعده إلى ابنته بوران التي كان تزوّجها المأمون، فطلبها منها المعتضد - وقيل المعتمد - فأنعمت له بها، واستنظرته أياماً حتى تنتقل منها ثم شرعت في ترميمها وتبييضها وتحسينها، ثم فرشتها بأنواع الفرش، وعلقت فيها أنواع الستور، وأرصدت فيها ما ينبغي للخليفة من الجواري والخدم، بأنواع الملابس، وجعلت في الخزائن ما ينبغي من أنواع الأطعمة والمآكل، وجعلت في بعض بيوتها من أنواع الأموال والذخائر، ثم أرسلت بمفاتيحها إليه، ثم دخلها وجد فيها ما أرصدته بها، فهاله ذلك واستعظمه جداً، وكان أول خليفة سكنها وبنى عليها سوراً، ذكره الخطيب البغدادي

وأما التاج فبناه المكتفي على دجلة وحوله القباب والمجالس والميدان والثريا وحير الوحوش.

وذكر الخطيب صفة دار الشجرة التي كانت في زمن المقتدر بالله، وما فيها من الفرش والستور والخدم والمماليك والحشمة الباذخة، وأنه كان بها أحد عشر ألف طواشي، وسبعمائة حاجب. وأما المماليك فألوف لا يحصون كثرة، وسيأتي ذكر ذلك مفصلا في أيامهم ودولتهم التي ذهبت كأنها أحلام نوم، بعد سنة ثلاثمائة.

وذكر الخطيب [تاريخ بغداد: ١٠٥/١-١١٧] دار الملك التي بالمخرم، وذكر الجوامع التي تقام فيها الجمعات، وذكر الأنهار والجسور التي بها، وما كان في ذلك في زمن المنصور، وما أحدث بعده إلى زمانه، وأنشد لبعض الشعراء في جسور بغداد التي على دجلة:

يوم سرقنا العيش فيه خِلْسَةً ... في مجلس بفِنَاءِ دجلةَ مُفْرَدِ

رَقَّ الهواء برقةٍ قداميةٍ ... فغدوت رِقّاً للزمان المُسعِدِ

فكأن دجلة طيلسانٌ أبيضٌ ... والجسر فيها كالطرازِ الأسودِ

وقال آخر:

يا حبّذَا جسرٌ على مَتنِ دجلةٌ بإتقان تاسيسٍ وحسنِ ورَوْنَقِ
جمالٌ وحسنٌ للعراقِ ونزهةٌ وسلوةُ مَنْ أضناهُ فَرْطُ التَشَوُّقِ
تراهُ إذا ما جئتَهُ متأملا كسطرٍ عبيرٍ خُطَّ في وسطِ مُهرَقِ
أو العاجِ فيهِ الأَبنُوسُ مُرقَّشٌ مثالُ فُيولٍ تحتها أرض زِئبَقِ

وذكر الصولي قال: ذكر أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد أن ذرع بغداد من الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب وسبع مئة وخمسون جريباً وأن الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً وأن عدة حماماتها ستون ألف حمام، وأقل ما في كل حمام منها خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء، وأن بإزاء كل حمام خمسة مساجد، فذلك ثلاثمائة ألف مسجد، وأقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس - يعني إماماً ومؤذناً ومأمومين - ثم تناقصت بعد ذلك، ثم دثرت بعد ذلك حتى صارت كأنها خربة صورة ومعنى. على ما سيأتي بيانه في موضعه.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١/١٩٩]: لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها، وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها، وسعة أطرارها، وكثرة دورها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها، وأكثر ما كانت عمارة وأهلا في أيام الرشيد، ثم ذكر تناقص أحوالها بعد ذلك وهلم جرا إلى زماننا.

قلت: وكذا من بعده إلى زماننا هذا، ولا سيما في أيام هولاكو بن تولى بن جنكز بن خان التركي الذي وضع معالمها وقتل خليفتها وعالمها وخرب دورها وهدم قصورها وأباد الخواص والعوام من أهلها في ذلك العام، وأخذ الأموال والحواصل، ونهب الذراري والأصائل، وأورث بها حزناً يعدد به في البكرات والأصائل، وصيرها مثلة في الأقاليم، وعبرة لكل معتبر عليم، وتذكرة لكل ذي لبّ مستقيم، وبدلت بعد تلاوة القرآن بالنغمات، والألحان، وإنشاد الأشعار، وكان، وكان، وبعد سماع الأحاديث النبوية بدرس الفلسفة اليونانية، والمناهج الكلامية والتأويلات القرمطية. وبعد العلماء بالحكماء، وبعد الخليفة العباسي بشر الولاة من الأناسي، وبعد الرياسة والنباهة بالخساسة والسفاهة، وبعد العُبّاد بالأنكاد، وبُعد الطلبة المشتغلين بالظلمة والعيارين وبعد الاشتغال بفنون العلوم من التفسير والفقه والحديث وتعبير الرؤيا، بالزجل والموشح ودوبيت ومواليا. وما أصابهم ذلك إلا ببعض ذنوبهم وما ربُّكَ بظلام للعبيد.

والتحول منها في هذه الأزمان لكثرة ما فيها من المنكرات الحسية والمعنوية، وأكل الحشيشة، والانتقال عنها إلى بلاد الشام الذي تكفل اللّه بأهله أفضل وأكمل وأجمل.

وقد روى الإمام أحمد في «مسنده» [٥/٢٤٩] عن أبي أمامة الباهلي أنه قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَحَوَّلَ خِيَارُ أَهْلِ العِرَاقِ إِلى الشَّامِ، وشِرَارُ أَهْلِ الشَّامِ إِلى العِرَاقِ».

ذِكر ما ورد في مدينة بغداد من الآثار والتنبيه على ضعف ما روي فيها من الأخبار

فيها أربع لغات بغداد وبغداذ بإهمال الدال الثانية، وإعجامها، وبغدان بالنون آخره وباليم مع ذلك أولا مغدان، وهي كلمة أعجمية قيل إنها مركبة من بغ وداذ فقيل بغ بستان وداذ اسم رجل، وقيل بغ اسم صنم وقيل شيطان وداذ عطية الصنم، ولهذا كره عبد اللّه بن المبارك والأصمعي وغيرهما تسميتها بغداذ وإنما يقال لها مدينة السلام، وكذا سماها بانيها أبو جعفر المنصور، لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام، ومنهم من يسميها الزوراء وهو لقب لها.

فروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ١/٢٧، ٢٨] من طريق عمار بن سيف - وهو متهم - قال: سمعت عاصم الأحول يحدث عن سفيان الثوري عن أبي عثمان عن جرير بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: تُبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبى إليها خزائن الأرض، وجبابرتها، لهي أسرع ذهاباً في الأرض من الوتد الحديد في الأرض الرخوة.

قال الخطيب: وقد رواه عن عاصم الأحول سيف ابن أخت سفيان الثوري، وهو أخو عمار بن محمد.

قلت: وكلاهما ضعيف متهم يرمى بالكذب، ومحمد بن جابر اليمامي وهو ضعيف أيضاً، وأبو شهاب الحناط. وروى عن سفيان الثوري عن عاصم ثم أسند ذلك كله.

وأورد من طريق يحيى بن معين عن يحيى بن أبي بكير عن عمار بن سيف عن الثوري عن عاصم عن أبي عثمان عن جرير عن النبي ﷺ؛ فذكره.

وقال أحمد ويحيى بن معين: ليس لهذا الحديث أصل. وقال الإمام أحمد: ما حدّث به إنسان ثقة. وقد علله الحافظ أبو بكر الخطيب من جميع طرقه وساقه أيضاً من طريق عمار بن سيف عن الثوري عن أبي عبيدة حميد الطويل، عن أنس بن مالك، ولا يصح أيضاً.

ومن طريق عمر بن يحيى عن سفيان عن قيس بن مسلم عن ربعي عن حذيفة مرفوعاً بنحوه، ولا يصح.

ومن غير وجه عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وثوبان وابن عباس، وفي بعضها ذكر السفياني «وأنه يخربها» ولا يصح إسناد شيء من هذه الأحاديث.

وقد أوردها الخطيب بأسانيدها وألفاظها، وفي كل منها نكارة، وأقرب ما في ذلك عن كعب الأحبار وقد جاء في آثار عن كتب متقدمة أن بانيها يقال له مقلاص وذو الدوانيق وقد كان المنصور يلقب بمقلاص في حفره ولما ولي لقب بذي الدوانيق لبخله.

فصل في ذكر محاسن بغداد وما روي فيها عن الأئمة الثقات

قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري: قال لي الشافعي: هل رأيت بغداد؟ قلت: لا! فقال: لم ترَ الدنيا.

وعن الشافعي قال: ما دخلت بلداً قط إلا عددته سفراً، إلا بغداد فإني

حين دخلتها عددتها وطناً.

وقال بعضهم: الدنيا بادية وبغداد حاضرتها.

وقال ابن علية: ما رأيت أعقل في طلب الحديث من أهل بغداد، ولا أحسن رغبة. وقال ابن مجاهد: رأيت أبا عمرو بن العلاء في النوم فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: دعني من هذا، من أقام ببغداد على السنة والجماعة ومات نقل من جنة إلى جنة.

وقال أبو بكر بن عياش: الإسلام ببغداد، وإنها لصيادة تصيد الرجال، ومن لم يرها لم ير الدنيا.

وقال أبو معاوية: بغداد دار دنيا وآخرة.

وقال بعضهم: من محاسن الإسلام الجمعة ببغداد، وصلاة التراويح بمكة، ويوم العيد بطرسوس.

قال الخطيب: من شهد يوم الجمعة بمدينة السلام عظم الله في قلبه محل الإسلام، لأن مشايخنا كانوا يقولون يوم الجمعة ببغداد كيوم العيد في غيرها من البلاد.

وقال بعضهم: كنت أواظب على الجمعة بجامع المنصور فعرض لي شغل فصليت في غيره فرأيت في المنام كأن قائلا يقول: تركت الصلاة في بالجامع وإنه ليصلي فيه كل جمعة سبعون ولياً.

وقال آخر: أردت الانتقال من بغداد إلى غيرها فرأيت كأن قائلا يقول لي في المنام: أتنتقل من بلد فيه عشرة آلاف ولي لله عز وجل؟

وقال بعضهم: رأيت كأن ملكين أتيا بغداد فقال أحدهما لصاحبه: اقلب بها. فقد حق القول عليها: فقال الآخر كيف: أقلب ببلد خُتم فيه القرآن الليلة خمسة آلاف ختمة؟

وقال أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى قال: إذا كان علم الرجل حجازياً وخلقه عراقياً وطاعته شامية فقد كمل.

وقالت زبيدة لمنصور النمري قل شعراً تحبب فيه بغداد إلي الرشيد. فقد اختار عليها الرافقة فقال:

ماذا ببغداد من طيب الأفانين ... ومن منازل للدنيا وللدِّين

تحيي الرياح بها المرضى إذا نسمت ... وجوشت بين أغصان الرياحين

قال: فأعطته ألفي دينار، وقال الخطيب: وقرأت في كتاب طاهر بن مظفر بن طاهر الخازن بخطه من شعره:

سقى الله صوب الغاديات محلةً ... ببغداد بين الكرخ فالخلد فالجسر

هي البلدة الحسناء خصت لأهلها ... بأشياء لم يجمعن مذ كن في مصر

هواء رقيق في اعتدال وصحة ... وماء له طعم ألذ من الخمر

ودجلتها شطان قد نظما لنا ... بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر

تراها كمسك والمياه كفضة ... وحصباؤها مثل اليواقيت والدر

وقد أورد الخطيب في هذا أشعاراً كثيرة وفيما ذكرنا كفاية.

وقد كان الفراغ من بناء بغداد في هذه السنة ـ أعني سنة ست وأربعين ومائة ـ وقيل في سنة ثمان وأربعين، وقيل إن خندقها وسورها كملا في سنة تسع وأربعين، ولم يزل المنصور يزيد فيها وينأنق في بنائها حتى كان آخر ما بنى فيها قصر الخلد، فعند كماله مات. توفي كما سيأتي بيانه.

قال ابن جرير [تاريخه:٧/٦٥٥، ٦٥٦]: وفي هذه السنة عزل المنصور سلم بن قتيبة عن البصرة وولى عليها محمد بن سليمان بن علي، وذلك لأنه كتب إلى سلم يأمره بهدم بيوت الذين بايعوا إبراهيم بن عبد الله بن حسن فتوانى في ذلك فعزله، وبعث ابن عمه محمد بن سليمان فعاث بها فساداً، وهدم دوراً كثيرة، وعزل عبد الله بن الربيع عن إمرة المدينة وولى عليها جعفر بن سليمان، وعزل عن مكة السري بن عبد الله وولاها عبد الصمد بن علي.

قال: وحج بالناس في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن علي قاله الواقدي وغيره.

قال: وفيها غزا الصائفة من بلاد الروم جعفر بن حنظلة البهراني.

وفيها توفي من الأعيان

أشعث بن عبد الملك، ومحمد بن السائب الكلبي، وهشام بن عروة. ويزيد بن أبي عبيد في قول.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائة

فيها أغار استرخان الخوارزمي في جيش من الأتراك على ناحية أرمينية فدخلوا تفليس وقتلوا خلقاً وأسروا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة، وممن قتل يومئذٍ حرب بن عبد الله الراوندي الذي تنسب إليه الحربية ببغداد، وكان مقيماً بالموصل في ألفين لمقاتلة الخوارج، فسيّره المنصور لمساعدة المسلمين ببلاد أرمينية، وكان في جيش جبريل بن يحيى، فهزم جبريل وقتل حرب رحمه الله.

وفي هذه السنة كان مهلك عبد الله بن علي عم المنصور، الذي أخذ الشام من أيدي بني أمية، وكان عليها والياً حتى مات السفاح، فلما مات دعا إلى نفسه فبعث إليه المنصور أبا مسلم الخراساني فهزمه أبو مسلم وهرب عبد الله إلى عند أخيه سليمان بن علي والي البصرة فاختفى عنده مدة ثم ظهر المنصور على أمره فاستدعاه وسجنه.

فلما كان في هذه السنة عزم المنصور على الحج فطلب ابن عمه عيسى بن موسى ــ وكان ولي العهد من بعد المنصور عن وصية السفاح ـ وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وقال له: إن هذا عدوي وعدوك، فاقتله في غيبتي عنك ولا تتوانى. وسار المنصور إلى الحج وجعل يكتب إليه من الطريق يستحثه في ذلك ويقول له: ماذا صنعت فيما أوعزت إليك فيه؟ مرة بعد مرة.

وأما عيسى بن موسى فإنه لما تسلم عمه حار في أمره وشاور بعض أهله فأشار بعضهم ممن له رأي أن المصلحة تقتضي أن لا تقتله وأخفه عندك وأظهر قتله فإنا نخشى أن يطالبك به جهرة فتقول: قتلته، فيأمر بالقود فتدعي أنه أمرك بقتله بالسر فتعجز عن إثبات ذلك فيقتلك به، وإنما يريد المنصور قتله وقتلك ليستريح منكما معاً، فتبصّر عيسى بن موسى عند ذلك وأخفى عمه وأظهر أنه قتله. فلما رجع المنصور من الحج أمر أهله أن يدخلوا عليه ويشفعوا في عمه عبد الله بن علي فجاؤوا كلهم فدخلوا عليه وشفعوا في عبد الله بن علي، وألحوا في ذلك فأجابهم إليه، واستدعى عيسى بن موسى وقال له: إن هؤلاء قد شفعوا في عبد الله بن علي وقد أجبتهم إلى ما طلبوا فسلمه إليهم، فقال عيسى: وأين عبد الله؟ ذاك قتلته منذ أمرتني. فقال المنصور: لم آمرك بذلك، وجحد أن يكون تقدم إليه منه أمر في ذلك، فأحضر عيسى الكتب باستحثاثه في ذلك مرة بعد مرة فأنكر أن يكون أراد ذلك، وصمم على الإنكار، وصمم عيسى بن موسى أنه قد قتله، فأمر المنصور عند ذلك بقتل عيسى بن موسى قصاصاً بعبد الله،

فخرج به بنو هاشم ليقتلوه، فلما جاؤوا بالسيف قال: ردوني إلى الخليفة، فردوه إليه فقال له: إن عمك حاضر ولم أقتله، فقال: هلم به. فأحضره فسقط في يد الخليفة وأمر بسجنه بدار جدرانها مبنية على ملح، فلما كان من الليل أرسل على جدرانها الماء فسقط عليه البناء فهلك.رحمه الله

ثم إن المنصور خلع عيسى بن موسى عن ولاية العهد وقدم عليه ابنه المهدي، وكان يجلسه فوق عيسى بن موسى عن يمينه، ثم كان بعد ذلك لا يلتفت إلى عيسى بن موسى ويهينه في الإذن والمشورة والدخول عليه والخروج من عنده بعد ما كان حظياً عنده قبل ذلك جداً، ثم ما زال يقصيه ويبعده ويتهدده ويتوعده حتى خلع نفسه بنفسه، وبايع لمحمد بن منصور وأعطاه المنصور على ذلك نحواً من اثني عشر ألف ألف درهم، وانصلح أمر عيسى بن موسى وبنيه عند المنصور، وأقبل عليه بعد ما كان قد أعرض عنه، وكان قد جرت بينهما قبل ذلك مكاتبات في ذلك كثيرة جداً، ومراوضات في تمهيد البيعة لابنه المهدي وخلع عيسى نفسه، وأن العامة لا يعدلون بالمهدي أحداً. وكذلك الأمراء والخواص. ولم يزل به حتى أجاب إلى ذلك مكرهاً، فعوضه عن ذلك ما ذكرنا، وسارت بيعة المهدي في الآفاق شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، وفرح المنصور بذلك فرحاً شديداً، واستقرت الخلافة في ذريته إلى زماننا هذا، فلم يكن خليفة من بني العباس إلا من سلالته ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

وفيها توفي. عبيد الله بن عمر العمري، وهاشم بن هاشم، وهشام بن حسان صاحب الحسن البصري.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائة

فيها بعث المنصور حميد بن قحطبة لغزو الترك الذين كانوا قد عاثوا في ببلاد تفليس، فلم يجد منهم أحداً لأنهم انشمروا إلى بلادهم.

وحج بالناس فيها جعفر بن أبي جعفر المنصور، ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها.

وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان، منهم

■ **جعفر بن محمد الصادق** المنسوب إليه كتاب اختلاج الأعضاء وهو مكذوب عليه.

■ **سليمان بن مهران الأعمش** أحد مشايخ الحديث في ربيع الأول منها

وعمرو بن الحارث، والعوام بن حوشب، والزبيدي، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى. ومحمد بن عجلان.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائة

فيها فرغ من بناء سور بغداد وخندقها.

وفيها غزا الصائفة العباس بن محمد فدخل بلاد الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث.، ومات محمد بن الأشعث. في الطريق.

وفيها حج بالناس محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي وولاه المنصور على مكة والحجاز عوضاً عن عمه عبد الصمد بن علي. وعمال الأمصار فيها هم الذين كانوا في السنة قبلها.

وفيها توفي

زكريا بن أبي زائدة، وكهمس بن الحسن، والمثنى بن الصباح.

■ **عيسى بن عمر أبو عمر الثقفي البصري النحوي** شيخ سيبويه.

يقال إنه من موالي خالد بن الوليد، وإنما نزل في ثقيف فنسب إليهم. كان إماماً كبيراً جليلا في اللغة والنحو والقراءات، أخذ ذلك عن عبد الله بن كثير وابن محيصن وعبد الله بن أبي إسحاق. وسمع الحسن البصري وغيرهم. وعنه الخليل بن أحمد والأصمعي وسيبويه. ولزمه وعرف به وانتفع به، وأخذ كتابه الذي سماه الجامع فزاد عليه وبسطه، فهو كتاب سيبويه اليوم، وإنما هو كتاب شيخه، وكان سيبوية يسأل شيخه الخليل بن أحمد عما أشكل عليه فيه، وقد سأل الخليل يوماً سيبويه عما صنف عيسى بن عمر فقال: جمع بضعاً وسبعين كتاباً ذهبت كلها إلا كتاب الإكمال، وهو بأرض فارس. وكتابه الجامع وهو الذي اشتغل فيه وأسأل عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة ثم أنشد:

ذَهَبَ النُّحْوُ جميعاً كُلُّهُ ... غيرَ ما أحدثَ عيسى بن عمر

ذاك إكمالٌ وهذا جامعٌ ... وهما للناسِ شمسٌ وقمر

وقد كان عيسى بن عمر يغرب ويتقعّر في عبارته جداً.

وقد حكى الجوهري عنه في الصحاح [٦٦/١] أنه سقط يوماً عن حماره فاجتمع عليه الناس فقال: ما لكم تكاكأتم علي تكاكؤكم على ذي جنّة افرنقعوا عني. معناه: مالكم تجمعتم علي تجمعكم على مجنون؟ انكشفوا عني.

وقال غيره:كان به ضيق النفس فسقط بسببه فاعتقد الناس أنه مصروع. فجعلوا يعودونه ويقرؤون عليه، فلما أفاق من غشيته قال، ما قال. فقال بعضهم: إن جنّيته بالفارسية ـ

وذكر القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤٨٦/٣] أنه كان صاحبا لأبي عمرو بن العلاء، وأن عيسى بن عمر قال يوماً لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معدّ بن عدنان. فقال له أبو عمرو: كيف تنشد هذا البيت.

قد كُنْ يَخْبَأْنَ الوجوهَ تَسَتُّراً ... فاليومَ حين بدأنَ للنُظّارِ

أو «بدين؟» فقال بدين. فقال أبو عمرو: أخطأت، ولو قال: بدأن لأخطأ أيضاً. وإنما أراد أبو عمرو تغليطه، وإنما الصواب «بدون» من بدا يبدو: إذا ظهر، وبدأ يبدأ إذا شرع في الشيء.

ثم دخلت سنة خمسين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل من الكفرة يقال له استاذسيس في بلاد خراسان فاستحوذ على أكثرها، والتف معه نحو من ثلاثمائة ألف، وقتلوا من المسلمين هنالك خلقا، وهزموا الجيوش التي في تلك البلاد، وسبوا خلقاً كثيراً، واستحكم الفساد بسببهم، وتفاقم أمرهم، فوجه المنصور خازم بن خزيمة إلى ابنه المهدي ليوليه حرب تلك البلاد، ويضم إليه من الأجناد ما يقاوم أولئك. فنهض المهدي في ذلك نهضة رجل هاشمي، وجمع لخازم بن خزيمة الإمرة على تلك الجيوش، وبعثه في نحو من أربعين ألفاً، فسار إليهم وما زال يراوغهم ويماكرهم ويعمل الخديعة حتى فاجأهم بالحرب. وواجههم بالطعن والضرب، فقتل منهم نحواً من سبعين ألفاً، وأسر منهم أربعة عشر ألفاً، وهرب ملكهم استاذسيس فتحرز في جبل، فجاء خازم إلى

تحت الجبل وقتل أولئك الأسرى كلهم، ضرب أعناقهم ولم يزل يحاصره حتى نزل على حكم بعض الأمراء، فحكم أن يقيد بالحديد هو وأهل بيته، وأن يعتق من معه من الأجناد - وكانوا ثلاثين ألفاً - فعزم خازم ذلك كله وأطلق لكل واحد ممن كان مع أستاذ سيس ثوبين، وكتب بما وقع من الفتح إلى المهدي، فكتب المهدي بذلك إلى أبيه المنصور.

وفيها عزل الخليفة عن إمرة المدينة جعفر بن سليمان وولاها الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وفيها حج بالناس عبد الصمد بن علي عم الخليفة.

وتوفي فيها جعفر ابن أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ودفن ليلاً بمقابر بني هاشم من بغداد، ثم نقل منها إلى موضع آخر

وفيها توفي

■ **عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج** أحد أئمة أهل الحجاز، ويقال: إنه أول من جمع السنن. **وعثمان بن الأسود**، وعمر بن محمد بن زيد. وفيها توفي **الإمام أبو حنيفة**.

ذكر ترجمته:

هو الإمام

■ **أبو حنيفة** واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي، فقيه العراق، وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام، وأحد أركان العلماء، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة، وهو أقدمهم وفاة، لأنه أدرك عصر الصحابة، ورأى أنس بن مالك، قيل وغيره. وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة فالله أعلم.

وهم أنسُ بنُ مالك، وجابرُ بن عبد الله، وعبد الله بن أنيس، وعبد الله ابن أبي أوفى، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، ومعقل بن يسار، وواثلة ابن الأسقع، وعائشة بنت عجرد، رضي الله عنهم. وقد روينا عن أبي حنيفة نظر؛ فإن في الإسناد إليه من لا يعرف، وفي متن بعضها نكارة شديد. فالله أعلم.

وأخبرنا شيخنا الرحلة أبو العباس الحجار، عن الزبيدي، وهو الحسين بن المبارك البغدادي، عن والده، عن أبي المكارم عبيد الله بن الحسين الشعري، عن محمد بن منصور، عن الخطيب أبي الحسن عليّ بن أحمد، عن القاضي أبي سعيد صاعد بن محمد، عن أبي مالك نصرويه بن أحمد البلخيّ، عن الحسين ابن إبراهيم العيانيّ، عن أبي الحسين عليّ بن الخطيب، عن أبي الحصر عليّ بن بدر، عن هلال بن العلاء، عن أبيه، عن أبي حنيفة، عن أنس مرفوعاً: «من قال: لا إله إلا الله. خالصاً مخلصاً من قلبه دخل الجنة، ولو توكّلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصا وتعود بطاناً».

وعن جابر: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم ومسلمة.

وعن عبد الله بن أُنيس مرفوعاً: «رأيت في عارضتي الجنة مكتوباً ثلاثة أسطر بالذهب الأحمر، لا بماء الذهب؛ السطر الأول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. الثاني: الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة وغفر للمؤذنين. الثالث: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدّمنا، خسرنا ما خلّفنا، قدمنا على رب غفور».

وعن عبد الله بن أبي أوفى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حُبُّك للشيء يعمى ويصمُّ، والدالُّ على الخير كفاعله، وإن الله يحبُّ إغاثة الملهوف». وفي لفظ: «اللّهفان».

وعن عبد الله بن الحارث بن جزء مرفوعا: «إغاثة الملهوف فرضٌ على كل مسلم، ومن تفقّه في دين الله كفاه الله همّه، ورزقه من حيث لا يحتسب».

وعن معقل بن يسار مرفوعاً: «علامة المؤمن ثلاثٌ؛ إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا حدّث لم يخن».

وعن واثلة مرفوعاً: «الجراد أكثر جنود الله في الأرض، لا آكله».

وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحماد بن أبي سليمان، وسلمة بن كهيل، وعامر الشعبي، وعكرمة، وعطاء، وقتادة، والزهري، ونافع مولى ابن عمر، ويحيى بن سعيد الأنصاري وأبو إسحاق السبيعي.

وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان، وإسحاق بن يوسف الأزرق، وأسد بن عمرو القاضي، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وحمزة الزيات، وداود الطائي، وزفر، وعبد الرزاق، وأبونعيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، وهشيم، ووكيع، وأبو يوسف القاضي.

قال يحيى بن معين: كان ثقة، وكان من أهل الصدق ولم يتهم بالكذب، ولقد ضربه ابن هبيرة على القضاء فأبى أن يكون قاضياً. قال: ان يحيى بن سعيد يختار قوله في الفتوى، وكان يحيى يقول: لا نكذب الله! ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله.

وقال عبد الله بن المبارك: لولا أن الله أغاثني حنيفة وسفيان الثوري لكنت كسائر الناس.

وقال الشافعي عن مالك: رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته:

وقال الشافعي: من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة ومن أراد السيرة فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان،

وقال عبد الله بن داود الخريبي: ينبغي للناس أن يدعوا في صلاتهم لأبي حنيفة، لحفظه الفقه والسنن عليهم.

وقال سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك: كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه.

وقال أبو نعيم: كان صاحب غوص في المسائل.

وقال مكي بن إبراهيم: كان أعلم أهل الأرض.

وروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٣٥٤/١٣] بسنده عن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة كان يصلي في الليل ويقرأ القرآن في كل ليلة، ويبكي حتى يرحمه جيرانه. ومكث أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وأنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة الآف مرة، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة - أعني سنة خمسين ومائة.

وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين ومئة.

وقال غيره: سنة ثلاث وخمسين.

والصحيح الأول. وكان مولده في سنة ثمانين فتم له من العمر سبعون سنة، وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام، وقبره هناك رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين ومائة

فيها عزل الخليفة المنصور عمر بن حفص عن السند وولى عليها هشام

بن عمرو التغلبي، وكان سبب عزله عمر بن حفص عن السند أن محمد بن عبد الله بن حسن لما ظهر كان بعث ابنه عبد الله الملقب بالأشتر ومعه جماعة بهدية خيول عتاق إلى عمر بن حفص بالسند فقبلها، فدعوه إلى دعوة محمد بن عبد الله بن حسن في السر فأجابهم إلى ذلك أيضاً ولبسوا البياض. ولما جاء خبر مقتل محمد بن عبد الله بالمدينة أسقط في أيدي عمر بن حفص وأصحابه وأخذ في الاعتذار إلى عبد الله بن محمد، فقال له عبد الله: إني أخشى على نفسي، فقال: إني سأبعثك إلى ملك من المشركين في جوار أرضنا، وإنه من أشد الناس تعظيما لرسول الله ﷺ، وإنه متى عرف أنك من سلالته أحبك. فأجابه إلى ذلك، وسار عبد الله بن محمد إلى ذلك الملك فكان عنده آمناً، وصار عبد الله يركب في موكب من الناس، ويتصيد في جحفل من الجنود، وانضم إليه ووفد عليه طوائف من الزيدية.

وأما المنصور فإنه بعث يعتب على عمر بن حفص نائب السند، فقال رجل من الأمراء: ابعثني إليه واجعل القضية مسندة إلي، فاني سأعتذر إليه من ذلك، فإن سلمت وإلا كنت فداءك وفداء من عندك من الأمراء، فأرسله سفيراً في القضية، فلما وقف بين يدي المنصور أمر بضرب عنقه، وكتب إلى عمر بن حفص بعزله عن السند وولاه بلاد إفريقية عوضاً عن أميرها، ولما وجه المنصور هشام بن عمرو إلى السند أمره أن يجتهد في تحصيل عبد الله بن محمد، فجعل يتوانى في ذلك، فبعث إليه المنصور يستحثه في ذلك، ثم اتفق سفنجاً أخا هشام بن عمرو لقي عبد الله بن محمد في بعض الأماكن فاقتتلوا فقتل عبد الله وأصحابه جميعاً واشتبه عليهم مكانه في القتلى فلم يقدروا عليه. فكتب هشام بن عمرو إلى المنصور يعلمه بقتله. فبعث يشكره على ذلك ويأمره بقتال الملك الذي آواه، ويعلمه أن عبد الله كان قد تسرى بجارية هنالك وأولدها ولداً أسماه محمداً فإذا ظفرت بالملك فاحتفظ بالغلام فنهض هشام بن عمرو إلى ذلك الملك فقاتله فغلبه وقهره على بلاده وأمواله وحواصله، وبعث بالفتح والأخماس وبذلك الغلام إلى المنصور ففرح المنصور بذلك وبعث بذلك الغلام إلى المدينة، وكتب إلى نائبها يعلمه بصحة نسبه، ويأمره أن يلحقه بأهله يكون عندهم لئلا يضيع نسبه، فهو الذي يقال له أبو الحسن بن الأشتر.

وفي هذه السنة قدم المهدي بن المنصور على أبيه من بلاد خراسان فتلقاه أبوه والأمراء والأكابر إلى أثناء الطريق، وقدم نواب البلاد من الشام وغيرها للسلام عليه وتهنئته بالسلامة والنصر.

بناء الرصافة

قال ابن جرير [تاريخه:٨/٣٧]: وفي هذه السنة المباركة شرع المنصور في بناء الرصافة لابنه المهدي بعد مقدمه من خراسان، وهي في الجانب الشرقي من بغداد، وجعل له سوراً وخندقاً، وعمل عندها ميداناً وبستاناً، وأجرى إليها الماء من نهر المهدي.

قال ابن جرير [تاريخه:٨/٣٩]: وفيها جدد المنصور البيعة لنفسه ثم لولده المهدي من بعده، ولعيسى بن موسى من بعدهما، وجاء الأمراء والخواص فبايعوا وجعلوا يقبلون يد المنصور ويد ابنه المهدي ويلمسون يد عيسى بن موسى ويشيرون بالتقبيل إليها ولا يقبلونها.

قال الواقدي: وولى المنصور معن بن زائدة سجستان.

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي، وهو نائب مكة والطائف، وعلى المدينة الحسن بن زيد، وعلى الكوفة محمد بن سليمان، وعلى البصرة جابر بن توبة الكلابي، وعلى مصر يزيد بن حاتم. ونائب خراسان حميد بن قحطبة، ونائب سجستان معن بن زائدة.

وغزا الصائفة في هذه السنة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد.

وفيها توفي من الأعيان

حنظلة بن أبي سفيان، وعبد الله بن عون، ومحمد بن إسحاق بن يسار، صاحب السيرة النبوية التي جمعها وجعلها علماً يهتدى به، وفجراً يستجلى به، والناس كلهم عيال عليه في ذلك، كما قال محمد بن إدريس الشافعي وغيره من أئمة الإسلام.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائة

فيها عزل المنصور عن إمرة مصر يزيد بن حاتم وولاها محمد بن سعيد، وبعث إلى نائب إفريقية وكان قد بلغه أنه عصى وخالف، فلما جيء به أمر بضرب عنقه، وعزل عن البصرة جابر بن توبة الكلابي، وولاها يزيد بن منصور.

وفيها قتلت الخوارج معن بن زائدة بسجستان.

وفيها توفي

عباد بن منصور، ويونس بن يزيد الأيلي.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائة

فيها غضب المنصور على كاتبه أبي أيوب المورياني وسجنه وسجن أخاه خالداً وبني أخيه الأربعة سعيداً ومسعوداً ومخلداً ومحمداً، وطالبهم بالأموال الكثيرة.

وكان سبب ذلك ما ذكره ابن الحافظ عساكر في ترجمة أبي جعفر المنصور، وهو أنه كان في زمن شبيبته قد ورد الموصل وهو فقير لا شيء له ولا معه، فأجر نفسه من بعض الملاحين حتى اكتسب شيئاً تزوج به امرأة، ثم جعل يعدها ويمنيها أنه من بيت سيصير إليهم الملك سريعاً، فاتفق حبلها منه، ثم تطلبه بنو أمية فهرب عنها وتركها حاملا، ووضع عندها رقعة فيها نسبه، وأنه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وأمرها إذا بلغها أمره أن تأتيه، وإذا ولدت غلاماً أن تسميه جعفراً. فولدت غلاماً فسمته جعفراً. ونشأ الغلام فتعلم الكتابة وغوى العربية والأدب وأتقن ذلك إتقانا جيداً، ثم آل الأمر إلى بني العباس، فسألت عن السفاح فإذا هو ليس صاحبها، ثم قام المنصور وسافر الولد إلى بغداد فاختلط بكتاب الرسائل فأعجب به أبو أيوب المورياني صاحب ديوان الإنشاء للمنصور، وحظي عنده وقدمه على غيره، فاتفق حضوره معه بين يدي الخليفة فجعل الخليفة يلاحظه، ثم بعث يوماً الخادم ليأتيه بكاتب فدخل ومعه ذلك الغلام، فكتب بين يدي الخليفة كتاباً وجعل الخليفة ينظر إليه ويتأمله، ثم سأله عن اسمه فأخبره أنه جعفر، فقال: ابن من؟ فسكت الغلام، فقال: ما لك لا تتكلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن من خبري كيت وكيت، فتغير وجه الخليفة ثم سأله عن أمه فأخبره، وسأله عن أحوال بلد الموصل فجعل يخبره والغلام يتعجب. ثم قام إليه الخليفة فاحتضنه وقال: أنت ابني. ثم بعثه بعقد ثمين ومال جزيل وكتاب إلى أمه يعلمها بحقيقة حال الزوج.

وخرج الغلام ومعه ذلك من باب سر الخليفة فأحرز ذلك ثم جاء إلى أبي أيوب فقال: ما أبطأ بك عند الخليفة؟ فقال: إنه استكتبني في رسائل كثيرة، ثم تقاولا ثم فارقه الغلام مغضباً ونهض من فوره فاستأجر إلى الموصل ليعلم أمه ويحملها وأهلها إلى بغداد، إلى مكان منها أمر به الخليفة. فسار مراحل، ثم سأل عنه أبو أيوب فقيل سافر فظن أبو أيوب أنّ هذا قد أفشى شيئاً من أسراره إلى الخليفة وفر منه، فبعث في طلبه رسولا وقال: حيث وجدته فرده علي.

فسار الرسول في طلبه فوجده في بعض المنازل فخنقه وألقاه في بئر وأخذ ما كان معه فرجع به إلى أبي أيوب. فلما وقف أبو أيوب على الكتاب أسقط في يده وندم على بعثه خلفه. وانتظر الخليفة عود ولده إليه واستبطأه فبعث من كشف خبره فإذا رسول أبي أيوب قد لحقه وقتله. فحينئذٍ استحضر أبا أيوب وألزمه بأموال عظيمة، وما زال تحت العقوبة حتى أخذ جميع أمواله وحواصله ثم قتله، وقال: هذا قتل حبيبي. وكان المنصور كلما ذكر ولده حزن عليه حزناً شديداً.

وفيها خرجت الخوارج من الصفرية وغيرهم ببلاد إفريقية. فاجتمع منهم ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً، ما بين فارس وراجل، وعليهم أبو حاتم الإباضي، وأبو عاد. وانضم إليهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفاً، فقاتلوا نائب إفريقية فهزموا جيشه وقتلوه، وهو عمر بن عثمان بن أبي صفرة الذي كان نائب السند فعزله المنصور عنها بسبب مبايعته محمد بن عبد اللّه بن حسن وولاه هذه البلاد فقتله الخوارج رحمه اللّه. وأكثرت الخوارج الفساد في البلاد وقتلوا الحريم والأولاد وآذوا عامة العباد.

وفيها ألزم المنصور الناس بلبس قلانس سود طوال جداً، حتى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب، فقال أبو دلامة الشاعر في ذلك:

وكنا نُرجِّي من إمامٍ زيادةً ... فزادَ الإمامُ المصطفى في القلانسِ
تراها على هامِ الرجالِ كأنها ... دِنانٌ يهودٍ جُلِّلَتْ بالبَرَانِسِ

وفيها غزا الصائفة معيوف بن يحيى الحجوري فأسر خلقاً كثيراً من الروم ما ينيف على ستة آلاف أسير، وغنم أموالا جزيلة.

وحج بالناس المهدي ابن أمير المؤمنين المنصور .

وكان على نيابة مكة والطائف محمد بن إبراهيم، وعلى المدينة الحسن بن زيد وعلى الكوفة محمد بن سليمان وعلى البصرة يزيد بن منصور، وعلى مصر محمد بن سعيد.

وذكر الواقدي أن يزيد بن منصور كان ولاه المنصور في هذه السنة اليمن. فاللّه أعلم

فيها توفي

أبان بن صمعة، وأسامة بن زيد الليثي، وثور بن يزيد الحمصي، والحسن بن عمارة. وفطر بن خليفة، ومعمر وهشام بن الغاز واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائة

فيها دخل المنصور بلاد الشام وزار بيت المقدس وجهز يزيد بن حاتم في خمسين ألفاً وولاه بلاد إفريقية، وأمره بقتال الخوارج، وأنفق على هذا الجيش نحواً من ثلاث وستين ألف ألف درهم.

وغزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالي.

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم.

ونواب الأقاليم هم المذكورون في التي قبلها، سوى البصرة فعليها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان.

وفيها توفي

■ **أبو أيوب المورياني الكاتب** وأخوه خالد، وأمر المنصور في بني أخيه أن تقطع أيديهم وأرجلهم ثم تضرب بعد ذلك أعناقهم ففعل ذلك بهم.

وفيها توفي:

■ **أشعب الطامع:** هو بن جبير أبو العلاء، ويقال أبو إسحاق المديني، ويقال له أبو حميدة. وكان أبوه مولى لابن الزبير، فقتله المختار، وهو خال الواقدي.

روى عن عبد اللّه بن جعفر أن رسول اللّه ﷺ كان يتختم في اليمين [ت(١٧٤٤)، س كبرى(٩٥٢٧)].

وروى عن أبان بن عثمان، وسالم وعكرمة، وكان ظريفاً ماجناً يحبه أهل زمانه لخلاعته وطمعه، وكان جيد الغناء، وقد وفد على الوليد بن يزيد دمشق فترجمه ابن عساكر ترجمة ذكر عنه فيها أشياء مضحكة، وأسند عنه حديثين.

وروي عنه أنه سئل يوماً أن يحدث فقال: حدثني عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه ﷺ. قال: خصلتان من عمل بهما دخل الجنة ثم سكت فقيل له: وما هما؟ فقال: نسي عكرمة الواحدة ونسيت أنا الأخرى.

وكان سالم بن عبد اللّه بن عمر يستخليه ويستحليه ويضحك منه ويأخذه معه إلى الغابة، وكذلك كان غيره من أكابر الناس.

وقال الشافعي: عبث الولدان يوماً بأشعب فقال: إن ههنا أناساً يفرّقون الجوز فتسارعوا إلى ذلك، فلما رآهم مسرعين قال: لعله حق فتبعهم.

وقال له رجل: ما بلغ من طمعك؟ فقال: ما زفت عروس بالمدينة إلا رجوت أن تزف إلي فكسحت داري ونظفت ثيابي.

واجتاز يوما برجل يصنع طبقاً من قش فقال له: زد فيه طوراً أو طورين لعله يهدي يوماً لنا فيه هدية.

وروى الحافظ ابن عساكر أن أشعب غنى يوماً لسالم بن عبد اللّه بن عمر قول بعض الشعراء:

مُغَيِّرِيَّةٌ كالبدرِ سُنَّةٌ ... مُطَهَّرَةُ الأثوابِ والدِينُ وافرُ
لها حَسَبٌ زاكٍ وعِرْضٌ مُهذَّبٌ ... وعن كل مكروهٍ من الأمرِ زاجرُ
من الخفراتِ البيضِ لم تلقَ ريبةً ... ولم يَسْتَحِلْها عن تُقًى اللّهِ شاعرُ

فقال له سالم: أحسنت فزدنا فغناه:

ألَمَّت بنا والليلُ داجٍ كأنه ... جناحُ غرابٍ عنه قد نفض القطر
فقلتُ أغَطَّارٌ ثوى في رحالِنا ... وما حملتْ ليلىَ سوى ريحها عطرا

فقال له: أحسنت ولولا أن يتحدث الناس لأجزلت لك الجائزة، وإنك من الأمر بمكان.

وفيها توفي

جعفر بن برقان، والحكم بن أبان، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر، **وقرة** بن خالد، **وأبو عمرو بن العلاء** أحد أئمة القراء، واسمه كنيته، وقيل اسمه زبّان والصحيح الأول.

وهو

■ **أبو عمرو بن العلاء** بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري، وقيل غير ذلك في نسبه.

كان علامة زمانه في اللغة والفقه والنحو وعلم القراءات، وكان من كبار العلماء العاملين، ويقال إنه كتب ملء بيت من كلام العرب، ثم تزهد فأحرقه، ثم راجع الأمر الأول فلم يكن عنده إلا ما كان يحفظه من كلام العرب، وكان قد لقي خلقا كثيراً من أعراب الجاهلية، كان مقدماً أيام الحسن البصري وبعده.

ومن اختياراته في الغريبة قوله في تفسيره الغرة في الجنين: إنها لا يقبل فيها إلا أبيض غلاماً كان أو جارية. فهم ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام: «غرة عبد أو أمة» قال: ولو أريد أي عبد كان أو جارية لما قيده بالغرة، وإنما الغرة البياض.

قال القاضي ابن خلكان: وهذا غريب ولا أعلم هل يوافق قول أحد من الأئمة المجتهدين أم لا.

وذكر عنه أنه كان إذا دخل شهر رمضان لا ينشد فيه بيتاً من الشعر حتى ينسلخ، وأنه كان يشتري له كل يوم كوزاً جديداً وريحاناً طرياً، وقد صحبه الأصمعي نحواً من عشر سنين.

كانت وفاته في هذه السنة، وقيل في سنة ست وخمسين. وقيل سبع وخمسين ومئة فالله أعلم. وقد قارب التسعين، وقيل إنه جاوزها فالله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة صالح بن علي بن عبد الله بن العباس عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس مرفوعاً لأن يربي أحدكم بعد أربع وخمسين ومائة جرو كلب خير له من أن يربي ولداً لصلبه. وهذا منكر جداً وفي إسناده نظر. ذكره من فوائد تمام [الروض البسام بترتيب وتخريج فوائد تمام(١٧١٩)] عن خيثمة بن سليمان عن محمد بن عوف الحمصي عن أبي المغيرة عن عبد الله بن السمط عن صالح به. وعبد الله بن السمط هذا لا أعرفه، وقد ذكره شيخنا الحافظ ابو عبد الله الذهبي في كتابه الميزان [٤٣٦/٢] وقال: روى عن صالح بن علي حديثاً موضوعاً.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة

فيها دخل يزيد بن حاتم بلاد إفريقية فافتتحها عوداً على بدء، وقتل من كان تغلب عليها من الخوارج، وقتل أمراءهم وأسر كبراءهم وأذل أشرافهم وأرغم أنافهم وبدد آلافهم واستبدل أهل تلك البلاد بالخوف أمناً وسلامة، وبالإهانة كرامة، وكان في جملة من قتل من أمرائهم أبو حاتم وأبو عاد الخارجيان. ثم لما استقامت له وبه الأمور في البلدان دخل بعد ذلك بلاد القيروان فمهدها وأطّدها وأقر أهلها وقرر أمورها وأزال محذورها والله سبحانه أعلم.

بناء الرافقة المدينة المشهورة

وفيها أمر المنصور ولده المهدي ببناء الرافقة على منوال بناء بغداد ففعل ذلك في هذه السنة المباركة، وأمر المنصور فيها ببناء سور وعمل خندق حول، الكوفة، وأخذ ما غرم على ذلك من أموال أهلها، من كل إنسان من ذوي اليسار أربعين درهماً. وكان قد فرضها أولا خمسة دراهم، خمسة دراهم، وجُبيت أربعين أربعين، فقال في ذلك بعضهم:

يا لقومي ما لقينا ... من أمير المؤمنينا

قَسَمَ الخمسةَ فينا ... وجبانا الأربعينا

وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي.

وفيها طلب ملك الروم الصلح من أبي جعفر المنصور على أن يحمل إليه الجزية.

وفيها عزل المنصور أخاه العباس بن محمد عن الجزيرة وغرمه أموالا كثيرة.

وفيها عزل محمد بن سليمان بن علي عن إمرة الكوفة، فقيل لأمور بلغته عنه في تعاطي منكرات، وأمور لا تليق بالعمال، وقيل لقتله عبد الكريم بن أبي العوجاء - وقد كان ابن أبي العوجاء هذا زنديقاً - يقال إنه لما أمر بضرب عنقه اعترف على نفسه بوضع أربعة آلاف حديث يحل فيها الحرام ويحرم فيها الحلال، ويصوّم الناس يوم الفطر ويفطرهم في أيام الصيام، فأراد المنصور أن يجعل قتله له ذنباً فعزله، وأراد أن يقيده منه، فقال له عيسى بن علي: يا أمير المؤمنين لا تعزله بهذا، فإنه إنما قتله على الزندقة، ومتى عزلته به شكرته العامة وذموك، فتركه حيناً ثم عزله عن الكوفة وولى عليها عمرو بن زهير.

وفيها عزل المنصور عن المدينة الحسن بن زيد وولى عليها عمه عبد الصمد بن علي، وجعل معه فليح بن سليمان مشرفاً عليه.

وعلى إمرة مكة محمد بن إبراهيم بن محمد، وعلى الكوفة عمرو بن زهير وعلى البصرة الهيثم بن معاوية، وعلى مصر محمد بن سعيد، وعلى إفريقية يزيد بن حاتم.

وفيها توفي صفوان بن عمرو وعثمان بن أبي العاتكة الدمشقيان، وعثمان بن عطاء، ومسعر بن كدام

■ **حماد الراوية**. هو ابن أبي ليلى ميسرة - ويقال سابور - بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي، مولى مكنف بن زيد الخيل الطائي، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ولغاتها، وهو الذي جمع السبع المعلقات الطوال، وإنما سمي الراوية لكثرة روايته الشعر عن العرب، اختبره الوليد بن يزيد بن عبد الملك أمير المؤمنين فأنشده تسعاً وعشرين قصيدة على حروف المعجم، كل قصيدة نحواً من مائة بيت، وزعم أنه لا يسمي شاعراً من شعراء العرب إلا أنشد له ما لا يحفظه غيره. فأطلق له مائة ألف درهم.

وذكر أبو محمد الحريري في كتابه درة الغواص [ص(١١٠، ١١١)]، أن هشام بن عبد الملك استدعاه من العراق من نائبه يوسف بن عمر، فلما دخل عليه إذا هو في دار قوراء مرخمة بالرخام والذهب، وإذا عنده جاريتان حسناوان جداً، فاستنشده شيئاً فأنشده، فقال له: سل حاجتك: فقال: كانت ما كانت يا أمير المؤمنين؟ فقال: وما هي؟ فقال تطلق لي إحدى هاتين الجاريتين. فقال: هما لك وما عليهما، وأخلاه في بعض داره وأطلق له مائة ألف درهم.

هذا ملخص الحكاية. والظاهر أن هذا الخليفة إنما هو الوليد بن يزيد، فإنه ذكر أنه شرب معه، وهشام لم يكن يشرب. ولم يكن نائبه على العراق يوسف بن عمر، إنما كان نائبه خالد بن عبد الله القسري، وبعده يوسف بن عمر بن عبد العزيز. كانت وفاة حماد في هذه السنة عن ستين سنة.

قال ابن خلكان: وقيل: إنه أدرك أول خلافة المهدي في سنة ثمان وخمسين فالله أعلم.

وفيها قتل

■ حماد عجرد على الزندقة. وهو حماد بن عمر بن يوسف بن كليب الكوفي، ويقال إنه واسطي، مولى بني سواءة، وكان شاعراً ماجناً ظريفاً خليعاً، لكنه كان متهما على الإسلام، وقد أدرك الدولتين الأموية والعباسية، ولكنه ما اشتهر إلا في أيام بني العباس، وكان بينه وبين بشار بن برد مهاجاة كثيرة، ولما قتل بشار على الزندقة أيضاً دفن مع حماد هذا في قبره، وقيل: إن حماد عجرد مات سنة ثمان وخمسين، وقيل إحدى وستين ومائة فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائة

فيها ظفر الهيثم بن معاوية نائب البصرة، بعمرو بن شداد الذي كان عاملا لإبراهيم بن محمد على فارس، فقتل بالبصرة قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه ثم صلب.

وفيها عزل المنصور الهيثم بن معاوية عن البصرة وولى عليها قاضيها سوار بن عبد الله، فجمع له بين القضاء والصلاة، وجعل على شرطتها وأحداثها سعيد بن دعلج، ورجع الهيثم بن معاوية إلى بغداد فمات فيها فجاة في هذه السنة، وهو على بطن جارية له، وصلّى عليه المنصور ودفن في مقابر بني هاشم.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن محمد أخو أمير المؤمنين المنصور.

ونواب البلاد هم المذكورون في التي قبلها.

وعلى فارس والأهواز وكور دجلة عمارة بن حمزة، وعلى كرمان والسند هشام بن عمرو.

وفيها توفي

■ حمزة الزيات في قول.

وهو أحد القراء المشهورين والعباد المذكورين، وإليه تنسب المدود الطويلة في القراءة، وقد تكلم فيه بسببها بعض الأئمة.

وسعيد بن أبي عروبة، وهو أول من جمع السنن في قول، وعبد الله بن شوذب، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي، وعمر بن ذر.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين ومائة

فيها بنى المنصور قصره المسمى بالخلد في بغداد، وكان المستحث في عمارته أبان بن صدقة، والربيع مولى المنصور وهو حاجبه.

وفيها حول المنصور الأسواق من قرب دار الإمارة إلى باب الكرخ. وقد ذكرنا فيما تقدم سبب ذلك.

وفيها أمر بتوسعة الطرقات.

وفيها أمر بعمل جسر عند باب الشعير.

وفيها استعرض المنصور جنده وهم ملبسون السلاح وهو أيضاً لابس سلاحاً عظيماً، وكان ذلك عند دجلة.

وفيها عزل عن السند هشام بن عمرو وولى عليها معبد بن الخليل.

وفيها غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمي فأوغل في بلاد الروم، وبعث سناناً مولى البطال بين يديه ففتح حصوناً وسبى وغنم.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي.

ونواب البلاد فيها هم المذكورون في التي قبلها.

وفيها توفي

الحسين بن واقد.

■ أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي فقيه أهل الشام وإمامهم. وقد بقي أهل الشام وما حولها من البلاد على مذهبه نحواً من مائتين وعشرين سنة.

وهذا ذكر شيء من ترجمة الأوزاعي رحمه الله

هو

■ عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمد أبو عمرو الأوزاعي. والأوزاع بطن من حمير وهو من أنفسهم، قاله محمد بن سعد.

وقال غيره: لم يكن من أنفسهم وإنما نزل في محلة الأوزاع، وكانت قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق، وهو ابن عم يحيى بن عمرو الشيباني.

قال أبو زرعة: وأصله من سباء السند فنزل الأوزاع فغلب عليه النسبة إليها. وقال غيره: ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيماً في حجر أمه، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك. والوزراء أعقل منه، ولا أورع ولا أعلم، ولا أفصح ولا أوقر ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من يجالسه أن يكتبها عنه، من حسنها، وكان يعاني الرسائل والكتابة. وقد اكتتب في بعث إلى اليمامة فسمع الحديث من يحيى بن أبي كثير وانقطع إليه فأرشده إلى الرحلة إلى البصرة ليسمع من الحسن وابن سيرين. يتردد لعيادته، فقوي المرض به ومات ولم يسمع منه الأوزاعي شيئاً. وجاء فنزل دمشق بمحلة الأوزاع خارج باب الفراديس، وساد أهلها في زمانه وسائر البلاد في الفقه والحديث والمغازي وغير ذلك من علوم الإسلام.

وقد أدرك خلقاً من التابعين وغيرهم، وحدث عنه جماعات من سادات المسلمين، كمالك بن أنس والثوري والزهري، وهو من شيوخه. وأثنى عليه غير واحد من الأئمة، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته.

قال مالك: كان الأوزاعي إماماً يقتدى به.

وقال سفيان بن عيينة وغيره: كان الأوزاعي إمام أهل زمانه.

وقد حج مرة فدخل مكة وسفيان الثوري آخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: افسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه.

وقد تذاكر مالك والأوزاعي بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر، ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه. أو في شيء من الفقه.

وتناظر هو والثوري في مسجد الخيف في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه. فاحتج الأوزاعي بما رواه عن الزهري عن سالم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه في الركوع والرفع منه.

واحتج الثوري على ذلك بحديث يزيد بن أبي زياد. فغضب الأوزاعي وقال: أتعارض حديث الزهري بحديث يزيد بن أبي زياد وهو رجل ضعيف؟! فاحمار وجه الثوري، فقال الأوزاعي: لعلك كرهت ما قلت؟ قال: نعم. قال: فقم بنا حتى نلتعن عند الركن أينا على الحق. فسكت الثوري.

وقال مقل بن زياد: أفتى الأوزاعي في سبعين ألف مسألة بحدثنا. وأخبرنا.

وقال أبو زرعة: روي عنه ستون ألف مسألة.

وقال غيرهما: افتى في سنة ثلاث عشرة ومائة وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة، ثم لم يزل يفتي حتى مات وعقله زاك.

وقال يحيى القطان عن مالك: اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلت: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي.

وقال محمد بن عجلان: ما رأيت أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي.

وقال غيره: ما رئي الأوزاعي ضاحكاً مقهقهاً قط، ولكن كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط وكان إذا خلى بكى حتى يرحم.

وقال يحيى بن معين: العلماء أربعة: الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي.

والأوزاعي ثقة، وليس هو في الزهري بذاك، أخذ كتاب الزبيدي عن الزهري، وما أقلّ ما رواه عن الزهري.

قال أبو حاتم: كان ثقة متبعاً لما سمع.

قالوا: وكان الأوزاعي لا يلحن في كلامه، وكانت كتبه ترد على المنصور فينظر فيها ويتأملها ويتعجب من فصاحتها وحلاوتها. فقال يوماً لأحظى كتابه عنده ـ وهو سليمان بن مجالد ـ: ينبغي أن تجيب الأوزاعي عن كتبه. فقال: والله يا أمير المؤمنين لا يقدر أحد من أهل الأرض على ذلك، وإنا لتستعين بكلامه فيما نكاتب به أهل الآفاق ممن لا يعرف كلام الأوزاعي. وقال الوليد بن مسلم: كان الأوزاعي إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس، ويأثر عن السلف ذلك. قال: ثم يقومون فيتذاكرون في الفقه والحديث.

وعن الأوزاعي قال: رأيت رب العزة في المنام فقال: أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقلت: بفضلك يا رب. قلت: يا رب امتني على الاسلام. فقال: وعلى السنة.

وقال محمد بن شعيب بن شابور: قال لي شيخ بجامع دمشق: أنا ميت في يوم كذا وكذا. فلما كان ذلك اليوم رأيته في صحن الجامع يتفلى، فقال لي: اذهب إلى سرير الموتى فأحرزه لي عندك قبل أن تسبق إليه. فقلت: ما تقول؟ فقال: هو ما أقول لك، إني رأيت كأن قائلا يقول: فلان قدري، وفلان كذا وعثمان بن أبي العاتكة نعم الرجل، وأبو عمرو الأوزاعي خير من يمشي على وجه الأرض، وأنت ميت في يوم كذا وكذا. قال محمد بن شعيب: فما جاء الظهر حتى مات وصُلي عليه بعدها وأخرجت جنازته.

رواها ابن عساكر.

وكان الأوزاعي رحمه الله كثير العبادة حسن الصلاة ورعاً ناسكاً طويل الصمت، وكان يقول: من أطال القيام في صلاة الليل هوّن الله عليه طول القيام يوم القيامة وكأنه، أخذ ذلك من القرآن وهو ﴿ومِنَ اللَّيلِ فَاسْجُدْ لَهُ وسَبِّحْهُ لَيلا طَوِيلا، إنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ العَاجِلَةَ ويَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوماً ثَقِيلا﴾ [الإنسان: ٢٦ ـ ٢٧]

وقال الوليد بن مسلم: ما رأيت أحداً أشد اجتهاداً من الأوزاعي في العبادة.

وقال غيره: حج فما نام على الراحلة، إنما هو في صلاة، فإذا نعس استند إلى القتب.

وقال غيره: كان من شدة الخشوع كأنه أعمى.

ودخلت امرأة على امرأة الأوزاعي فرأت الحصير الذي يصلي عليه مبلولا فقالت لها: لعل الصبي بال ههنا. فقالت: لا، هذا من أثر دموع الشيخ في سجوده، وهكذا يصبح كل يوم.

وقال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه وبالقول. فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم.

وقال أيضاً: اصبر على السنة وقف حيث يقف القوم، وقل ما قالوا وكف عما كفوا، وليسعك ما وسعهم.

وكان يقول: العلم ما جاء عن أصحاب محمد، وما لم يجيء عنهم فليس بعلم.

وكان يقول: لا يجتمع حب عليّ وعثمان إلا في قلب مؤمن. وإذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل وسد عنهم باب العلم والعمل.

قالوا: وكان الأوزاعي من أكرم الناس وأسخاهم، وكان له في بيت المال على الخلفاء إقطاع فصار إليه من بني أمية وقد وصل إليه من خلفاء بني أمية وأقاربهم وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار، فلم يقتن منها شيئاً، ولا اقتنى شيئا من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، بل كان ينفق ذلك كله في سبيل الله وفي الفقراء.

ولما دخل عبد الله بن علي دمشق وسلب الملك من بني أمية تطلب الاوزاعي فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم أُحضر بين يديه. قال: دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة والمسوّدة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة ـ والعمد الحديد ـ فسلمت عليه فلم يرد ونكست بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: يا أوزاعي ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدي أولئك أرباط هو؟ قال: فقلت: أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول: سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّات وإنَّمَا لكُلِّ امْرِىء ما نَوَىَ، فمنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى اللَّه ورسوله فَهِجْرَتُهُ إلَى اللَّه ورسولِه، ومَنْ كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُها أو امرأةٍ يتزوجُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه». قال: فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت. وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم، ثم قال: يا أوزاعي ما تقول في دماء بني أمية؟ فقلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفسُ بالنفس، والثَّيِّبُ الزاني، والتاركُ لدينه المُفارقُ للجماعة» [خ(٦٤٨٤)، م(١٦٧٦)] . فنكت أشد من ذلك ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت: إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً، وإن كانت لهم حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي. فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ فقلت: إن أسلافك لم يكونوا يشقون عليّ في ذلك، وإني أحب أن تُتِمَّ ما ابتدؤوني به من الإحسان، فقال: كأنك تحبّ الانصراف؟ فقلت: إن ورائي حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهم وسترهم. قال: وانتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف. فلما خرجت إذا رسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال يقول لك الأمير: استنفق هذه. قال: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفاً.

قال: وكان في تلك الأيام الثلاثة صائماً فيقال: إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الأفطار عنده فأبى أن يفطر عنده رحمه الله.

قالوا: ثم رحل الأوزاعي من دمشق فنزل بيروت مرابطاً بأهله وأولاده، قال: وأعجبني فيها أني مررت بقبورها فإذا امرأة سوداء فقلت لها:

أين العمارة يا هتاه؟ فقالت: إن أردت العمارة فهي هذه - وأشارت إلى القبور - وإن كنت تريد الخراب فأمامك - وأشارت إلى البلد - فعزمت على الإقامة بها.

وقال محمد بن كثير: سمعت الأوزاعي يقول: خرجت يوماً إلى الصحراء فإذا رجل من جراد في السماء وإذا شخص راكب على جرادة منها وعليه سلاح الحديد، وكلما قال بيده هكذا إلى جهة مال الجراد مع يده، وهو يقول: الدنيا باطل باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل باطل ما فيها.

وقال الأوزاعي: كان عندنا رجل يخرج يوم الجمعة إلى الصيد ولا ينتظر الجمعة فخسف ببغلته فلم يبق منها إلا أذنها.

وخرج الأوزاعي يوماً من باب مسجد بيروت وهناك دكان فيه ناطف وإلى جانبه رجل يبيع البصل وهو يقول: يا أحلى من الناطف. فقال: سبحان الله! ما يرى هذا بالكذب بأساً؟

وقال الواقدي: قال الأوزاعي: كنا قبل اليوم نضحك ونلعب، أما إذ صرنا أئمة يقتدى بنا فلا نرى أن يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ.

وكتب إلى أخ له: أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب، وإنه يسار بك في كل يوم وليلة، فاحذر الله والقيام بين يديه، وأن يكون آخر عهدك بك والسلام.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن إدريس سمعت أبا صالح - كاتب الليث - يذكر عن الهقل بن زياد عن الأوزاعي أنه وعظ فقال في موعظته: أيها الناس: تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، فإنكم في دار الشواء فيها قليل، وأنتم فيها مرحلون، خلائف بعد القرون التي استقبلوا من الدنيا أنفها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعماراً وأمد أجساماً، وأعظم آثاراً، فخددوا الجبال وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد، مؤيدين ببطش شديد، وأجساد كالعماد، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مدتهم وعفت آثارهم، وأخربت منازلهم، وأنست ذكرهم، فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزاً؟ كانوا بلهو الأمل آمنين، وليقات يوم غافلين، أو لصباح قوم نادمين، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياتاً من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم في ديارهم جاثمين، وأصبح الباقون ينظرون في آثار نقمته، وزوال نعمته ومساكن خاوية، قد كانت بالعز محفوفة، وبالنعم معروفة، والقلوب إليها مصروفة، والأعين نحوها ناظرة. فأصبحت آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى. وأصبحتم بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة، في زمان قد ولى عفوه وذهب رخاؤه وخيره وصفوه، فلم يبق منه إلا حُمة شر، وصبابة كدر، وأهاويل غِيَر، وعقوبات عِبَر وأرسال فتن، وتتابع زلازل، ورذالة خلف بهم ظهر الفساد في البر والبحر، يضيقون الديار ويغلون الأسعار بما يرتكبونه من العار والشنار، فلا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل وغرّه طول الأجل، وتبلّغ بالأماني، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى نُذره وانتهى، وعقل مثواه فمهد لنفسه.

وقد اجتمع الأوزاعي بالمنصور حين دخل الشام ووعظه وأحبه المنصور وعظمه، ولما أراد الانصراف استأذنه في أن لا يلبس السواد فأذن له، فلما خرج قال المنصور للربيع الحاجب: الحقه فاسأله لم كره لبس السواد؟ ولا تعلمه أني قلت لك. فسأله الربيع فقال: لأني لم أر محرماً أحرم فيه، ولا ميتاً كفن فيه، ولا عروساً جليت فيه، فلهذا أكرهه.

وقد كان الأوزاعي في الشام معظماً مكرماً أمره أعز عندهم من أمر السلطان، وهمّ به بعض الولاة مرة فقال له أصحابه: دعه عنك فوالله لو أمر الشاميين أن يقتلوك لقتلوك.

ولما مات جلس عند قبره بعض الولاة فقال: رحمك الله، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف من الذي ولاني. وقد قال أبو مسهر: ما مات الأوزاعي حتى جلس وحده وسمع شتمه بأذنه

وقال أبو خيثمة: حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي قال: كنت جالساً عند الثوري فجاءه رجل فقال: رأيت كأن ريحانة من المغرب يعني قلعت. قال: إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي.، فكتبوا ذلك فجاء موت الأوزاعي في ذلك اليوم أو في تلك الليلة.

وقال أبو مسهر: بلغنا أن سبب موت الأوزاعي أن امرأته أغلقت عليه باب حمام فمات فيه، ولم تكن عامدة لذلك، فأمرها سعيد بن عبد العزيز بعتق رقبة. قال: وما خلف ذهباً ولا فضة ولا عقاراً، ولا متاعاً إلا ستة دنانير، فضلت من عطائه. وكان قد اكتتب في ديوان الساحل.

وقال غيره: كان الذي أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام، وذهب إلى حاجة ثم جاء ففتح الحمام فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة رحمه الله.

قلت: لا خلاف أنه مات ببيروت مرابطاً، واختلفوا في سنه ووفاته:

فروى يعقوب بن سفيان عن سلمة قال: قال أحمد: قال يحيى: رأيت الأوزاعي وتوفي سنة خمسين ومائة وقال الوليد بن مسلم: سنة ست وخمسين ومئة.

قال العباس بن الوليد البيروتي: أخبرني أبي قال: توفي يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة.

وهو الذي عليه الجمهور وهو الصحيح، وهو قول أبي مسهر وهشام بن عمار والوليد بن مسلم - في أصح الروايات عنه - ويحيى بن معين ودحيم وخليفة بن خياط وأبي عبيد وسعيد بن عبد العزيز وغير واحد.

قال العباس بن الوليد: ولم يبلغ سبعين سنة.

قلت: وقال غيره: جاوز السبعين. والصحيح تسع وستون سنة، لأن كان ميلاده في سنة ثمان وثمانين على الصحيح. وقيل: إنه ولد سنة ثلاث وتسعين، وهذا ضعيف.

وقد رآه بعضهم في المنام فقال له: دلني على عمل يقربني إلى الله. فقال: ما رأيت في الجنة درجة أعلى من درجة العلماء، ثم المحزونين.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين ومائة

فيها تكامل بناء قصر المنصور المسمى بالخلد وسكنه أياماً يسيرة ثم مات وتركه.

وفيها مات طاغية الروم.

وفيها وجه المنصور ابنه المهدي إلى الرقة وأمره بعزل موسى بن كعب عن الموصل، وأن يولي عليها خالد بن برمك، وكان ذلك بعد نكتة غريبة اتفقت ليحيى بن خالد، وذلك أن المنصور كان قد غضب على خالد بن برمك، وألزمه بحمل ثلاثة آلاف ألف، فضاق ذرعاً بذلك. ولم يبق له مال ولا حال وعجز عن أكثر ما طلب منه، وقد أجله ثلاثة أيام، فأن لم يحمل ذلك في هذه الأيام فدمه هدر فجعل يرسل ابنه يحيى إلى أصحابه من الأمراء يستقرض منهم، فكان منهم من أعطاه مائة ألف، ومنهم أقل وأكثر.

قال يحيى بن خالد: فبينا أنا ذات يوم من تلك الأيام على جسر بغداد، وأنا مهموم في تحصيل ما طلب منا ولا طاقة لنا به، إذ وثب إليَّ زاجرٌ يعني من أولئك الذين يكونون عند الجسر من الطرقية، فقال لي: أبشر، فلم التفت إليه، فتقدم حتى أخذ بلجام فرسي ثم قال لي: أنت مهموم، والله ليفرجن الله همك ولتمرن غداً في هذا الموضع واللواء بين يديك، فإن كان ما قلت حقاً فلي عليك خمسة آلاف. فقلت: نعم. ولو قال خمسون ألفاً لقلت نعم، لبعد ذلك عندي. قال: وذهبت لشأني وقد بقي علينا من الحمل ثلاثمائة ألف فورد الخبر إلى المنصور بانتقاض الموصل وانتشار الأكراد بها، فاستشار المنصور الأمراء من يصلح للموصل فأشار بعضهم بخالد بن برمك، فقال له المنصور: ويحك! أو يصلح لذلك بعد ما فعلنا به ما فعلنا؟ فقال: نعم! وأنا الضامن أنه يصلح لها، فأمر بإحضاره فولاه إياها ووضع عنه بقية ما كان عليه، وعقد له اللواء، وولى ابنه يحيى بن خالد أذربيجان وخرج الناس في خدمتهما. قال يحيى: فمررنا بالجسر فأشار إليَّ ذلك الزاجر فطالبني بما وعدته به، فأمرت له به، فقبض خمسة آلاف.

وفي هذه السنة خرج المنصور إلى الحج فساق الهدي معه، فلما جاوز الكوفة بمراحل أخذه وجعه الذي مات فيه، وكان عنده سوء مزاج فاشتد عليه من شدة الحر وركوبه في الهواجر، وأخذه إسهال وأفرط به، فقوي مرضه، ودخل مكة فتوفي بها ليلة السبت لست مضين من ذي الحجة، وصلى عليه ودفن بُكُداء عند ثنية المَعْلَى التي بأعلى مكة، وكان عمره يومئذٍ ثلاثاً وقيل أربعا وقيل خمساً وستين سنة، وقيل إنه بلغ ثمانياً وستين سنة فالله أعلم. وقد كتم الربيع الحاجب موته حتى أخذ البيعة للمهدي من القوّاد ورؤوس بني هاشم، ثم دفن. وكان الذي صلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي، وهو الذي أقام للناس الحج في هذه السنة.

وهذه ترجمة المنصور أبي جعفر

هو

■ **عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله** بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر المنصور. وكان أكبر من أخيه أبي العباس السفاح، وأمه أم ولد اسمها سلامة.

روى عن جده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه.

أورده ابن عساكر من طريق محمد بن إبراهيم السلمي عن المأمون عن الرشيد عن المهدي عن أبيه المنصور به.

بويع له بالخلافة بعد أخيه في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة، وعمره يومئذ إحدى وأربعون سنة، لأنه ولد في سنة خمس وتسعين على المشهور في صفر منها بالحميمة من بلاد البلقاء، وكانت خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا أياماً.

وكان أسمر اللون موفر اللحمة خفيف اللحية، رحب الجبهة، أقنى الأنف، بيِّن القَنا أعين كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملك، وتقبله القلوب، وتتبعه العيون، يعرف الشرف في تواضعه، والعتق في صورته، والليث في مشيته. هكذا وصفه بعض من رآه.

وقد صح عن ابن عباس أنه قال:«منا السفاح والمنصور والمهدي».

وفي رواية «حتى يسلّمها إلى عيسى ابن مريم» وقد روي مرفوعاً ولا يصح رفعه.

وذكر الخطيب البغدادي أن أمه سلامة قالت: رأيت حين حملت به كأنه خرج مني أسد فزأر وأقعى على يديه، فما بقي أسد حتى جاء فسجد له.

وقد رأى المنصور في صغره مناماً غريباً كان يقول: ينبغي أن يكتب في الواح الذهب، ويعلق في أعناق الصبيان. قال: رأيت كأني في المسجد الحرام وإذا رسول الله ﷺ في الكعبة والناس مجتمعون حولها، فخرج من عنده مناد فنادى: أين عبد الله؟ فقام أخي السفاح يتخطى الرجال حتى جاء باب الكعبة فأخذ بيده فأدخله إياها، فما لبث أن خرج ومعه لواء أسود. ثم نودي: أين عبد الله؟ فقمت أنا وعمي عبد الله بن علي نستبق، فسبقته إلى باب الكعبة فدخلتها، فاذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وبلال، فعقد لي لواء وأوصاني بأمته وعممني عمامة كورها ثلاثة وعشرون كوراً، وقال: «خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة».

وقد اتفق سجن المنصور في أيام بني أمية فاجتمع به في السجن نوبخت المنجم وتوسم فيه الرياسة فقال له: ممن تكون؟ فلما عرف منه نسبه وكنيته قال: أنت الخليفة الذي تلي الأرض. فقال له: ويحك ماذا تقول؟ فقال: هو ما أقول لك، فضع لي خطك في هذه الرقعة أن تعطيني شيئاً إذا وليت. فكتب له، فلما ولي أكرمه المنصور وأعطاه وأسلم نوبخت على يديه، وكان قبل ذلك مجوسياً. ثم كان من أخص أصحاب المنصور عنده.

وقد حج المنصور بالناس سنة أربعين ومائة. وأحرم من الحيرة، وفي سنة أربع وأربعين، وفي سنة سبع وأربعين. وفي سنة ثنتين وخمسين، ثم في هذه السنة التي كانت فيها وفاته. وبنى مدينة السلام بغداد والرافقة وقصره الخلد.

قال الربيع بن يونس الحاجب: سمعت المنصور يقول: الخلفاء أربعة: أبوبكر وعمر وعثمان وعلي، والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، وأنا.

وقال مالك: قال لي المنصور: من أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقلت: أبو بكر. وعمر. فقال: أصبت وذلك رأي أمير المؤمنين.

وعن إسماعيل الفهري قال: سمعت المنصور على منبر عرفة يوم عرفة يقول:أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه ورشده، وخازنه على ماله أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه، وقد جعلني الله عليه قفلا، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني عليه أقفلني. فارغبوا إلى الله أيها الناس وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهبكم فيه من فضله ما أعلمكم به في كتابه، إذ يقول: ﴿اليومَ أَكْمَلتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ورَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣] أن يوفقني للصواب ويسددني للرشاد ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ويفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم بالعدل عليكم، فإنه سميع مجيب.

وقد خطب يوماً فاعترضه رجل وهو يثني على الله عز وجل، فقال: يا أمير المؤمنين اذكر من أنت ذاكره، واتق الله فيما تأتيه وتذره. فسكت المنصور حتى انتهى كلام الرجل فقال: أعوذ بالله أن أكون ممن قال الله عز وجل فيه: ﴿وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] أو أن أكون جباراً عصياً.

أيها الناس! إن الموعظة علينا نزلت ومن عندنا بُيِّنت. ثم قال للرجل: ما أظنك في مقالتك هذه تريد وجه الله، وإنما أردت أن يقال: وعظ أمير المؤمنين.

أيها الناس لا يغرنكم هذا فتفعلوا كفعله ثم أمر به فاحتفظ به وعاد إلى خطبته فأكملها، ثم قال لمن هو عنده: أعرض عليه الدنيا فإن قبلها

فأعلمني، وإن ردها فأعلمني، فما زال به الرجل الذي هو عنده حتى أخذ المال والجواري، وولاّه الحسبة والمظالم وأدخله على الخليفة في بزة حسنة، وثياب وشارة حسنة، فقال له الخليفة: ويحك! لو كنت محقاً لما قبلت شيئاً مما أرى، ولكن أردت أن يقال عنك: إنك وعظت أمير المؤمنين، وخرجت عليه، ثم أمر به فضربت عنقه.

وقد قال المنصور لابنه المهدي: إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة. والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

وقال أيضاً: يا بني استدم النعمة بالشكر، والقدرة بالعفو، والطاعة بالتأليف، والنصر بالتواضع والرحمة للناس، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله

وحضر عنده مبارك بن فضالة يوماً وقد أمر برجل أن تضرب عنقه وأحضر النطع والسيف، فقال له مبارك: سمعت الحسن يقول قال رسول الله ﷺ: «إذا كانَ يومُ القيامةِ نادى منادٍ لِيَقُمْ مَنْ أجرُه على الله فلا يقومُ إلا مَنْ عفا» فأمر بالعفو عن ذلك الرجل. ثم أخذ يعدد على جلسائه عظيم جرائمه وما صنعه.

وقال الأصمعي: أُتي المنصور برجل ليعاقبه فقال: يا أمير المؤمنين الانتقام عدل والعفو فضل، ونُعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين. قال: فعفا عنه.

وقال الأصمعي: قال المنصور لرجل من أهل الشام: احمد الله يا أعرابي الذي دفع عنكم الطاعون بولايتنا. فقال: إن الله لا يجمع علينا حشفاً وسوء كيل، ولايتكم والطاعون.

والحكايات في ذكر حلمه وعفوه كثيرة جداً.

ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، واذكر ليلة تبيت في القبر لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده، قال: فأفحم المنصور قوله وأمر له بمال فقال: لو احتجت إلى مالك ما وعظتك.

وروي عن عمرو بن عبيد القدري أنه دخل على المنصور فأكرمه وأدناه وقربه وسأله عن أهله وعياله، ثم قال له: عظني. فقرأ عليه سورة الفجر إلى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] قال: فبكى المنصور بكاء شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل تلك الساعة، ثم قال له: زدني. فقال: إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة. فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت جفناه.، فقال له سليمان بن مجالد: رفقاً بأمير المؤمنين. فقال عمرو: وماذا على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله عز وجل. ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم فقال: لا حاجة لي فيها. فقال المنصور: والله لتأخذنها. فقال: والله لا آخذنها. فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه: أيحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت إلى المنصور فقال: ومن هذا؟ فقال: هذا ابني محمد المهدي ولي العهد من بعدي. فقال: أسمّيته اسما لم يستحقه بعمله هذا، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار، ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما تكون عنه. ثم التفت إلى المهدي فقال: يا بن أخي! إذا حلف أبوك حلف عمك، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك. ثم قال المنصور: يا أبا عثمان هل من حاجة؟ قال: نعم! قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إلي حتى آتيك. فقال: إذاً والله لا نلتقي. فقال: عن حاجتي سألتني. فودعه وانصرف. فلما ولى أبدّه بصره وهو يقول:

كلكم يمشي رويد ... كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد

ويقال: إن عمرو بن عبيد أنشد المنصور قصيدة في موعظته إياه وهي قوله:

يا أيُّها الذي قد غرّه الأملُ ... ودونَ ما يأمُلُ التنغيصُ والأجلُ

ألا ترى أنما الدنيا وزينتُها ... كمَنزل الرَّكبِ حَلُّوا ثُمَّتَ ارتحلوا

حُتُوفُها رَصَدٌ وعَيْشُها نَكَدٌ ... وصفوُها كَدَرٌ ومُلْكُها دُوَلُ

تَظَلُّ تقرعُ بالرُّوعاتِ ساكنَها ... فما يسوغُ له لينٌ ولا جَذَلُ

كأنّه للمَنايا والرَّدى غَرَضٌ ... تَظَلُّ فيه بناتُ الدهرِ تَنتَضِلُ

تُديرُه ما أدارته دوائرُها ... منها المُصيبُ ومنها المُخطئُ الزَّلِلُ

والنفسُ هاربةٌ والموتُ يطلُبُها ... وكلُّ عَثْرةِ رِجْلٍ عِندَها جَلَلُ

والمَرْءُ يسعى بما يسعى لوارثِه ... والقبرُ وارثُ ما يسعى له الرَّجُلُ

وقال ابن دريد عن الرياشي عن محمد بن سلام قال: رأت جارية للمنصور ثوبه مرقوعاً فقالت: خليفة وقميصُه مرقوع؟ فقال: ويحك أما سمعت ما قال ابن هرمة

قد يُدرِكُ الشَّرفَ الفتى ورِداؤُه ... خَلَقٌ وبعضُ قميصِهِ مَرْقوعُ

ومن شعره لما عزم على قتل أبي مسلم الخراساني:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُن ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرَّأيِ أن تترددا

ولا تُمهِلِ الأعداءَ يوماً بقُدرةٍ ... وبادِرْهُم أن يملكوا مثلَها غدا

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال:

قد اكتَنَفَتْكَ خَلاتٌ ثُلاثٌ ... جَلَبْنَ عليكَ محتومَ الحِمامِ

خِلافُكَ وامتناعُكَ من يميني ... وقَوْدُكَ للجماهيرِ العِظامِ

ومن شعره أيضاً:

المرءُ يأمُلُ أن يعيـ ... ـشَ وطولُ عُمْرٍ قد يضرُّه

تَبْلى بشاشتُه ويبـ ... ـقى بعد حُلوِ العيشِ مُرُّه

وتخونُهُ الأيامُ حتى ... لا يَرى شيئاً يسرُّه

كم شامتٍ بي إنْ هَلَكـ ... ـتُ وقائلٍ للّه دَرُّه

قالوا: وكان المنصور في أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولايات والعزل والنظر في مصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح من بعد ذلك إلى العصر، فإذا صلاها جلس لأهل بيته ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه.

وقد ولى بعض العمال على بلد فبلغه أنه قد تصدى للصيد وأعد لذلك كلاباً والبُزاة، فكتب إليه المنصور: تكلتك أمك وعدمتك عشيرتك، ويحك إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين، ولم نستكفك أمور الوحوش، فسلم

ما كنت تلي من عملنا إلى فلان والحق بأهلك ملوماً مدحوراً.

وأُتي يوماً بخارجي قد هزم جيوش المنصور غير مرة فلما وقف بين يديه قال له المنصور: ويحك يا بن الفاعلة! مثلك يهزم الجيوش؟ فقال الخارجي: ويلك سوأة لك بيني وبينك أمس السيف والقتل واليوم القذف والسب، وما يؤمنك أن أرد عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقيلها أبداً. قال فاستحيى منه المنصور وأطلقه. فما رأى له وجهاً إلى الحول.

وقال أيضاً: يا بني ليس العاقل من يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه.

وقال المنصور أيضاً يوماً لابنه المهدي: يا بني لا تجلس مجلساً إلا وعندك من أهل العلم من يحدثك، فإن الزهري قال: علم الحديث لا يحبه إلا ذكران الرجال، ولا يكرهه إلا مؤنثوهم، وصدق أخو زهرة.

وقد كان المنصور في شبيته يطلب العلم من مظانه والحديث والفقه فنال من ذلك جانباً جيداً وطرفاً صالحاً، وقد قيل له يوماً: ياأمير المؤمنين هل بقي شيء من اللذات لم تنله؟ قال: لا، سوى شيء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: قول المحدث للشيخ من ذكرت رحمك الله؟ فاجتمع وزراؤه وكتابه وجلسوا حوله وقالوا: ليمل علينا أمير المؤمنين شيئاً من الحديث، فقال: لستم بهم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، بُرُد الآفاق ونقلة الحديث.

وقال المنصور يوماً لابنه المهدي: كم عندك راية؟ فقال: لا أدري. فقال: هذا هو التقصير، فأنت لأمر الخلافة أشد تضييعاً فاتق الله يا بني.

وقالت خالصة إحدى حظيات المهدي: دخلت يوماً على المنصور وهو يشتكي ضرسه ويداه على صدغيه فقال لي: كم عندك من المال يا خالصة؟ فقلت: ألف درهم.، فقال: ضعي يدك على رأسي واحلفي، فقلت: عندي عشرة آلاف دينار. قال: اذهبي فاحملها إلي. قالت: فذهبت حتى دخلت على سيدي المهدي وهو مع زوجته الخيزران فشكوت إليه ما قال أمير المؤمنين، فوكزني برجله وقال: ويحك! إنه ليس به وجع ولكني سألته بالأمس مالا فتمارض، وإنه لا يسعك إلا ما أمرك به، فذهبت إليه خالصة ومعها عشرة آلاف دينار، فاستدعى بالمهدي فقال له: تشكو الحاجة وهذا كله عند خالصة!

وقال المنصور لخازنه: إذا علمت بمجيء المهدي فائتني بخلقان الثياب قبل أن يجيء، فجاء بها فوضعها بين يديه ودخل المهدي والمنصور يقلبها، فجعل المنصور يضحك فقال: يا بني من ليس له خلق ما له جديد، وقد حضر الشتاء فنحتاج نعين العيال والولد. فقال المهدي: علي كسوة أمير المؤمنين وعياله. فقال: دونك فافعل.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٨/٨٤] عن الهيثم أن المنصور أطلق في يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم. وفي هذا اليوم فرق في بيته عشرة آلاف درهم، ولا يعلم خليفة فرق مثل هذا في يوم واحد.

وقرأ بعض القرّاء عند المنصور ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] فقال: والله لولا أن المال حصن للسلطان ودعامة للدين والدنيا وعزّهما ما بت ليلة واحدة وأنا أحرز منه ديناراً ولا درهماً لما أجدُّ لبذل المال من اللذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة.

وقرأ عنده قارئ آخر ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. فقال: ما أحسن ما أدبنا ربنا عز وجل.

وقال المنصور: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن عبد الله يقول: سادة أهل الدنيا في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

ولما عزم المنصور على الحج في هذه السنة أعني سنة ثمان وخمسين ومائة دعا ولده المهدي وليّ عهده فأوصاه في خاصة نفسه وبأهل بيته وبسائر المسلمين خيراً، وعلمه كيف يفعل الأشياء ويسد الثغور، بوصايا يطول بسطها وحرج عليه أن لا يفتح شيئاً من خزائن المسلمين حتى يتحقق وفاته فإن بها من الأموال ما يكفي المسلمين لو لم يجب إليهم من الخراج درهم عشر سنين، وعهد إليه أن يقضي ما عليه من الدين وهو ثلاثمائة ألف دينار، فإنه لم ير قضاءها من بيت المال. فامتثل المهدي ذلك كله. وأحرم المنصور بحج وعمرة من الرصافة وساق بدنه وقال: يا بني إني ولدت في ذي الحجة وقد وقع لي أن أموت في ذي الحجة، وهذا الذي حَدَاني على الحج عامي هذا، وودعه وسار واعتراه مرض الموت في أثناء الطريق فما دخل مكة إلا وهو مُثْقَل جداً، فلما كان بآخر منزل نزله دون مكة إذا في صدر منزله مكتوب: (بسم الله الرحمن الرحيم)

أبا جعفرٍ حانتْ وفاتُك وانقضتْ ... سِنُوكَ وأَمْرُ اللّهِ لا بُدَّ واقِعُ
أبا جعفرٍ هل كاهِنٌ أو مُنَجِّمٌ ... لَكَ اليومَ مِنْ كَرْبِ المَنِيةِ مانِعُ

فدعا بالحجبة فأمرهم بقراءة ذلك فلم يروا شيئاً فعرف أن أجله قد نعي إليه.

قالوا: ورأى المنصور في منامه ويقال بل هتف به هاتف وهو يقول:

أما وربِّ السُّكُونِ والحَرَكِ ... إنَّ المَنايا كثيرةُ الشَّرَكِ
عليكِ يا نَفْسُ إنْ أساتِ وإنْ ... أحسنتِ يا نفسُ كانَ ذاكِ لَكِ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا ... دارتْ نجومُ السماءِ في الفَلَكِ
إلا بنقلِ السلطانِ عن مَلِكٍ ... إذا انقضى مُلْكُه إلى مَلِكِ
حتى يصيرا به إلى مَلِكٍ ... ما عِزُّ سُلْطانِهِ بِمُسْتَرَكِ
ذاكَ بديعُ السماءِ والأرضِ والمُـ ... ـسي الجبالِ المُسَخِّرُ الفَلَكِ

فقال المنصور: هذا والله أوان حضور أجلي وانقضاء عمري.

وكان قد رأى قبل ذلك في قصره الخلد الذي بناه وتألق فيه مناماً أفزعه فقال للربيع: ويحك ياربيع! لقد رأيت مناماً هالني، رأيت قائلا وقف في باب هذا القصر وهو يقول:

كأني بهذا القصرِ قد بادَ أهلُهُ ... وعُرِّيَ منه أهْلُهُ ومنازِلُهُ
وصارَ رئيسُ القصرِ مِنْ بعدِ بهجةٍ ... إلى جَدَثٍ تُبْنى عليه جنادِلُه

فما أقام في الخلد إلا أقل من سنة حتى خرج إلى الحج عامه هذا ومرض في طريق مكة، فدخلها مدنفاً ثقيلا. وكانت وفاته ليلة السبت لست وقيل لسبع مضين من ذي الحجة. وكان آخر ما تكلم به أن قال: اللّهم بارك لي في لقائك. وقيل: إنه قال يا رب إن كنت عصيتك في أمور كثيرة فقد أطعتك في أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله إلا الله مخلصاً. ثم مات.

وكان نقش خاتمه. الله ثقة عبد الله وبه يؤمن.

وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وستين سنة على المشهور، منها اثنتان وعشرون سنة خليفة. ودفن بباب المَعْلَى رحمه الله.

قال ابن جرير [تاريخه:٨/٨/١٠١، ١٠٢]: ومما رثي به أبو جعفر المنصور رحمه الله قول سلم الخاسر الشاعر:

عجباً للذي نعى الناعيان ... كيف فاهت بموته الشفتان

ملك أن عدا على الدهر يوماً ... أصبح الدهر ساقطاً للجران
ليت كفاً حثت عليه ترابا ... لم تعد في يمينها ببنان
حين دانت له البلاد على العسـ ... ـف وأغضى من خوفه الثقلان
أين رب الزوراء قد قلدته الـ ... ـملك عشرين حجة واثنتان
إنما المرء كالزناد إذا ما ... أخذته قوادح النيران
ليس يشني هواه زجر ولا يقـ ... ـدح في حبله ذوو الأذهان
قلدته أعنة الملك حتى ... قاد أعداءه بغير عنان
يكسر الطرف دونه وترى الأيـ ... ـدي من خوفه على الأذقان
ضم أطراف ملكه ثم أضحى ... خلف أقصاهم ودون الداني
هاشمي التشمير لا يحمل الثقـ ... ـل على غارب الشرود الهدان
ذو أناة ينسى لها الخائف الخو ... ف وعزم يلوي بكل جنان
ذهبت دونه النفوس حذاراً ... غير أن الأرواح في الأبدان

وقد دفن المنصور عند باب المعلى بمكة ولا يعرف قبره لأنه عُمِّي قبره، فإن الربيع الحاجب حفر مائة قبر ودفنه في غيرها لئلا يعرف.

ذكر أولاد المنصور

محمد المهدي وهو ولي عهده من بعده، وجعفر الأكبر مات في حياته، وأمهما أروى بنت منصور: وعيسى، ويعقوب، وسليمان، وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله. وجعفر الأصغر من أم ولد كردية، وصالح المسكين من أم ولد رومية ـ يقال لها قالي الفراشة ـ والقاسم من أم ولد أيضاً! والعالية من امرأة من بني أمية.

ذكر خلافة المهدي بن المنصور

لما مات أبو المنصور بمكة لست أو لسبع مضين من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة أخذت له البيعة بمكة من رؤوس بني هاشم والقواد الذين هم مع المنصور في الحج قبل دفنه، وبعث بالبيعة مع البريد إلى المهدي وهو ببغداد، فوصله البريد يوم الثلاثاء النصف من ذي الحجة، فسلم عليه بالخلافة وأعطاه الكتب بالبيعة، وبايعه أهل بغداد، ونفذت البيعه إلى سائر الآفاق والأقاليم وقد كان ولي العهد من بعد أبيه.

وذكر ابن جرير [تاريخه:٨/١١٤] أن المنصور قبل موته بيوم تحامل وتساند واستدعى بالأمراء فجدد لهم البيعة لابنه المهدي، فتسارعوا إلى ذلك وتبادروا إليه.

وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن وصية عمه إليه في ذلك، وهو الذي صلى عليه، وقيل: إن الذي صلى على المنصور عيسى بن موسى ولي العهد من بعد المهدي، والصحيح الأول، لأنه كان نائب مكة والطائف.

وعلى إمرة المدينة عبد الصمد بن علي، وعلى الكوفة عمرو بن زهير الضبي ـ أخو المسيب بن زهير أمير الشرطة للخليفة ـ وعلى خراسان حميد بن قحطبة، وعلى خراج البصرة وأرضها عمارة بن حمزة، وعلى صلاتها وقضائها عبد الله بن الحسن العنبري، وعلى أحداثها سعيد بن دعلج.

قال الواقدي: وأصاب الناس في هذه السنة وباء شديد فتوفي فيه خلق كثير وجم غفير.

منهم أفلح بن حميد، وحيوة بن شريح، ومعاوية بن صالح بمكة،

■ وزفر بن الهذيل بن قيس بن سليم بن مكمِّل بن ذهل بن ذؤيب بن جذيمة بن عمرو بن حنجود بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم بن مرة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، التميمي العنبري الكوفي الفقيه الحنفي، أقدم أصحاب أبي حنيفة وفاة، وأكثرهم استعمالا للقياس، وكان عابداً، اشتغل أولا بعلم الحديث ثم غلب عليه الفقه والقياس. ولد سنة ست عشرة ومائة، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة عن ثنتين وأربعين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائة

استهلت هذه السنة وخليفة الناس أبو عبد الله المهدي بن أبي جعفر المنصور، فبعث في أولها العباس بن محمد إلى بلاد الروم في جيش كثيف، وركب معهم مشيعاً لهم، فساروا إليها فافتتحوا مدينة عظيمة للروم، وغنموا غنائم كثيرة ورجعوا سالمين لم يفقد من المسلمين أحد.

وفيها توفي

■ **حميد بن قحطبة** نائب خراسان، فولى المهدي مكانه أبا عون عبد الملك بن يزيد، وولى حمزة بن مالك سجستان، وولى جبريل بن يحيى سمرقند.

وفيها بنى المهدي مسجد الرصافة وخندقها.

وفيها جهز المهدي جيشاً كثيفاً إلى بلاد الهند فوصلوا إليها في السنة الآتية، وكان من أمرهم ما سنذكره.

وفيها توفي نائب السند

■ **معبد بن الخليل** فولى المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة وزيره أبي عبد الله.

وفيها أطلق المهدي من كان في السجون إلا من كان محبوساً على دم، أو ممن يسعى في الأرض فساداً، أو عنده حق لأحد. وكان في جملة من أخرج من المطبق يعقوب بن داود مولى بني سليم، والحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن، وأمر الخليفة بصيرورة الحسن بن إبراهيم إلى نصير الخادم ليحترز عليه. وكان الحسن قد عزم على الهرب من السجن قبل خروجه منه، فلما خرج يعقوب بن داود من السجن ناصح الخليفة بما كان عزم عليه الحسن بن إبراهيم فنقله الخليفة من السجن وأودعه عند نصير الخادم ليحتاط عليه، وحظي يعقوب بن داود عند المهدي جداً حتى صار يدخل عليه في الليل بلا استئذان، وجعله الخليفة على أمور كثيرة فوّضها إليه، وأطلق له مائة ألف درهم. وما زال عنده كذلك حتى تمكن المهدي من الحسن بن إبراهيم فسقطت منزلة يعقوب عند المهدي. وقد عزل المهدي نواباً كثيرة عن البلاد وولّى بدلهم عليها.

وفي هذه السنة تزوج المهدي بابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي، وأعتق جاريته الخيزران وتزوجها أيضاً، وهي أم الرشيد.

وفيها وقع حريق عظيم في السفن التي بدجلة بغداد.

ولما ولي المهدي سأل عيسى بن موسى ـ وكان ولي العهد من بعد المهدي ـ أن يخلع نفسه من الأمر فامتنع على المهدي، وسأل من المهدي أن يقيم بأرض الكوفة في ضيعة له فأذن له، وكان قد استقر على إمرة الكوفة روح بن حاتم، فكتب إلى المهدي: إن عيسى بن موسى لا يأتي

الجمعة ولا الجماعة مع الناس إلا شهرين من السنة، وإنه إذا جاء يدخل بدوابه إلى داخل باب المسجد فتروث دوابه حيث يصلي الناس، فكتب إليه المهدي أن يعمل خشباً على أفواه السكك حتى لا يصل الناس إلى الجامع إلا مشاة.، فعلم بذلك عيسى بن موسى فاشترى قبل الجمعة دار المختار بن أبي عبيدة من ورثته - وكانت ملاصقة المسجد - وكان يأتي إليها من يوم الخميس، فإذا كان وقت الجمعة ركب حماراً إلى باب المسجد فنزل عنه وشهد الصلاة مع الناس وأقام بالكلية بالكوفة بأهله، ثم ألح المهدي على عيسى بن موسى في أن يخلع نفسه من ولاية وتوعده إن لم يفعل، ووعده إن فعل فأجابه إلى ذلك فأعطاه أقطاعاً عظيمة. وجعل له من المال عشرة آلاف ألف درهم، وقيل عشرين ألف ألف، وبايع المهدي لولديه من بعده موسى الهادي، ثم هارون الرشيد كما سيأتي.

وحج بالناس يزيد بن منصور خال المهدي وكان نائباً على اليمن فولاه الموسم واستقدمه عليه شوقاً إليه.

وغالب نواب البلاد قد تغيَّروا في هذه السنة، غير أن إفريقية مع يزيد بن حاتم، وعلى مصر محمد بن سليمان أبو ضمرة، وعلى خراسان أبو عون، وعلى السند بسطام بن عمرو، وعلى الأهواز وفارس عمارة بن حمزة، وعلى اليمن رجاء بن روح، وعلى اليمامة بشر بن المنذر، وعلى الجزيرة الفضل بن صالح، وعلى المدينة عبد الله بن صفوان الجمحي، وعلى مكة والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن عباس، وعلى أحداث الكوفة إسحاق بن الصباح الكندي، وعلى خراجها ثابت بن موسى، وعلى قضائها شريك بن عبد الله النخعي، وعلى أحداث البصرة عمارة بن حمزة وعلى صلاتها عبد الملك بن أيوب بن ظبيان النميري، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن العنبري.

وممن توفي فيها من الأعيان

عبد العزيز بن أبي رواد، وعكرمة بن عمار، ومالك بن مغول.

■ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب المدني: نظير مالك بن أنس في الفقه، وربما أنكر على مالك أشياء في تركه الأخذ ببعض الأحاديث، لمآخذ كان يراها مالك من إجماع أهل المدينة وغير ذلك من المسائل.

ثم دخلت سنة ستين ومائة من الهجرة

فيها خرج رجل بخراسان على المهدي منكراً عليه أحواله وسيرته، يقال له يوسف البرم، والتف عليه خلق كثير، وتفاقم أمره وعظم الخطب به، فتوجه إليه يزيد بن مزيد فلقيه فاقتتلا حتى تنازلا وتعانقا، فأسر يزيد بن مزيد يوسف هذا، وأسر جماعة من أصحابه فبعثه وبعثهم إلى المهدي فأدخلوا عليه، وقد حملوا على جمال محولة وجوههم إلى ناحية أذناب الإبل، فأمر الخليفة هرثمة بن أعين أن يقطع يدي يوسف ورجليه ثم تضرب عنقه وأعناق من معه وصلبهم على جسر دجلة الأكبر مما يلي عسكر المهدي وأطفأ الله نائرتهم وكفى شرهم.

ذكر البيعة لموسى الهادي وهارون الرشيد

كان الخليفة المهدي قد ألحَّ على عيسى بن موسى أن يخلع نفسه عن ولاية وهو في ذلك كله يمتنع وهو مقيم بالكوفة، فبعث إليه المهدي أحد القواد الكبار وهو أبو هريرة محمد بن فروخ في ألف من أصحابه لإحضاره إليه، وأمرهم أن يصبحوا مع كل واحد منهم طبلا، فإذا واجهوا الكوفة عند إضاءة الفجر ضرب كل واحد منهم بطبله، ففعلوا ذلك فارتجت الكوفة، وخاف عيسى بن موسى، فلما انتهوا إليه دعوه إلى حضرة الخليفة فأظهر أنه التشكي، فلم يقبلوا وأخذوه معهم فدخلوا به على الخليفة في يوم الخميس لثلاث خلون من المحرم من هذه السنة، فاجتمع عليه وجوه بني هاشم والقضاة والأعيان وسألوه في ذلك وهو يمتنع، ثم لم تزل الناس به بالرغبة والرهبة حتى أجاب في يوم الأربعاء لأربع بقين من المحرم بعد العصر، وبويع لولدي أمير المؤمنين موسى وهارون الرشيد صباحة يوم الخميس لثلاث بقين من المحرم وجلس المهدي في قبة صبيحة في إيوان الخلافة، ودخل الأمراء فبايعوا ثم نهض فصعد المهدي المنبر وجلس ابنه موسى الهادي تحته، وقام عيسى بن موسى على أول درجة منه، وخطب المهدي فأعلم الناس بما وقع من خلع عيسى بن موسى نفسه وأنه قد حلل الناس من الإيمان التي له في أعناقهم وجعل ذلك إلى موسى الهادي. فصدق عيسى بن موسى ذلك وبايع المهدي على ذلك. ثم نهض الناس فبايعوا الخليفة على حسب مراتبهم وأسنانهم، وكتب على عيسى بن موسى مكتوباً مؤكداً بالأيمان البالغة من الطلاق والعتاق، وأشهد عليه جماعة الأمراء والوزراء وأعيان بني هاشم وغيرهم.

وفيها وصل عبد الملك بن شهاب المسمعي مدينة باريد من الهند في جحفل كثير معه فحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، ورموها بالنفط فأحرقوا منها طائفة، وهلك بشر كثير من أهلها، وفتحوها عنوة وأرادوا الانصراف فلم يمكنهم ذلك لاغتلام البحر، فأقاموا هنالك فأصابهم داء في أفواههم يقال له حمام قُرّ فمات منهم ألف نفس منهم الربيع بن صبيح، فلما أمكنهم المسير ركبوا في البحر فهاجت عليهم ريح فغرق منهم أيضاً، ووصل بقيتهم إلى البصرة ومعهم سبي كثير، فيهم بنت ملكهم.

وفيها حكم المهدي بإلحاق سب أبي بكرة الثقفي إلى ولاء رسول الله ﷺ وقطع نسبهم من ثقيف، وكتب بذلك كتاباً إلى والي البصرة. وقطع نسبه من زياد ومن نسب نافع ففي ذلك يقول بعض الشعراء وهو خالد النجار:

إن زياداً ونافعاً وأبا ... بكرة عندي من أعجب العجب

ذا قرشي كما يقول وذا ... مولى وهذا بزعمه عربي

فذكر ابن جرير [تاريخه:٨/١٣٢] أن نائب البصرة لم ينفذ ذلك.

وفي هذه السنة حج بالناس أمير المؤمنين المهدي واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي، واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وخلقاً من الأمراء، منهم يعقوب بن داود على منزلته ومكانته، وكان الحسن بن إبراهيم قد هرب من الخادم فلحق بأرض الحجاز، فاستأمن له يعقوب بن داود فأحسن المهدي صلته وأجزل جائزته، وفرق المهدي في أهل مكة مالا عظيما جدًّا كان قد قدم معه بثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب، وجاء من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا ألف دينار، فأعطاها كلها في أهل مكة والمدينة.

وشكت الحجبة إلى المهدي أنهم يخافون على الكعبة أن تنهدم من كثرة ما عليها من الكساوي، فأمر بتجريدها من الكسوة، فلما انتهوا إلى كساوي هشام بن عبد الملك وجدها من ديباج ثخين جداً، وبقيّة كساوي الخلفاء قبله وبعده من أهل اليمن، فلما جردها طلاها بالخلوف وكساها كسوة

حسنة جداً، ويقال إنه استفتى مالكاً في إعادة الكعبة إلى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير من موضعها على الوجه الذي كان يَوَدُّه رسول ﷺ، فقال مالك: دعها على حالها فإني أخشى أن يتخذها الملوك ملعبة. فتركها كما كانت.

وحمل له محمد بن سليمان نائب البصرة الثلج إلى مكة، وكان أول خليفة حمل له الثلج إليها. ولما دخل المدينة النبوية وسع المسجد النبوي، وكان فيه مقصورة فأزالها وأراد أن ينقص من المنبر ما كان زاده معاوية بن أبي سفيان فقال له مالك: إنه يخشى أن ينكسر الخشب العتيق إذا زعزع، فتركه ولم يتعرض له.

وتزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، وانتخب من أهلها من الأنصار خمسمائة من أعيانها ليكونوا حوله حرساً بالعراق وأنصاراً له وأجرى عليهم أرزاقاً غير أعطياتهم وأقطعهم أقطاعا معروفة بهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الربيع بن صبيح، وسفيان بن حسين، أحد أصحاب الزهري.

■ **شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي،** ثم انتقل إلى البصرة. رأى شعبة الحسن وابن سيرين، وروى عن أمم من التابعين، وحدث عنه خلق من مشايخه وأقرانه وأئمة الإسلام، وهو شيخ المحدثين الملقب فيهم بأمير المؤمنين قاله الثوري.

وقال يحيى بن معين: هو إمام المتقين، وكان في غاية الورع والزهد والتقشف والحفظ وحسن الطريقة.

وقال الشافعي: لولاه ما عرف الحديث بالعراق.

وقال الإمام أحمد: كان أمة وحده في هذا الشأن، ولم يكن في زمانه مثله.

وقال محمد بن سعد: كان ثقة مأمونا حجة صاحب حديث.

وقال وكيع: إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات بذبِّه عن حديث رسول الله ﷺ.

وقال صالح بن محمد، جزرة: كان شعبة أول من تكلم في الرجال وتبعه يحيى القطان ثم أحمد وابن معين.

وقال ابن مهدي: ما رأيت أعقل من مالك، ولا أشد تقشفاً من شعبة، ولا أنصح للأمة من ابن المبارك، ولا أحفظ للحديث من الثوري.

وقال مسلم بن إبراهيم: ما دخلت على شعبة في وقت صلاة الا ورأيته يصلي، وكان أباً الفقراء وأُمهم.

وقال النضر بن شميل: ما رأيت أرحم بمسكين منه، كان إذا رأى مسكيناً لا يزال ينظر إليه حتى يغيب عنه.

وقال بعضهم: ما رأيت أعبد منه لقد عبد الله حتى لصق جلده بعظمه.

وقال يحيى القطان: ما رأيت أرق للمسكين منه، كان يدخل المسكين في منزله فيعطيه ما أمكنه.

قال محمد بن سعد وغيره: مات في أول سنة ستين ومائة بالبصرة عن ثمان وسبعين سنة.

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائة

فيها غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل دابق، وجاشت الروم عليه فلم يتمكن المسلمون من الدخول إليها بسبب ذلك.

وفيها أمر المهدي بحفر الركايا وعمل المصانع وبناء القصور في طريق مكة وولى على ذلك يقطين بن موسى على ذلك، فلم يزل يعمل في ذلك إلى سنة إحدى وسبعين ومائة، حتى صارت طريق الحجاز من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها.

وفيها وسع المهدي جامع البصرة من قبلته وغربه.

وفيها كتب إلى الآفاق أن لا تبقى مقصورة في مسجد جماعة، وأن تقصر المنابر إلى مقدار منبر رسول الله ﷺ، ففعل ذلك في المدائن كلها.

وفيها اتضعت منزلة أبي عبيد الله وزير المهدي عنده، وظهرت عنده خيانته فضم إليه المهدي من يشرف عليه، وكان ممن ضم إليه إسماعيل بن علية، ثم أبعده وأقصاه وأخرجه من معسكره.

وفيها ولي القضاء عافية بن يزيد الأزدي وكان يحكم هو وابن علاثة في عسكر المهدي بالرصافة.

وفيها خرج رجل يقال له المقنع بخراسان في قرية من قرى مرو، وكان يقول بالتناسخ واتبعه على ضلالته خلق كثير، فجهز له المهدي عدة من أمرائه وأنفذ إليه جيوشاً كثيرة، منهم معاذ بن مسلم أمير خراسان، وكان من أمره وأمرهم ما سنذكره.

وحج بالناس في هذه السنة موسى الهادي بن أمير المؤمنين وهو ولي عهد أبيه كما قدمنا.

وفيها توفي

إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي.

و■ زائدة بن قدامة:

و■ سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أحد أئمة الإسلام وعُبّاده والمقتدى بهم أبو عبد الله الكوفي.

روى عن غير واحد من التابعين وروى عنه خلق من الأئمة وغيرهم.

قال شعبة وأبو عاصم وسفيان بن عيينة ويحيى بن معين وغير واحد: هو أمير المؤمنين في الحديث.

وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ هو أفضلهم.

وقال أيوب: ما رأيت كوفياً أفضله عليه.

وقال يونس بن عبيد: ما رأيت أفضل منه.

وقال عبد الله بن داود: ما رأيت أفقه من الثوري.

وقال شعبة: ساد الناس بالورع والعلم.

وقال سفيان بن عيينة: أصحاب المذاهب ثلاثة: ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه.

وقال الإمام أحمد: لا يتقدمه في قلبي أحد. ثم قال: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري.

وقال عبد الرزاق: سمعت الثوري يقول: ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانني. وقال الثوري: لأن أترك عشرة آلاف دينار يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس.

قال محمد بن سعد: أجمعوا أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة.

وكان عمره يوم مات أربعاً وستين سنة، ورآه بعضهم في المنام يطير في الجنة من نخلة إلى نخلة، وهو يقرأ ﴿الحمدُ للّه الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وأورثنا الأرض تبوّأ من الجنة حيث تشاء فنعم أجر العاملين﴾ [الزمر: ٧٤].

■ **أبو دلامة زيد بن الجون** الشاعر الماجن، أحد الظرفاء، أصله من الكوفة وأقام ببغداد وحظي عند المنصور لأنه كان يضحكه وينشده ويمدحه، حضر يوماً جنازة امرأة المنصور وابنة عمه حمادة بنت عيسى، وكان المنصور قد وَجدَ عليها، فلما شهد القبر نظر إليه المنصور ثم قال لأبي دلامة: ويحك يا أبا دلامة، ما أعددت لهذا؟ فقال: ابنة عم أمير المؤمنين. فضحك المنصور حتى استلقى، ثم قال: ويحك فضحتنا بين الناس.

ودخل يوماً على المهدي يهنئه بقدومه من سفره وأنشده:

إني حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقرى العراق وأنت ذو وفر
لتصلين على النبي محمد ... ولتملأن دراهماً حجري

فقال المهدي: أما الأول فنعم، وأما الثاني فلا. فقال: هما كلمتان فلا يفرّق بينهما. فملأ حجره دراهم، ثم قال له: قم! فقال: إذاً ينخرق قميصي فأفرغت في أكياسها ثم قام وأخذها.

وذكر عنه القاضي ابن خلكان أنه مرض ابنه فداواه طبيب فلما عوفي قال له: ليس عندنا ما نعطيك، ولكن ادّع على فلان اليهودي بمبلغ ما تستحقه حتى أشهد أنا وولدي عليه بالمبلغ المذكور. فادّعى عليه عند قاضي الكوفة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى - وقيل ابن شبرمة - فأنكر اليهودي فشهد عليه أبو دلامة وابنه، فلم يستطع القاضي أن يرد شهادتهما وخاف من طلب التزكية فأعطى المدعي المال من عنده وأطلق اليهودي. وجمع القاضي بين المصالح.

وتوفي أبو دلامة في هذه السنة، وقيل إنه أدرك خلافة الرشيد سنة سبعين فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائة

فيها خرج عبد السلام بن هاشم اليشكري بأرض قنسرين واتبعه خلق كثير، وقويت شوكته فقاتله جماعة من الأمراء، ووجه إليه المهدي جيوشاً وأنفق فيهم أموالا جزيلة فهزمهم مرات ثم آل الأمر به أن قتل بعد ذلك.

وفيها غزا الصائفة الحسن بن قحطبة في ثمانين ألفاً من المرتزقة سوى المطوّعة، فقهر الروم وحرق بلداناً كثيرة، وخرب أماكن وأسر خلقاً من الذراري.

وكذلك غزا يزيد بن أبي أسيد السلمي بلاد الروم من باب قاليقلا فغنم وسلم وسبى خلقا كثيراً.

وفيها خرجت طائفة بجرجان فلبسوا الحمرة لهذا يقال لهم المحمرة مع رجل يقال له عبد القهار، فغزاه عمرو بن العلاء من طبرستان فقهر عبد القهار وقتله وأصحابه.

وفيها أجرى المهدي الأرزاق في سائر الأقاليم والآفاق على المجنّمين والمحبسين، وهذه مثوبة عظيمة ومكرمة جسيمة.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن جعفر بن المنصور

وفيها توفي من الأعيان

إبراهيم بن أدهم: أحد مشاهير العباد ومن وأكابر الزهاد. كانت له همة عالية من العباد.

■ **داود الطائي**، أحد أئمة الصوفية وزهير بن محمد، ويزيد بن إبراهيم التستري.

فأما

■ **إبراهيم بن أدهم** بن منصور بن يزيد بن جابر، أبو إسحاق التميمي، ويقال العجلي، فهو أحد الزهّاد أصله من بلخ ثم سكن الشام ودخل دمشق، وروى الحديث عن أبيه والأعمش ومحمد بن زياد صاحب أبي هريرة وأبي إسحاق السبيعي وخلق.

وحدث عنه خلق منهم بقية والثوري وأبو إسحاق الفزاري ومحمد بن حِمْيَر، وحكى عنه الأوزاعي.

وروى ابن عساكر من طريق عبد الله بن عبد الرحمن الجزري عن الثوري عن إبراهيم بن أدهم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة. قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يصلي جالساً فقلت: يا رسول الله إنك تصلي جالساً فما أصابك؟ قال: «الجوع يا أبا هريرة». قال: فبكيت فقال: لا تبك فإن شدة يوم القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا.

ومن طريق بقية عن إبراهيم بن أدهم حدثني أبو إسحاق الهمداني عن عمارة بن غزية عن أبي هريرة. قال قال رسول الله ﷺ: «إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفا، وينجو العالم منها بعلمه».

قال النسائي: هو ثقة مأمون أحد الزهاد.

وذكر أبو نعيم وغيره أنه كان ابن ملك من ملوك خراسان، وكان قد حبب إليه الصيد، قال: فخرجت مرة فأثرت ثعلباً فهتف بي هاتف من قربوس سرجي: ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. قال: فوقفت وقلت: انتهيت انتهيت، جاءني نذير من رب العالمين. فرجعت إلى أهلي فخليت عن فرسي وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت منه جبة وكساء ثم ألقيت ثيابي إليه، ثم أقبلت إلى العراق فعملت بها أياماً فلم يصف لي بها الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال فأرشدني إلى بلاد الشام فأتيت طرسوس فعملت بها أياماً أنظر البساتين وأحصد الحصاد، وكان يقول: ما تهنيت بالعيش إلا في بلاد الشام. أفر بديني من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل، فمن يراني يقول: هو موسوس. ثم دخل البادية ودخل مكة وصحب الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك.

وما روي عنه أنه وجد رجلا في البادية فعلمه اسم الله الأعظم فكان يدعو به حتى رأى الخضر فقال له: إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم.

ذكره القشيري وابن عساكر عنه: بإسناد لا يصح. وفيه أنه قال له: إن إلياس علمك اسم الله الأعظم. وقال إبراهيم: أطب مطعمك ولا عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار.

وذكر أبو نعيم عنه أنه كان أكثر دعائه اللّهمّ انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: إن اللحم قد غلا فقال: أرخصوه. أي لا تشتروه.

وقال بعضهم: هتف به الهاتف قائلاً له من فوقه: يا إبراهيم ما هذا العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة. فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ في عمل الآخرة.

وروى ابن عساكر بإسناد فيه نظر عن ابتداء أمر إبراهيم بن أدهم قال: بينما أنا يوماً في منظرة لي ببلخ وإذا شيخ حسن قد استظل بظلها فأخذ بمجامع قلبي، فأمرت غلامي فطلبه فدخل فعرضت عليه الطعام فأبى فقلت: من أين أقبلت؟ قال: من وراء النهر. قلت: أين تريد؟ قال الحج. قلت في هذا الوقت؟ - وكان أول يوم من ذي الحجة أو ثانيه - فقال: يفعل الله ما يشاء. فقلت: الصحبة. قال: إن أحببت ذلك فموعدك الليل فلما كان الليل جاءني فقال: قم بسم الله فأخذت ثياب سفري وسرنا نمشي كأنما الأرض تجذب من تحتنا، ونحن نمر على البلدان وتقول: هذه فلانة هذه فلانة، فاذا كان الصباح فارقني ويقول: موعدك الليل، فإذا كان الليل جاءني. فانتهينا إلى مدينة النبي ﷺ ثم سرنا إلى مكة فجئناها ليلا فقضينا الحج مع الناس ثم رجعنا إلى الشام فزرنا بين المقدس وقال: إني عازم على المقام بالشام، ورجعت أنا إلى بلدي بلخ أسير سير الضعفاء حتى رجعت إليها ولم أسأله عن اسمه، فكان ذلك أول أمري.

وروي من وجه آخر فيه نظر.

وقال أبو حاتم الرازي عن أبي نعيم عن سفيان الثوري قال: كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة لكان رجلا فاضلا.

وقال عبد الله بن المبارك: كان إبراهيم رجلاً فاضلاً له سرائر وما رأيته يظهر تسبيحاً ولا شيئاً من علمه ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يديه.

وقال بشر بن الحارث الحافي: أربعة رفعهم الله بطيب المطعم، إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص ووهيب بن الورد، ويوسف بن أسباط.

وروى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال: إنما سمع إبراهيم بن أدهم من منصور حديثاً واحداً فأخذ به فساد أهل زمانه. قال: حدثنا منصور عن ربعي بن خراش قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال: إذا أردت أن يحبك الله فابغض الدنيا، وإذا أردت أن يحبك الناس فما كان عندك من فضولها فانبذه إليهم.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال: جلس إبراهيم بن أدهم إلى بعض العلماء فجعلوا يتذاكرون الحديث وإبراهيم ساكت، ثم قال: حدثنا منصور ثم سكت فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك! فقال: إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم. وقال رشدين بن سعد: مر إبراهيم بن أدهم بالأوزاعي وحوله حلقة فقال: لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم. فقام الأوزاعي وتركهم.

وقال إبراهيم بن بشار قيل لابن أدهم: لم تكتب الحديث؟ فقال: إني مشغول بثلاث، بالشكر على النعم، وبالاستغفار من الذنوب، وبالاستعداد للموت، ثم صاح وغشي عليه فسمعوا هاتفاً يقول: لا تدخلوا بيني وبين أوليائي.

وقال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم بن أدهم: قد رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وقوام الدين. فقال له إبراهيم: وأنت فليكن العبادة والعمل بالعلم من بالك وإلا هلكت.

وقال إبراهيم بن أدهم: ماذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن جهاد ولا عن صلة رحم، إنما يسأل هؤلاء المساكين؛ يعني: الأغنياء.

وقال شقيق بن إبراهيم: لقيت ابن أدهم بالشام وقد كنت رأيته بالعراق وبين يديه ثلاثون شاكرياً. فقلت له: تركت خراسان، وخرجت من نعمتك؟ فقال: قد تهنيت بالعيش ههنا، أفر بديني من شاهق إلى شاهق، فمن يراني يقول: هو موسوس أو حمال أو ملاح، ثم قال: بلغني أنه يؤتى بالفقير يوم القيامة فيوقف بين يدي الله فيقول له: يا عبدي ما لك لم تحج؟ فيقول: يا رب لم تعطني شيئاً أحج به، فيقول الله: صدق عبدي اذهبوا به إلى الجنة.

وعن إبراهيم بن أدهم وقال: أقمت بالشام أربعاً وعشرين سنة لم أقم بها لجهاد ولا رباط إنما نزلتها لأشبع من خبز الحلال.

وقال: الحزن حزنان حزن لك وحزن عليك، فحزنك على الآخرة وخيرها لك. وحزنك على الدنيا وزينتها عليك.

وقال: الزهد ثلاثة، واجب، ومستحب وزهد سلامة، فالزهد في الحرام واجب، والزهد عن الشهوات الحلال مستحب، والزهد عن الشبهات سلامة.

وكان هو وأصحابه يمنعون أنفسهم الحمام والماء البارد والحذاء ولا يجعلون في ملحهم أبزاراً.

وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب رمى بطيبها إلى أصحابه وأكل هو الخبز والزيتون.

وقال إبراهيم بن أدهم: قلة الحرص والطمع تورث الصدق والورع، وكثرة الحرص والطمع تورث الغم والجزع.

وقال له رجل: هذه جبة أحب أن تقبلها مني. فقال: إن كنت غنياً قبلتها، وإن كنت فقيراً لم أقبلها. قال: أنا غني. قال: كم عندك؟ قال ألفان قال: تود أن تكون أربعة آلاف؟ قال: نعم، قال: فأنت فقير، لا أقبلها.

وقال له رجل: لو تزوجت؟ فقال: لو أمكنني أن أطلق نفسي لطلقتها.

ومكث بمكة خمسة عشر يوماً لا شيء معه ولم يكن له زاد سوى الرمل بالماء، وصلى بوضوء واحد خمس عشرة صلاة.

وأكل يوماً على حافة الشريعة كسيرات مبلولة وضعها بين يديه أبو يوسف الغسولي، ثم قام فشرب من الشريعة ثم جاء واستلقى على قفاه وقال: يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش. فقال له أبو يوسف: طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم. فتبسم إبراهيم وقال: من أين لك هذا الكلام!

وبينما هو يوما بالمصيصة في جماعة من أصحابه إذ جاءه راكب فقال: أيكم إبراهيم بن أدهم؟ فأرشد إليه، فقال: يا سيدي أنا غلامك، وإن أباك قد مات وترك مالا هو عند القاضي، وقد جئتك بعشرة آلاف درهم لتنفقها عليك إلى بلخ، وفرس وبغلة. فسكت إبراهيم طويلا ثم رفع رأسه فقال: إن كنت صادقاً فالدراهم والفرس والبغلة لك، ولا تخبر به أحداً. ويقال: إنه ذهب بعد ذلك إلى بلخ وأخذ المال من الحاكم وجعله كله في سبيل الله.

وكان معه بعض أصحابه فمكثوا شهرين لم يحصل لهم شيء يأكلون، فقال له إبراهيم: أدخل إلى هذه الغيضة - وكان ذلك في يوم ثلاث - قال: فدخلت فوجدت شجرة عليها خوخ كثير فملأت منه جرابي ثم خرجت، فقال: ما معك؟ قلت: خوخ. فقال: يا ضعيف اليقين! لو صبرت لوجدت رطباً جنياً، كما رزقت مريم بنت عمران.

وشكا إليه بعض أصحابه الجوع فصلى ركعتين فإذا حوله دنانير كثيرة

فقال لصاحبه: خذ منها ديناراً، فأخذه واشترى لهم به طعاماً.

وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل ثم يذهب فيشتري الخبز الأبيض والزبد وتارة الشواء والجوذبات والخبيص فيطعمه أصحابه وهو صائم، فإذا أفطر يأكل من رديء الطعام ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبر به الناس تأليفاً لهم وتحبباً وتوداداً إليهم.

وأضاف الأوزاعي إبراهيم بن أدهم فقصر إبراهيم في الأكل فقال: ما لك قصرت؟ فقال: لأنك قصرت في الطعام. ثم عمل إبراهيم طعاماً كثيراً ودعا الأوزاعي فقال الأوزاعي: أما تخاف أن يكون سرفاً؟ فقال: لا! إنما السرف ما كان في معصية الله، فأما ما أنفقه الرجل على إخوانه فهو من الدين.

وذكروا أنه حصد مرة بعشرين ديناراً، فجلس مرة عند حجام هو وصاحب له ليحلق رؤسهم ويحجمهم، فكأنه تبرم بهم واشتغل عنهم بغيرهم، فتأذى صاحبه من ذلك ثم أقبل عليهم الحجام فقال: ماذا تريدون؟ قال إبراهيم: أريد أن تحلق رأسي وتحجمني، ففعل ذلك فأعطاه إبراهيم تلك العشرين ديناراً، وقال: أردت أن لا تحقر بعدها فقيراً أبداً.

وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم أصحابه بصوم ولا صلاة ولكن بالصدق والسخاء.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: فروا من الناس كفراركم من الأسد الضاري، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة.

وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يخدمه إبراهيم، وكان إذا حضر في مجلس فكأنما على رؤسهم الطير هيبة له وإجلالا.

وربما تسامر هو وسفيان الثوري في الليلة التامّة إلى الصباح، وكان الثوري يتحرز معه في الكلام.

ورأى رجلا فقيل له: هذا قاتل خالك، فذهب إليه وسلّم عليه وأهدى له وقال: بلغني أن الرجل لا يبلغ درجة المتقين حتى يأمنه عدوه.

وقال له رجل: طوبى لك أفنيت عمرك في العبادة وتركت الدنيا والزوجات. فقال: ألك عيال؟ قال: نعم. فقال: لروعة الرجل بعياله ـ يعني في بعض الأحيان من الفاقة ـ أفضل من عبادة كذا وكذا سنة.

ورآه الأوزاعي ببيروت وعلى عنقه حزمة حطب فقال: يا أبا إسحاق إن إخوانك يكفونك هذا. فقال له: اسكت يا أبا عمرو! فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة.

وخرج إبراهيم ابن أدهم من بيت المقدس فمر بطبرية فأخذته المسلحة في الطريق فقالوا: أنت عبد؟ قال: نعم. قالوا: آبق؟ قال: نعم فسجنوه. فبلغ أهل بيت المقدس خبره فجاؤوا برمتهم إلى نائب طبرية فقالوا: علام حُبستْ؟ إبراهيم بن أدهم؟ قال: ما سجنته. قالوا: بلى هو في سجنك. فاستحضره فقال: علام سجنت. فقال: سل المسلحة، قالوا: أنت عبد؟ قلت: نعم وأنا عبد الله. قالوا: وأنت آبق؟ قلت نعم وأنا عبد آبق من ذنوبي، فخلى سبيله.

وذكروا أنه مر مع رفقة فإذا الأسد على الطريق فتقدم إليه إبراهيم بن أدهم فقال له: يا قسورة إن كنت أمرت فينا بشيء فامض لما أمرت به وإلا فعودك على بدئك. قالوا: فولى السبع ذاهبا يضرب بذنبه، ثم أقبل علينا إبراهيم فقال: قولوا: اللّهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، ولا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله، يا الله. قال خلف بن تميم فما زلت أقولها منذ سمعتها فما عرض لي لص ولا غيره.

وقد رُوي لهذا شواهد من وجوه أخر.

وروي أنه كان يصلي ذات ليلة فجاءه أسد ثلاثة فتقدم إليه أحدهم فشم ثيابه ثم ذهب فربض قريباً منه، وجاء الثاني ففعل كذلك، وجاء الثالث ففعل مثل ذلك، واستمر إبراهيم في صلاته، فلما كان وقت السحر قال لهم: إن كنتم أمرتم بشيء فهلمّ، وإلا فانصرفوا فانصرفوا.

وصعد مرة جبلا بمكة ومعه جماعة فقال لهم: لو أن ولياً من أولياء الله قال لجبل زل لزال، فتحرك الجبل تحته فوكزه برجله وقال: اسكن فإنما ضربتك مثلا لأصحابي، وفي رواية: وكان الجبل أبا قبيس.

وركب مرة سفينة فأخذهم الموج من كل مكان فلف إبراهيم رأسه بكسائه واضطجع وعج أصحاب السفينة بالضجيج، وأيقظوه وقالوا: ألا ترى ما نحن فيه من الشدة؟ فقال: ليس هذه بشدّة، إنما الشدة الحاجة إلى الناس. ثم قال: اللّهم أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، فصار البحر كأنه قدح زيت.

وكان قد طالبه صاحب السفينة بأجرة حمله دينارين وألح عليه، فقال له: اذهب معي حتى أعطيك دينارك، فخرج معه مرة إلى جزيرة في البحر فتوضأ إبراهيم وصلى ركعتين ودعا وإذا ما حوله قد ملئ دنانير، فقال له: خذ حقك ولا تزد ولا تذكر هذا لأحد.

وعن حذيفة المرعشي قال: أويت أنا وإبراهيم إلى مسجد خراب بالكوفة، وكان قد مضى علينا أيام لم نأكل فيها شيئاً، فقال لي: كأنك جائع، قلت: نعم. فأخذ رقعة فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال، المشار إليه بكل معنى.

أنا حامد شاكر أنا ذاكر أنا ... أنا جائع أنا نائع أنا عاري
هي ستةٌ وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك وهج نار خضتها ... فاجز عبيدك من دخول النارِ

ثم قال لي: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله سبحانه وتعالى، وادفع هذه الرقعة لأول رجل تلقاه، فخرجت فإذا رجل على بغلة فدفعتها إليه فلما قرأها بكى ودفع إليّ ستمائة دينار وانصرفت، فسألت رجلا: من هذا الذي على البغلة؟ فقال: هذا رجل نصراني. فجئت إبراهيم فأخبرته فقال: الآن يجيء فيسلم. فما كان غير قريب حتى جاء فأكبّ على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم.

وكان إبراهيم يقول: دارنا أمامنا وحياتنا بعد وفاتنا. فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

وكان يقول: مثّل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك وانظر كيف تكون، ومثّل له هول المطّلع ومساءلة منكر ونكير وانظر كيف تكون. ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب، وانظر كيف تكون. ثم صرخ صرخة خر مغشياً عليه.

ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك فقال له: لا تطمع فيما لا يكون، ولا تيأس مما يكون. فقيل له: كيف هذا يا أبا إسحاق؟ فقال: لا تطمع في البقاء والموت يطلبك، فكيف يضحك من يموت ولا يدري أين يذهب إلى جنة أم إلى نار؟ ولا تنس ما يكون الموت يأتيك صباحاً أو مساء. ثم قال: أوّه أوّه! ثم خر مغشياً عليه.

وكان يقول: ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا ولا نسأل كشفه من ربنا. ثم يقول: ثكلت عبداً أمه أحب الدنيا ونسي ما في خزائن مولاه.

وقال: إذا كنت بالليل نائماً وبالنهار هائماً وفي المعاصي دائماً فكيف

يرضى من كان هو بأمورك قائماً.

ورآه بعض أصحابه بمسجد بيروت وهو يبكي ويضرب بيديه على رأسه، فقال: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت يوماً تنقلب فيه القلوب والأبصار.

وقال: إنك كلما أمعنت النظر في مرآة التوبة بان لك قبيح شين المعصية.

وكتب إلى الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

وسأله بعض الولاة: من أين معيشتك؟ فأنشأ يقول:

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وكان كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات:

لما توعد الدنيا به من شرورها ... يكون بكاء الطفل ساعة يوضع

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأروح مما كان فيه وأوسع

إذا أبصر الدنيا استهل كأنما ... يرى ما سيلقى من أذاها ويسمع

وكان يتمثل أيضاً:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... ويتبعها الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ للنفس عصيانها

وما أهلك الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

وباعوا النفوس فلم يربحوا ... ولم يغل ببالبيع أثمانها

لقد وَقَع القوم في جيفة ... تبين لذي اللب أنتانها

وقال إبراهيم بن أدهم: إنما يتم الورع بتسوية كل الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل، فكر في ذنبك وتب إلى ربك ينبت الورع في قلبك، واقطع الطمع إلا من ربك.

وقال أيضاً: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يغضبه حبيبك، ذمّ مولانا الدنيا فمدحناها، وأبغضها فأحببناها، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا في طلبها، ووعدكم خراب الدنيا فحصنتموها، ونهاكم عن طلبها فطلبتموها، وأنذركم الكنوز فكنزتموها، دعتكم إلى هذه الغرارة دواعيها، فأجبتم مسرعين مناديها، خدعتكم بغرورها، ومتكم فانقدتم خاضعين لأمانيها تتمرغون في زهراتها، وتتنعمون في لذاتها وتتقلبون في شهواتها، وتتلوثون بتبعاتها، تنبشون بمخالف الحرص عن خزائنها، وتحفرون بمعاول الطمع في معادنها.

وشكى رجل إلى إبراهيم بن أدهم كثرة العيال فقال: ابعث إلي منهم من لا رزقه على الله فسكت الرجل،

وقال إبراهيم بن أدهم: مررت في بعض جبال الشام فإذا بحجر مكتوب عليه بالعربية:

كل حي وإن بقي ... فمن العمر يستقي

فاعمل اليوم واجتهد ... واحذر الموت يا شقي

قال: فبينا أنا واقف أقرأ وأبكي، وإذا برجل أشعر أغبر عليه مدرعة من شعر فسلم وقال: مم تبكي؟ فقلت: من هذا. فأخذ بيدي ومضى غير بعيد فإذا صخرة عظيمة مثل المحراب فقال: اقرأ وابكِ ولا تقصر. وقام هو يصلّي فإذا في أعلاه نقش عربي بيّن:

لا تبتغي جاهاً وجاهك ساقط ... عند المليك وكن لجاهك مصلحا

وفي الجانب الآخر نقش بيّن لعربي:

من لم يثق بالقضاء والقدر ... لاقى هموماً كثيرة الضرر

وفي الجانب الأيسر منه نقش بين عربي:

ما أزين التقى وما أقبح الخنا ... وكل مأخوذ بما جنى وعند الله الجزا

وفي أسفل المحراب فوق الأرض بذراع أو أكثر:

إنما الفوز والغنى في تقى الله والعمل

قال: فلما فرغت من القراءة التفت فإذا ليس الرجل هناك، فما أدري انصرف أم حجب عني.

وقال إبراهيم بن أدهم: أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان، ومن وفى العمل وفي له الأجر، ومن لم يعمل رحل من الدنيا إلى الآخرة بلا قليل ولا كثير.

وقال أيضاً: كل سلطان لا يكون عادلا فهو واللص بمنزلة واحدة، وكل عالم لا يكون ورعاً فهو والذئب بمنزلة واحدة، وكل من خدم سوى الله فهو والكلب بمنزلة واحدة.

وقال: ما ينبغي لمن ذل لله في طاعته أن يذل لغير الله في بحاجته، فكيف بمن هو يتقلب في نعم الله وكفايته.

وقال أيضاً: أعرينا في كلامنا فلم نلحن، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب.

وقال: كنا إذا رأينا الشاب يتكلم في المجلس أيسنا من خيره.

وقال إبراهيم لأصحابه: جانبوا الناس ولا تنقطعوا عن جمعة ولا جماعة.

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب: أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسين بن محمد بن رامين الأسترابادي قال: أخبرنا عبد الله بن محمد الحميدي الشيرازي أنبأ القاضي أحمد بن محمود بن خرزاد الأهوازي حدثني علي بن محمد القصري حدثني أحمد بن محمد الحلبي سمعت سريا السقطي يقول: سمعت بشر بن الحارث الحافي يقول: قال إبراهيم بن أدهم: وقفت على راهب في جبل لبنان فأشرف عليّ فقلت له: عظني فأنشأ يقول:

خذ عن الناس جانباً ... كي يعدُّوك راهبا

إنّ دهراً أظلني ... قد أراني العجائبا

قلب الناس كيف شئـ ... ـت تجدهم عقاربا

قال بشر: فقلت لإبراهيم: هذه موعظة الراهب لك، فعظني أنت. فأنشأ يقول:

توحش من الإخوان لا تبغ مؤنساً ... ولا تتخذ خلا ولا تبغ صاحبا

وكن سامري الفعل من نسل آدم ... وكن أوحدياً ما قدرت مجانبا

فقد فسد الإخوان والحب والإخا ... فلست ترى إلا مذوقاً وكاذبا

فقلت ولولا أن يقال مدهده ... وتنكر حالاتي لقد صرت راهبا

قال سري: فقلت لبشر: هذه موعظة إبراهيم لك فعظني أنت، فقال: عليك بلزوم بيتك. فقلت: بلغني عن الحسن أنه قال: لولا الليل وملاقاة الإخوان ما كنت أبالي متى مت. فأنشأ بشر يقول:

يا من يسرُّ برؤية الإخوان ... مهلا أمنت مكايد الشيطان

خلت القلوب من المعاد وذكره ... وتشاغلوا بالحرص والخسران

صارت مجالس من ترى وحديثهم ... في هتك مستور وخلق قرآني

قال الحلبي: فقلت لسريّ: هذه موعظة بشر لك فعظني أنت. فقال: عليك بالإهمال فقلت إني أحب ذاك، فأنشأ يقول:

يا من يروم بزعمه إهمالا ... إن كان حقاً فاستعدّ خصالا
ترك المجالس والتذاكر يا أخي ... واجعل خروجك للصلاة خيالا
بل كن بها حيّاً كأنك ميتٌ ... لا يرتجى منه القريب وصالا

قال علي بن محمد القصري: قلت للحلبي: هذه موعظة سري لك فعظني أنت. فقال: يا أخي أحب الأعمال إلى الله ما أصدر إليه من قلب زاهد في الدنيا، فازهد في الدنيا يحبك الله. ثم أنشأ يقول:

أنت في دار شتات ... فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيوم ... صمته عن شهواتك
واجعل الفطر إذا ما ... صمته يوم وفاتك

قال ابن خرزاد: فقلت لعلي: هذه موعظة الحلبي لك فعظني أنت. فقال لي: احفظ وقتك واسخ بنفسك لله عز وجل، وانزع قيمة الأشياء من قلبك يصفو لك بذلك سرك ويزكو به ذكرك. ثم أنشدني:

حياتك أنفاسٌ تعدُّ فكلما ... مضى نفس منها انتقصت به جزءاً
فتصبح في نقصٍ وتمسي بمثله ... ومالك معقول تحسُّ به رزءا
يميتك ما يحييك في كل ساعة ... ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

قال أبو محمد قلت لأحمد: هذه موعظة علي لك فعظني. فقال: يا أخي عليك بلزوم الطاعة وإياك أن تبرح من باب القناعة، وأصلح مثواك، ولا تؤثر هواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، واشتغل بما يعنيك بترك ما لا يعنيك. ثم أنشدني:

ندمت على ما كان مني ندامةً ... ومن يتبع ما تشتهي النفس يندم
فخافوا لكيما تأمنوا بعد موتكم ... ستلقون رباً عادلا ليس يظلم
فليس لمغرور بدنياه زاجرٌ ... سيندم إن زلت به النعلُ فاعلم

قال القاضي أبو محمد بن رامين: فقلت لأبي محمد: هذه موعظة أحمد لك فعظني أنت. فقال: اعلم رحمك الله أن الله عز وجل ينزل العبيد حيث نزلت قلوبهم بهمومها، فانظر أين أنزلت قلبك، واعلم أن تقرب القلوب على حسب ما قُرب إليها، وتقرب منه على حسب ما قرب إليها، فانظر من القريب من قلبك. وأنشدني:

قلوب رجال في الحجاب نزول ... وأرواحهم فيما هناك حلول
بروح نعيم الأنس في عز قربه ... بإفراد توحيد المليك تحول
لهم بفناء القرب من محض بره ... عوائد بذلٍ خطبهن جليل

قال الحافظ أبو بكر الخطيب: فقلت للقاضي أبي محمد بن رامين: هذه موعظة الحميدي لك فعظني أنت. فقال: اتق الله وثق به ولا تتهمه فإن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك وأنشدني:

اتخذ الله صاحبا ... وذر الناس جانبا
جرب الناس كيف شئـ ... ـت تجدهم عقاربا

قال أبو الفرج غيث الصوري: فقلت للخطيب البغدادي: هذه موعظة ابن رامين لك فعظني أنت. فقال: احذر نفسك التي هي أعدى أعدائك أن تتابعها على هواها، فذاك أعضل دائك، واستشعر الخوف من الله تعالى بخلافها، وكرر على قلبك ذكر نعوتها وأوصافها، فإنها الأمارة بالسوء والفحشاء، والموردة من أطاعها موارد العطب والبلاء، واعمد في جميع أمورك إلى تحري الصدق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. وقد ضمن الله لمن خالف هواه أن يجعل دار الخلد قراره ومأواه ثم أنشد لنفسه:

إن كنت تبغي الرشاد محضا ... في أمر دنياك والمعاد
فخالف النفس في هواها ... إنّ الهوى جامع الفساد

قال الحافظ ابن عساكر: المحفوظ أن إبراهيم بن أدهم توفي سنة ثنتين وستين ومائة.

وقال غيره: سنة إحدى وقيل: سنة ثلاث. والصحيح ما قاله ابن عساكر كما ذكرنا و لله الحمد.

وذكروا أنه توفي في جزيرة من جزائر بحر الروم وهو مرابط، وأنه ذهب إلى الخلاء ليلة وفاته نحواً من عشرين مرة، وكل مرة يجدد الوضوء بعدها، فلما كانت غشية الموت قال: أوتروا لي قوسي، وقبض على التوس ومات وهو كذلك رحمه الله وأكرم مثواه.

وقد قال أبو سعيد بن الأعرابي: حدثنا محمد بن علي بن زيد الصائغ قال سمعت الشافعي يقول سمعت السريّ بن حيان يقول وكان سفيان معجباً به

أجاعتهم الدنيا فجاعوا ولم يزل ... كذلك ذو التقوى عن العيش ملجما
أخو طيبء داود منهم ومعمر ... ومنهم وهيب والغريب ابن أدهما
وفي ابن سعيد قدوة البر والنهى ... وفي الوارث الفاروق صدقا مقدّما
وحسبك منهم بالفضيل مع ابنه ... ويوسف إن لم يأل أن يتقدما
أولئك أصحابي وأهل مودتي ... فصلى عليهم ذو الجلال وسلما
فما ضر ذا التقوى نصال أسنةٍ ... وما زال ذو التقوى أعز وأكرما
وما زالت التقوى تريك على الفتى ... إذا محّض التقوى من العز مبسما

وروى البخاري في كتاب الأدب [١٢٥٣] عن إبراهيم بن أدهم وأخرج الترمذي في جامعه حديثاً معلقاً [٩٤] في المسح على الخفين. والله سبحانه أعلم.

وأما ■ داود الطائي فهو:

■ داود بن نصير الطائي أبو سليمان الكوفي الفقيه الزاهد، أخذ الفقه عن أبي حنيفة.

وقال سفيان بن عيينة: ثم ترك طلب الفقه وأقبل على العبادة ودفن كتبه.

قال عبد الله بن المبارك: وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي.

وقال يحيى بن معين: كان ثقة. وقال الخطيب البغدادي. ترك الفقه وأقبل على العبادة حتى مات وقد قدم على المهدي بغداد ثم عاد إلى الكوفة.

مات في سنة ستين ومائة، وقيل: في سنة خمس وستين ومائة. وقد ذكر شيخنا الذهبي في تاريخه أنه توفي في هذه السنة - أعني سنة ثنتين وستين ومائة فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائة

فيها حصر المقنع الزنديق الذي كان قد نبغ بخراسان وقال بالتناسخ، واتبعه على جهالته وضلالته خلق من الطغام وسفهاء الأنام، والسفلة من العوام، ومنعوه من الجنود في ذلك العام فلما كان في هذا العام لجأ إلى قلعة كش فحاصره سعيد الحرشي فألح عليه في الحصار، فلما أحس بالغلبة تحسى سماً وسمَّ نساءه فماتوا جميعاً، عليهم لعائن الله، ودخل الجيش الإسلامي قلعته فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى المهدي، وكان المهدي حين جاءه رأس المقنع بحلب.

قال ابن خلكان: كان اسم المقنع عطاء، وقيل حكيم، والأول أشهر، وكان أولا قصاراً ثم ادعى الربوبية، مع أنه كان أعور قبيح المنظر، وكان يتخذ له وجهاً من ذهب، وتابعه على جهالته خلق كثير، وكان يرى الناس قمراً يرى من مسيرة شهرين ثم يغيب، فعظم اعتقادهم فيه ومنعوه بالسلاح، وكان يزعم لعنه الله وتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً أن الله ظهر في صورة آدم، ولهذا سجدت له الملائكة، ثم في نوح، ثم في الأنبياء واحداً واحداً، ثم تحول إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إليه. ولما حاصره المسلمون في قلعته التي كان جددها بناحية كش مما وراء النهر ويقال لها سنام، سقى نساءه وأهله سماً وتحسى هو أيضاً منه فماتوا واستحوذ المسلمون على حواصله وأمواله.

وفيها جهز المهدي البعوث من خراسان وغيرها من البلاد لغزو الروم، وأمّر على الجميع ولده هارون الرشيد، وخرج من بغداد مشيعاً له، فسار معه مراحل واستخلف على بغداد ولده موسى الهادي، وكان في هذا الجيش الحسن بن قحطبة والربيع الحاجب وخالد بن برمك - وهو مثل الوزير للرشيد ولي العهد - ويحيى بن خالد - وهو كاتبه وإليه النفقات - وما زال المهدي مع ولده مشيعاً له حتى بلغ درب الروم عند جيحان، وارتاد هناك المدينة المسماة بالمهدية في بلاد الروم، ثم رجع إلى الشام وزار بيت المقدس، فسار الرشيد إلى بلاد الروم في جحافل عظيمة، وفتح الله عليهم فتوحات كثيرة، وغنموا أموالا جزيلة جداً، وكان لخالد بن برمك في ذلك أثر جميل لم يكن لغيره، وبعثوا بالبشارة مع سليمان بن برمك إلى المهدي فأكرمه المهدي وأجزل عطاءه.

وفيها عزل المهدي عمه عبد الصمد بن علي عن الجزيرة، وولى عليها زفر بن عاصم الهلالي، ثم عزله وولى عبد الله بن صالح بن علي.

وفيها ولى المهدي ولده هارون الرشيد بلاد المغرب وأذربيجان وأرمينية، وجعل على رسائله يحيى بن خالد بن برمك، وولى وعزل جماعة من النواب.

وحج بالناس فيها علي بن المهدي.

وفيها توفي

■ إبراهيم بن طهمان.

■ حريز بن عثمان الرحبي الحمصي

■ موسى بن عُلَيّ اللخمي المصري.

■ شعيب بن أبي حمزة.

■ عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح والمنصور، وإليه ينسب قصر عيسى، ونهر عيسى ببغداد قال يحيى بن معين: كان له مذهب جميل، وكان معتزلا للسلطان. توفي في هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة رحمه الله.

■ همام بن يحيى.

■ يحيى بن أبي أيوب المصري.

■ عبيدة بنت أبي كلاب العابدة، بكت من خشية الله أربعين سنة حتى عميت. وكانت تقول: أشتهي الموت فإني أخشى أن أجني على نفسي جناية تكون سبب هلاكي يوم القيامة.

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائة

فيها غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم، فأقبل إليه ميخائيل البطريق في نحو من تسعين ألفاً، فهم طاز اذ الأرمني البطريق ففشل عنه عبد الكبير ومنع المسلمين من القتال وانصرف - فأراد المهدي ضرب عنقه فكلم فيه فحبسه في المطبق.

وفي يوم الأربعاء في أواخر ذي القعدة أسس المهدي قصراً من لبن بعيسا باذ، ثم عزم على الذهاب إلى الحج فقلّ الماء أصابه حمى فرجع من أثناء الطريق، فعطش الناس في الرجعة حتى كاد بعضهم يهلك، فغضب المهدي على يقطين صاحب المصانع، وبعث من حيث رجع صالح بن أبي جعفر ليحج بالناس فحج بهم عامئذ.

وفيها توفي

■ حماد الراوية في قول، وكان من أعلم الناس بأيام الناس، والشعر والعربية والأدب، وقد كانت بنو أمية تعظمه وتُسني جائزته، وقد دخل على المنصور والمهدي، وشيبان بن عبد الرحمن النحوي، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، ومبارك بن فضالة صاحب الحسن البصري.

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائة

فيها جهز المهدي ولده هارون الرشيد لغزو الصائفة، وأنفذ معه من الجيوش خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وأربعة وتسعين رجلا، وكان معه من النفقة مائة ألف دينار، وثلاثة وتسعون ألف دينار، وأربعمائة وخمسون ديناراً، ومن الفضة أحدّ وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف، وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم.

قاله ابن جرير [تاريخه:٨/١٥٢، ١٥٣] .

فبلغ هارون بجنوده خليج البحر الذي على القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ أغسطة امرأة ألبون، ومعها ابنها في حجرها من الملك الذي توفي عنها، فطلبت الصلح من الرشيد على أن تدفع له سبعين ألف دينار في كل سنة، فقبل ذلك منها، وذلك بعد ما قتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسين ألفاً وأسر من الذراري خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً، وقتل من الأسرى ألفي أسير صبراً، وغنم من الدواب بأدواتها عشرين ألف فرس، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس، وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم وعشرون سيفاً بدرهم. فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة:

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذل سُورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وحج بالناس في هذه السنة صالح بن أبي جعفر المنصور.

وفيها توفي:

■ سليمان بن المغيرة.

و■ عبد الله بن العلاء بن زَبْر.

و■ عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان.

و■ وهيب بن خالد.

ثم دخلت سنة ست وستين ومائة

في المحرم منها قدم الرشيد من بلاد الروم فدخل بغداد في أبهة عظيمة ومعه الروم يحملون الجزية من الذهب وغيره.

وفيها أخذ المهدي البيعة لولده هارون من بعد موسى الهادي، ولقب هارون بالرشيد.

وفيها سخط المهدي على يعقوب بن داود وكان قد حظي عنده حتى استوزره وارتفعت منزلته في الوزارة حتى فوض إليه جميع أمر الخلافة، وفي ذلك يقول بشار بن برد:

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا خليفة الله بين الدُفّ والعود

فلم تزل السعاة والوشاة بينه وبين الخليفة حتى أخرجوه عليه، كلما سعوا به إليه دخل إليه فأصلح أمره عنده، حتى وقع من أمره ما سأذكره، وهو أنه دخل ذات يوم على المهدي في مجلس عظيم قد فرش بأنواع الفرش وألوان الحرير، وحول ذلك المكان أشجار مزهرة بأنواع الأزاهير، فقال: يا يعقوب كيف رأيت مجلسنا هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما رأيت شيئا أحسن منه. فقال: هو لك بما فيه، وهذه الجارية ليتم بها سرورك، ولي إليك حاجة أحب أن تقضيها لي. قال: وما هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: حتى تقول نعم. فقلت يأمر أمير المؤمنين وعليّ السمع والطاعة: فقال: آللّه؟ فقلت: آللّه. قال: وحياة رأسي قلت: وحياة رأسك. فقال: ضع يدك على رأسي وقل ذلك، ففعلت. فقال: إن ههنا رجلا من العلويين أحب أن تكفينيه. والظاهر أنه الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب. فقلت: نعم، فقال: وعجل علي، ثم أمر بتحويل ما في ذلك المجلس من الفرش إلى منزلي وأمر لي بمائة ألف درهم وتلك الجارية، فما فرحت بشيء فرحي بها، فلما صارت بمنزلي حجبتها في جانب الدار في الخدر، فأمرت بذلك العلوي فجيء به فجلس إليّ فتكلم، فما رأيت أعقل منه ولا أفهم. ثم قال لي: يا يعقوب تلقى الله بدمي وأنا رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا والله ولكن اذهب حيث شئت. فقال: إني أختار بلاد كذا وكذا. فقلت: اذهب كيف شئت، ولا يظهرن عليك المهدي فتهلك أهلك فخرج من عندي وجهزت معه رجلين يسفرانه ويوصلانه بعض البلاد، ولم أشعر بأن الجارية قد أحاطت علماً بما جرى، فبعثت بخادمها إلى المهدي فأعلمه بذلك، وقالت له: هذا الذي قد آثرته بي، قد فعل كذا وكذا. فغضب المهدي، وبعث المهدي إلى تلك الطريق فردوا ذلك العلوي فحبسه عنده في بيت من دار الخلافة، وأرسل إليّ في اليوم فذهبت وأنا لا أستشعر أمر العلوي، فلما دخلت عليه قال: ما فعل العلوي؟ قلت: مات. قال: آللّه! قلت: آللّه. قال: فضع يدك على رأسي واحلف بحياته، ففعلت. فقال: يا غلام أخرج ما في هذا البيت، فخرج العلوي فأسقط في يدي، فقال المهدي: دمك لي حلال، ثم أمر به فألقى في بئر في المطبق. قال يعقوب: فكنت في مكان لا أسمع فيه ولا أبصر، فذهب بصري وطال شعري حتى صرت مثل البهائم، ثم مضت عليّ مدد متطاولة، فبينما أنا ذات يوم إذ دعيت فخرجت من البئر التي في ذلك المطبق فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين. فسلمت وأنا أظنه المهدي، فلما ذكرت المهدي في كلامي قال: رحم الله المهدي. فقلت: الهادي؟ فقال: رحم الله الهادي. فقلت: الرشيد؟ قال نعم. فقلت: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما حل بي من الضعف والعلة، فإن رأيت أن تطلقني. فقال: أين تريد تذهب؟ قلت: مكة. فقال: اذهب راشداً، فسار إلى مكة فما لبث بها إلا قليلا حتى مات رحمه الله تعالى.

وقد كان يعقوب هذا يعظ المهدي في تعاطيه شرب النبيذ بين يديه، وكثرة سماع الغناء ويلومه على ذلك ويقول: ما على هذا استوزرتني، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الحرام يشرب عندك النبيذ ويغني بين يديك؟ فيقول: فقد سمع عبد الله بن جعفر، فقال: إن ذلك لم يكن من حسناته، ولو كان هذا قربة لكان كلما داوم عليه العبد كان أفضل.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبل على صهباء طيبة النشر

وفيها ذهب المهدي إلى قصره المسمى بقصر السلام بعيسا باذ - بني له بالآجر بعد القصر الأول الذي كان باللبن - فسكنه وضرب هناك الدراهم والدنانير.

وفيها أمر المهدي بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يفعل هذا قبل هذه السنة.

وفيها خرج موسى الهادي إلى جرجان. وقد جعل على القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة.

وفيها حج بالناس إبراهيم بن يحيى بن محمد عامل الكوفة.

ولم يكن في هذه السنة صائفة للهدنة التي كانت بين الرشيد وبين الروم.

وفيها توفي:

■ صدقة بن عبد الله السمين.

و■ أبو الأشهب العطاردي.

■ أبو بكر النهشلي.

و■ عفير بن معدان.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائة

فيها وجه المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان في جيش كثيف لم ير مثله، وجعل على رسائله أبان بن صدقة.

وفيها توفي عيسى بن موسى الذي كان وليّ العهد من بعد المهدي فخلع وكانت وفاته بالكوفة فأشهد نائبها روح بن حاتم على وفاته القاضي وجماعة من الأعيان، ثم دفن. وكان قد امتنع من الصلاة عليه فبلغ ذلك المهدي فكتب إليه يعنفه أشد التعنيف، وأمر بمحاسبته على عمله.

وفيها عزل المهدي أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله عن ديوان الرسائل

وولاه الربيع بن يونس الحاجب، فاستخلف فيه سعيد بن واقد وكان أبو عبيد الله يدخل على مرتبته.

وفيها وقع وباء شديد وسعال كثير ببغداد والبصرة، وأظلمت الدنيا فكانت كالليل حتى تعالى النهار، وكان ذلك لليال بقين من ذي الحجة من هذه السنة.

وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة في سائر الآفاق فاستحضرهم وقتلهم صبراً بين يديه، وكان المتولي أمر الزنادقة عمر الكلواذي.

وفيها أمر المهدي بزيادة كبيرة في المسجد الحرام، فدخل في ذلك دور كثيرة، وولى ذلك يقطين بن موسى الموكل بأمر الحرمين، فلم يزل في عمارة ذلك حتى مات المهدي كما سيأتي. ولم يكن للناس صائفة للهدنة.

وحج بالناس نائب المدينة إبراهيم بن محمد. وتوفي بعد فراغه من الحج بأيام، وولى مكانه إسحاق بن عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ بشار بن برد أبو معاذ الشاعر مولى عقيل، ولد أعمى، وقال الشعر وهو دون عشر سنين وله التشبيهات التي لم يهتد إليها البصراء. وقد أثنى عليه الأصمعي والجاحظ وأبو تمام وأبو عبيدة، وقال: له ثلاثة عشر ألف بيت من الشعر. فلما بلغ المهدي أنه هجاه وشهد عليه قوم أنه زنديق أمر به فضرب حتى مات عن بضع وتسعين سنة.

وقد ذكره القاضي ابن خلكان في الوفيات [١/٢٧١-٢٧٣]، فقال: بشار بن برد بن يرجوخ العقيلي مولاهم، وقد نسبه صاحب الأغاني [٣/١٣٥، ١٣٦] فأطال نسبه، وهو بصري قدم بغداد، وأصله من طخارستان، وكان ضخما عظيم الخلق، وشعره في أول طبقات المولدين، ومن شعره البيت المشهور:

هل تعلمين وراء الحب منزلةً ... تدني إليك فإن الحب أقصاني

وقوله:

أنا والله أشتهي سحر عينيـ ... ـك وأخشى مصارع العشاق

وله أيضاً:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم ... الأذن كالعين تولي القلب ماكانا

وله أيضاً:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... بحزم نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي تابع للقوادم

وما خير كف أمسك الغلُّ أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

كان بشار يمدح المهدي حتى وشى إليه الوزير أنه هجاه وقذفه ونسب إلى شيء من الزندقة، وأنه يقول بتفضيل النار على التراب، وعذر إبليس في ترك السجود لآدم، وأنه أنشد:

الأرض مظلمة والنار مشرقةٌ ... والنار معبودة مذ كانت النار

فأمر المهدي بضربه فضرب حتى مات.

ويقال: إنه غُرِّق ثم نقل إلى البصرة في هذه السنة.

وفيها توفي:

■ الحسن بن صالح بن حيّ، وحماد بن سلمة، والربيع بن مسلم، وسعيد بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن مسلم.

■ عتبة الغلام: وهو عتبة بن أبان بن صمعة أحد العباد المشهورين والبكائين المذكورين، كان يأكل من عمل يده في الخوص، ويصوم الدهر ويفطر على الخبز والملح.

والقاسم الحُدّاني، وأبو هلال محمد بن سليم، ومحمد بن طلحة، وأبو حمزة السُّكري محمد بن ميمون.

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائة

فيها في رمضان منها نقضت الروم ما بينهم وبين المسلمين من الصلح الذي عقده هارون الرشيد عن أمر أبيه المهدي، ولم يستمروا على الصلح إلا ثنتين وثلاثين شهراً، فبعث نائب الجزيرة خيلا إلى الروم فقتلوا وأسروا وغنموا وسلموا ولله الحمد.

وفيها اتخذ المهدي دواوين الأزمة ولم يكن بنو أمية يعرفون ذلك.

وفيها حج بالناس علي بن محمد المهدي الذي يقال له ابن ريطة.

وفيها توفي من الأعيان

■ الحسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب، ولاه المنصور المدينة خمس سنين، ثم غضب عليه فعزله وحبسه وأخذ جميع ماله.

■ حماد عجرد، كان ظريفاً ماجناً شاعراً، وكان ممن يعاشر الوليد بن يزيد ويهاجي بشار بن برد. وقدم على المهدي ونزل الكوفة واتهم بالزندقة.

قال ابن قتيبة في طبقات الشعراء: ثلاثة حمادون بالكوفة يرمون بالزندقة. حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد بن الزبرقان النحوي. وكانوا يتعاشرون ويتماجنون.

■ خارجة بن مصعب.

■ عبيد الله بن الحسن بن الحصين بن أبي الحر العنبري، قاضي البصرة بعد سوار. سمع خالداً الحذاء وداود بن أبي هند، وسعيداً الجريري. وروى عنه ابن مهدي. وكان ثقة فقيهاً له اختيارات تعزى إليه غريبة في الأصول والفروع، وقد سئل مرة عن مسألة فأخطأ في الجواب فقال له قائل: الحكم فيها كذا وكذا. فأطرق ساعة ثم قال: إذاً أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل، توفي في ذي القعدة من هذه السنة. وقيل بعد ذلك بعشر سنين فالله أعلم.

■ غوث بن سليمان بن زياد بن ربيعة بن نعيم أبو يحيى الجرمي، قاضي مصر، كان من خيار الحكام، ولي الديار المصرية ثلاث مرات في أيام المنصور والمهدي.

■ فليح بن سليمان.

■ قيس بن الربيع في قول.

■ محمد بن عبد الله بن علاثة بن علقمة بن مالك، أبو اليسير العقيلي، قاضي الجانب الشرقي من بغداد للمهدي، هو وعافية بن يزيد القاضي. وكان يقال لابن علاثة قاضي الجن، لأنه كانت بئر يصاب من أخذ منها شيئاً فقال: أيها الجن! إنا حكمنا أن لكم الليل ولنا النهار. فكان من أخذ منها شيئاً في النهار لم يصبه شيء. قال ابن معين: كان ثقة. وقال البخاري: في حفظه شيء.

ثم دخلت سنة تسع وستين ومائة

فيها في المحرم منها توفي أمير المؤمنين المهدي بن المنصور العباسي رحمه الله بمكان يقال له ماسبذان، بالحمى، وقيل مسموماً وقيل بعضة فرس فمات.على ما سيأتي بيانه

وهذه ترجمته:

■ محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، أبو عبد الله المهدي، أمير المؤمنين وإنما لقب بالمهدي طمعاً أن يكون الموعود به في الأحاديث فلم يكن به، وإن اشتركا في الاسم لأنه لم يشبهه في الفعل، ذاك يأتي في آخر الزمان وعند فساده فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً.

وقد قيل إن في أيامه ينزل عيسى ابن مريم بدمشق كما سيأتي ذكر ذلك في أحاديث الفتن والملاحم.

وقد جاء في حديث [الفتن لنعيم بن حماد (١٠٨٦-١٠٨٨، ١١٠٥)] من طريق عثمان بن عفان أن المهدي من بني العباس، وجاء موقوفاً على ابن عباس وكعب الأحبار ولا يصح ذلك، وبتقدير صحة ذلك لا يلزم أن يكون هذا على التعيين.

وقد ورد في حديث آخر أن المهدي من ولد فاطمة فهو [ج (٤٠٨٦)] يعارض هذا والله أعلم.

وأمه أم موسى بنت منصور بن عبد الله الحميري.

روى عن أبيه عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ جهر ببسم الله الرحمن الرحيم. رواه عنه يحيى بن حمزة البتلهي قاضي دمشق، وذكر أنه صلى خلف المهدي حين قدم دمشق فجهر في السورتين بالبسملة، وأسند ذلك عن رسول الله ﷺ ورواه غير واحد عن يحيى بن حمزة، ورواه المهدي عن المبارك بن فضالة، ورواه عنه أيضاً جعفر بن سليمان الضبعي، ومحمد بن عبد الله الرقاشي. وأبو سفيان سعيد بن يحيى بن مهدي.

وكان مولد المهدي في سنة ست أو سبع وقيل: سنة إحدى وعشرين ومائة بالحميمة من أرض البلقاء واستُخلف بعد موت أبيه في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وعمره إذ ذاك ثلاث وثلاثون سنة، ولد بالحميمة من أرض البلقاء، وتوفي في المحرم من هذه السنة عن ثلاث أو ثمان وأربعين سنة، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وبعض شهر، وكان أسمر طويلا جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء، فقيل: عينه اليمنى، وقيل اليسرى.

قال الربيع الحاجب: رأيت المهدي يصلي في ليلة مقمرة في بهو له عليه ثياب حسنة. فما أدري أهو أحسن أم القمر، أم بهوه، أم ثيابه. فقرأ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. ثم أمرني فأحضرت رجلا من قرابته كان مسجوناً فأطلقه. ولما جاءه خبر موت أبيه بمكة وهو ببغداد مع منارة البربري مولاه، في السادس عشر من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومئة، وكان ولي العهد من بعد أبيه، كتم الأمر يومين ثم نودي في الناس يوم الخميس الصلاة جامعة، فقام فيهم خطيباً فأعلمهم بموت أبيه فقال: إن أمير المؤمنين دعي فأجاب وقد قُلّدت بعده جسيماً فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعينه على خلافة المسلمين. ثم بايعه الناس بالخلافة يومئذٍ. وقد عزّاه أبو دلامة وهنّاه في قصيدة التي يقول فيها:

عيناي واحدة ترى مسرورة ... بأميرها جذلا وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارةً ويسوؤها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى ... شعراً أرجله وآخر يتنف
هلك الخليفة بالَ أمة أحمد ... وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخرف

وقد قال المهدي يوماً في خطبته: أيها الناس أسروا مثلما تعلنون من طاعتنا تهنكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى ثوب الأصر عنكم. وأهال عليكم السلامة ولين المعيشة من حيث أراه الله، مقدماً ذلك فعل من تقدمه، والله لأفنين عمري من عقوبتكم، الإحسان إليكم. قال: فأشرقت وجوه الناس من حسن كلامه، ثم استخرج المهدي حواصل أبيه من الذهب والفضة التي لا تحد ولا توصف كثرة، ففرقها في الناس، ولم يعط أهله ومواليه شيئاً منها، بل أجرى لهم أرزاقاً بحسب كفايتهم من بيت المال، لكل واحد خمسمائة في الشهر غير الأعطيات وقد كان أبوه المنصور حريصاً على توفير بيت المال، وإنما كان ينفق في السنة ألفي درهم من مال الشراة، وأمر المهدي ببناء مسجد الرصافة وعمل خندق وسور حولها، وبنى مدنا ذكرناها فيما تقدم.

وقد ذكر له عن شريك بن عبد الله القاضي أنه لا يرى الصلاة خلفه. فأحضره إليه فتكلم معه ثم قال له المهدي في كلام: يا ابن الزانية! فقال له: مه مه يا أمير المؤمنين. فلقد كانت صوامة قوامة. فقال له: يا زنديق لأقتلنك. فضحك شريك، فقال: يا أمير المؤمنين إن للزنادقة علامات يعرفون بها، شربهم القهوات، واتخاذهم القينات، فأطرق المهدي وخرج شريك من بين يديه.

وذكروا أنه هاجت ريح شديدة، فدخل المهدي بيتاً في داره فألزق خده بالتراب وقال: اللّهم إن كنت أنا المطلوب بهذه الجناية دون الناس فها أنا ذا بين يديك، اللّهم لا تشمت بي الأعداء من أهل الأديان. فلم يزل كذلك حتى انجلت.

ودخل عليه رجل يوماً ومعه نعل فقال: هذه نعل رسول الله ﷺ قد أهديتها لك. فقال: هاتها، فناولها إياها، فقبلها ووضعها على عينيه وأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما انصرف الرجل قال المهدي: والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ لم ير هذه النعل، فضلا عن أن يلبسها، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس: أعطيته إليه نعل رسول الله ﷺ فردها عليّ. فيصدقه أكثر الناس، لأن العامة تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي وإن كان ظالماً، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم، ورأينا هذا أرجح وأنجح.

واشتهر عنه أنه كان يحب الحمام والسباق بينها، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم غياث بن إبراهيم فحدثه بحديث أبي هريرة: «لا سبق إلا في خف أو نصل أو حافر» [أحمد: ٢/٢٥٦، د(٢٥٧٤)، ت(١٧٠)، س(٣٥٧٨)]. وزاد في الحديث «أو جناح» فأمر له بعشرة آلاف. ولما خرج قال: والله إني لأرى قفا كذاب على رسول الله ﷺ. ثم أمر بالحمام فذبح ولم يذكر غياثاً بعدها.

وقال الواقدي: دخلت يوماً على المهدي فحدثته بأحاديث فكتبها عني ثم قام فدخل بيوت نسائه ثم خرج وهو ممتلىء غيظاً فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: دخلت على الخيزران فقامت إليّ ومزقت ثوبي وقالت: ما

رأيت منك خيراً، وإني والله يا واقدي إنما اشتريتها من نخاس، وقد نالت عندي ما نالت، وقد بايعت لوليديها بامرة المؤمنين من بعدي. فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال:«إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام». وقال: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» [ج(١٩٧٧)]، وقال: «خلقت المرأة من ضلع أعوج إن قومته كسرته» [خ(٣٣٣١)، م(١٤٦٨)]. وحدثته في هذا الباب بكلام حضرني. فأمر لي بألفي دينار، فلما وافيت المنزل إذا رسول الخيزران قد لحقني بألفي دينار إلا عشرة دنانير، وإذا معه أثواب أخر، وبعثت تشكرلي وتثني عليّ معروفاً.

وذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجل من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف، فدخل الرجل بغداد متنكراً فبينما هو يوماً في أزقة بغداد إذ لقيه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى: هذا طلبة أمير المؤمنين. وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر، فبينا هما، كذلك، إذ مر أمير في موكبه وقد أقبل وإذا هو معن بن زائدة ـ فقال الرجل: يا أبا الوليد خائف مستجير. فقال: ويحك ما لك وله؟ فقال: هذا طلبة أمير المؤمنين.، جعل لمن جاء به مائة ألف. قال معن: ويحك، وأما علمت أني قد أجرته؟ أرسله من يدك. ثم أمر بعض غلمانه فترجل وأركبه وذهب به إلى منزله، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة فأنهى إليه الخبر، فبلغ المهدي فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلم فلم يرد عليه المهدي وقال: يا معن أبلغ من أمرك أن تجير عليّ؟ قال: نعم قال: ونعم أيضاً قال: نعم! قد قتلت في دولتكم أربعة آلاف مصل فلا يجار لي رجل واحد؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال: قد أجرنا من أجرت يا معن. فقال: يا أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف، فأمر له المهدي بثلاثين ألفاً، فقال: إن جريمته عظيمة وإن جوائز الخلفاء على قدر ذنوب الرعية. فأمر له بمائة ألف، فحملت بين يدي معن إلى ذلك الرجل، فقال له معن: ادع لأمير للخليفة وأصلح نيتك في المستقبل.

وقدم المهدي مرة البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين مر هؤلاء فليتظروني حتى أتوضأ فأمرهم المهدي بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يكبر حتى قيل له: هذا لأعرابي قد جاء. فكبّر. فتعجب الناس من سماحة أخلاقه.

وقدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول: هذا كتاب أمير المؤمنين، أين الرجل الذي يقال له الربيع؟ فدلُّوه على الربيع الحاجب فأخذ الكتاب وجاء به إلى امير المؤمنين وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فإذا هو قطعة أديم فيه كتابة ضعيفة، والأعرابي يزعم أن هذا خط الخليفة، فتبسم المهدي وقال: صدق الأعرابي، هذا خطي، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضعت من الجيش وأقبل الليل فتعوذت بتعوّذ رسول الله ﷺ فرُفع لي نار من بُعد فقصدتها فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباء يوقدان ناراً، فسلمت فردا السلام وفرش لي كساء وسقاني مذقة من لبن مشوب بماء، فما شربت شيئاً إلا وهي أطيب منه، ونمت نومة على تلك العباءة ما أذكر أني نمت أحلى منها. فقام إلى شويهة له فذبحها فسمعت امرأته تقول له: عمدت إلى معيشتك ومعيشة أولادك فذبحتها! أهلكت نفسك وعيالك. فما التفت إليها، واستيقظت من النوم فاشتويت من تلك الشويهة وقلت له: أعندك شيء أكتب لك فيه كتابا؟ فأتاني بهذه الرُّقعة عن الأديم فكتبت له بعود من ذلك الرماد خمسمائة ألف، وإنما أردت خمسين ألفاً، واللّه لأنفذنها له كلها ولو لم يكن في بيت المال سواها. فقبضها الأعرابي واستمر مقيماً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار، فجعل يقري الناس في ذلك الموضع فعرف بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي

وعن سوار ـ صاحب رحبة سوار ـ قال: انصرفت يوماً من عند المهدي فجئت منزلي فوضع لي الغداء فلم تقبل نفسي عليه، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني نوم، فاستدعيت ببعض حظاياي لأتلهى بها فلم يقر لي قرار، فنهضت فخرجت من المنزل وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلا حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم، فقلت: من أين هذه؟ فقال: من ملكك الجديد. فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد أتشاغل عما أنا فيه من الضجر، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات، فنزلت لأصلي فيه، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي فقال: إن لي إليك حاجة، فقلت: وما حاجتك؟ فقال: إني رجل ضرير ولكنني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة، فأحببت أن أفضي بحاجتي إليك. فقلت: وما هي؟ فقال: إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي فسافر منه إلى خراسان وباعه وأخذني معه وأنا صغير، فافترقنا هناك وأصابني الضرر، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئاً أتبلغ به لعلي اجتمع بسوار، فإنه كان صاحباً لأبي، فلعله أن يكون عنده سعة يجود منها علي. فقلت: ومن أبوك؟ فذكر رجلا كان أصحب الناس إلي، فقلت: إني أنا سوار صاحب أبيك، وقد منعني الله في يومك هذا النوم والقرار والأكل والراحة حتى أخرجني من منزلي لأجتمع بك. وأجلسني بين يديك، وأمرت وكيلي فدفع له الألفين التي معه، وقلت له: إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا. وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ما أخف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا. فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً وأمر للأعمى بألفي دينار. وقال لي: عليك دين؟ قلت نعم! قال: كم؟ قلت: خمسون ألف دينار. فسكت وحادثني ساعة ثم لما قمت من بين يديه فوصلت إلى المنزل إذا الحمالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار وألفي دينار للأعمى، فانتظرت الأعمى أن يجيء في ذلك اليوم فتأخر فلما أمسيت جلست إلى المهدي فقال: قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شيء، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى. فلما كان اليوم الثالث جاءني المكفوف فقلت: قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً، ودفعت إليه الألفي الدينار التي من عند الخليفة وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً.

ووقفت امرأة للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله اقض حاجتي. فقال المهدي: ما سمعتها من أحد غيرها، اقضوا حاجتها وأعطوها عشرة آلاف درهم.

ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرقها ابن الخياط وأنشأ يقول: ـ

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يُعْدي

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فبدّدت ما عندي

قال: فنعم ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً.

وبالجملة فله مآثر ومحاسن كثيرة، وقد كانت وفاته بماسبذان. كان قد خرج إليها ليبعث إلى ابنه الهادي ليحضر إليه من جرجان حتى يخلعه من ولاية العهد ويجعله بعد هارون الرشيد، فامتنع الهادي من ذلك، فركب المهدي من بغداد قاصداً إحضاره، فلما كان بماسبذان مات بها على ما سنذكره. وكان قد رأى في النوم وهو بقصره ببغداد ـ وأظنهالمسمى بقصر

السلامة ـ كان شيخاً وقف بباب القصر، ويقال إنه سمع هاتفاً يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله　　وأوحش منه أهله ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة　　وملك إلى قبر عليه جنادله
ولم يبق إلا ذكره وحديثه　　تنادي عليه معولات حلائله

فما عاش بعدها إلا عشراً حتى توفي رحمه الله وسامحه وأدخله الجنة برحمته.

ويُروى أنه لما قال له الهاتف:

كأني بهذا القصر قد باد أهله　　وقد درست أعلامه ومنازله

فأجابه المهدي:

كذاك أمور الناس يبلى جديدها　　وكل فتى يوماً ستبلى فعائله

فقال الهاتف:

تزوّد من الدنيا فإنك ميت　　وإنك مسؤول فما أنت قائله

فأجابه المهدي:

أقول بأن الله حق شهدته　　فذلك قول ليس تحصى فضائله

فقال الهاتف:

تزوّد من الدنيا فإنك راحل　　وقد أزف الأمر الذي بك نازله

فأجابه المهدي:

متى ذاك خبرني هديت فإنني　　سأفعل ما قد قلت لي وأعاجله

فقال الهاتف:

تلبث ثلاثاً بعد عشرين ليلة　　إلى منتهى شهر وما أنت كامله

قالوا: فلم يعش بعدها إلا تسعة وعشرين يوماً حتى مات رحمه الله تعالى.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه:٨/١٦٨-١٧٠] اختلافاً في سبب موته، فقيل إنه ساق خلف ظبي والكلاب بين يديه فدخل الظبي إلى خربة فدخلت الكلاب وراءه وجاء الفرس فحمل به في مشواره فدخل الخربة فكسر ظهره الخليفة فكان ذلك سبب وفاته.

وقيل إن بعض حظاياه بعثت إلى أخرى لبنا مسموماً فمر الرسول بالمهدي فأكل منه فمات. وقيل بل بعثت إليها بصينية فيها كُمَّثرى وفي أعلاها واحدة كبيرة فيها سمٌّ، وكان المهدي يعجبه الكمثرى،فمرت الجارية تحمل تلك الصينية فرآها فاستدعاها فأخذ التي في أعلاها فأكلها فمات من ساعته، فجعلت الحظية تندبه وتقول: وا أمير المؤمنيناه، أردت أن يكون لي وحدي فقتلتك.

وكانت وفاته في المحرم من هذه السنة ـ أعني سنة تسع وستين ومائة ـ وله من العمر ثلاث وأربعون سنة على المشهور، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وكسوراً، ورثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة وقد أورد منها الحافظ ابن عساكر طرفاً وكذلك أبو جعفر بن جرير رحمهما الله.

وفيها توفي:

عبيد الله بن إياد، ونافع بن عمر الجمحي، ونافع بن أبي نعيم القارئ.

خلافة موسى الهادي بن المهدي

توفي أبوه في المحرم من أول سنة تسع وستين ومائة وكان ولي العهد من بعد أبيه، لكن كان أبوه قد عزم على تقديم أخيه هارون الرشيد عليه في ولاية العهد، فلم يتفق ذلك حتى مات أبوه بماسبذان في شهر الله المحرم. وكان الهادي إذ ذاك بجرجان، فهم بعض الدولة منهم الربيع الحاجب وطائفة من القواد على تقديم الرشيد عليه والمبايعة له، وكان الرشيد حاضراً ببغداد، وعزموا على النفقة في الجند لذلك تنفيذاً لما رآه المهدي من ذلك. فأسرع الهادي السير من جرجان إلى بغداد حين بلغه الخبر، فساق منها إليها في عشرين يوماً، فدخل بغداد وقام في الناس خطيباً، وأخذ البيعة منهم فبايعوه، وتغيب الربيع الحاجب فتطلبه الهادي حتى حضر بين يديه، فعفا عنه وأحسن إليه وأقرّه على وظيفة الحجوبية، وزاده الوزارة وولايات أخر. وشرع الهادي في تطلب الزنادقة من الآفاق فقتل منهم طائفة كثيرة، واقتدى في ذلك بأبيه، وقد كان موسى الهادي من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما يعلوه من المهابة والرياسة، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً.

وفي هذه السنة أعني سنة تسع وستين ومائة ـ خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وذلك أنه أصبح يوماً وقد لبس البياض وجلس في المسجد النبوي، وجاء الناس إلى الصلاة فلما رأوه ولوا راجعين، والتف عليه جماعة فبايعوه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والرضى من أهل البيت. وكان سبب خروجة أن متوليها خرج منها إلى بغداد لتلقّي أمير المؤمنين وتهنئته بالولاية وتعزيته في أبيه المهدي. ثم جرت أمور اقتضت أن خرج حسين هذا، والتف عليه جماعة وجعلوا مأواهم المسجد النبوي، ومنعوا الناس من الصلاة فيه، ولم يجبه أهل المدينة وجعلوا يدعون عليه لامتهانهم المسجد، حتى ذكر أنهم كانوا يقذرون في جنبات المسجد، وقد اقتتلوا مع المسودة مرات فقتلوا منهم وقُتل منهم. ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج، فبعث إليه الهادي جيشاً فقاتلوه بعد فراغ الناس من الموسم فقتلوه وقتلوا طائفة من أصحابه، وهرب بقيتهم وتفرقوا شذر مذر، فكان مدة خروجه إلى أن قتل تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وقد كان كريماً من أجود الناس. دخل يوماً على المهدي فأطلق له أربعين ألف دينار ففرقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة، وما خرج منها وعليه قميص، إنما كان عليه فروة وليس دونها قميص.

وفيها حج بالناس سليمان بن أبي جعفر عم الخليفة.

وغزا الصائفة من طريق درب الراهب معيومي بن يحيى في جحفل كثيف، وقد أقبلت الروم مع بطريقها فبلغوا الحدث.

وفيها توفي من الأعيان

■ **الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب** قتل في أيام التشريق كما ذكرنا.

■ **الربيع بن يونس الحاجب مولى المنصور**، وحاجبه ووزيره، وقد وزر أيضاً للهادي وقيل: إنه وزر أيضاً للمهدي، وكان بعضهم يطعن في نسبه. وقد أورد الخطيب في ترجمته حديثاً من طريقه ولكنه منكر، وفي صحته عنه نظر والله أعلم. وقد ولي الحجوبية بعده ولده الفضل بن

الربيع، ولاه إياها الخليفة الهادي.

ثم دخلت سنة سبعين ومائة من الهجرة النبوية

فيها عزم الهادي على خلع أخيه هارون من الخلافة وولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر بن الهادي فانقاد هارون لذلك ولم يظهر المنازعة بل المطاوعة، واستدعى الهادي جماعة من الأمراء فأجابوه إلى ذلك، وأبت ذلك أم أمير المؤمنين الخيزران، وكانت أميل إلى ابنها هارون، وكان الهادي قد منعها من التصرف في شيء من المملكة، بعدما كانت قد استحوذت عليه في أول ولايته، وانقلبت الدول إلى بابها والأمراء يلوذ ببابها، فحلف الهادي لئن عاد أمير إلى بابها ليضربن عنقه ولا يقبل لها شفاعة أبداً، فامتنعت من الكلام في ذلك. وحلفت لا تكلمه أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر. والح هو على أخيه هارون في الخلع وبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك ـ وكان من أكابر القوّاد الذين هم في صف الرشيد ـ فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له يا أمير المؤمنين: إني أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة أن تجعل جعفراً ولي العهد من بعد هارون، وأيضاً يا أمير المؤمنين فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، وهو دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس فينالها بعض أهلك لا هذا ولا هذا. فأطرق ملياً ـ وكان ذلك ليلا ـ ثم أمر بسجنه ثم أطلقه.

وجاء يوماً إليه أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً ثم قال: يا هارون! أتطمع أن تكون رؤيا المهدي حقاً؟ فقال: إي والله، ووالله لئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتي. فقال ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده فحلف الهادي ليجلسنّ معه على السرير فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد، وإذا جاء الخراج فليدفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد. ثم سافر الهادي إلى حديثة الموصل بعد ذلك، ثم عاد منها فمات بعيساباذ ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول، وقيل الآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث وعشرون سنة، وكانت خلافته سنة وشهراً وثلاثة وعشرون يوماً. وكان طويلا جميلا، أبيض، بشفته العليا تقلص.

وقد توفي في هذه الليلة خليفة وهو الهادي، وولي خليفة وهو الرشيد، وولد خليفة وهو المأمون بن الرشيد. وقد كانت الخيزران أم الخليفة في أول الليل: إنه بلغني أنه يولد الليلة خليفة ويموت خليفة ويتولى خليفة، يقال إنها سمعت ذلك من الأوزاعي قبل ذلك بمدة، وقد سرها ذلك جداً. وقال: إنها سمت ولدها الهادي خوفاً على ابنها الرشيد منه، وأيضاً فإنه كان قد أبعدها وأقصاها وقرب حظيته خالصة وأدناها فالله المستعان.

وهذا ذكر شيء من ترجمة الهادي

هو

■ **موسى بن محمد المهدي** بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو محمد الهادي أمير المؤمنين بن المهدي بن المنصور، ولي الخلافة كما ذكرنا في محرم سنة تسع وستين ومائة. وكانت وفاته في النصف من ربيع الأول أو الآخر سنة سبعين ومائة، وله من العمر ثلاث، وقيل أربع، وقيل ست وعشرون سنة، والصحيح الأول.

قال الخطيب: ويقال إنه لم يل الخلافة أحد قبله في سنه.

وكان حسناً جميلا طويلا، أبيض في شفته العليا تقلص، وكان قوي البأس يثب على الدابة وعليه درعان، وكان أبوه يسميه ريحانتي.

ذكر عيسى بن داب قال: كنت يوماً عند الهادي إذ جيء بطست فيه رأس جاريتين، لم أر أحسن منهما، ولا مثل شعورهما، وفي شعورهما اللآلىء والجواهر منضدة، ولا مثل طيب ريحهما. فقال: أتدرون ما شأن هاتين؟ قلنا: لا. فقال: إنه ذكر لي عنهما أنهما يرتكبان الفاحشة، فأمرت الخادم فرصدهما ثم جاءني فقال: إنهما مجتمعتان، فجئت فوجدتهما في لحاف واحد وهما على الفاحشة، فأمرت بحز رقابهما. ثم أمر برفع رؤوسهما من بين يديه ورجع إلى حديثه الأول كأنه لم يصنع شيأ. وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً.

ومن كلامه: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات القريبة، ليقل الطمع عن الملك.

وغضب يوماً على رجل فاسترضي عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤنة الاعتذار.

وعزى الهادي رجلا في ولد له توفي فقال له: أسرّك وهو عدو وفتنة، وأحزنك وهو صلاة ورحمة.

وروى الزبير بن بكار أن مروان بن أبي حفصة أنشد الهادي قصيدة له منها:

تشابه يوماً بأسه ونواله فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي: أيهما أحب إليك؟ ثلاثون ألفا معجلة أو مائة ألف تدور في الدواوين؟ قال: يا أمير المؤمنين أو أحسن من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: ثلاثون ألفاً معجلة ومائة ألف تدور بالدواوين. فقال الهادي: أو أحسن من ذلك، نعجل الجميع لك، فأمر له بمائة ألف وثلاثين ألفاً معجلة.

قال الخطيب البغدادي: حدّثني الأزهري حدثنا سهل بن أحمد الديباجي حدثنا الصولي حدثنا الغلابي حدّثني محمد بن عبد الرحمن التيمي المكي حدّثني المطلب بن عكاشة المزني قال: قدمنا على أبي محمد الهادي شهوداً على رجل منا شتم قريشا وتخطى إلى ذكر رسول الله ﷺ، فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه ومن كان بالحضرة على بابه، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه، فتغير وجه الهادي ثم نكس رأسه ثم رفعه ثم قال: إني سمعت أبي المهدي يحدث عن أبيه المنصور عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن عباس قال: من أراد هوان قريش أهانه الله، وأنت يا عدو الله لم ترض بأن أردت ذلك من قريش حتى تخطيت إلى ذكر رسول الله ﷺ اضربوا عنقه. فما برحنا حتى قتل.

توفي الهادي في ربيع الأول من هذه السنة. وصلى عليه أخوه هارون الرشيد ولي العهد، ودفن الهادي في قصر بناه وسماه الأبيض بعيساباذ من الجانب الشرقي من بغداد، وكان له من الولد تسعة، سبعة ذكور وابنتان، فالذكور جعفر وهو الذي كان رشّحه للخلافة، وعباس، وعبد الله، وإسحاق، وإسماعيل، وسليمان، وموسى الأعمى، الذي ولد بعد وفاته فسمي باسم أبيه. والبنتان هما أم عيسى التي تزوجها المأمون، والأخرى أم العباس تلقب نوتة.

خلافة هارون الرشيد بن المهدي

بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادي، وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة سبعين ومائة وكان عمر الرشيد يومئذٍ ثنتين وعشرين سنة، فبعث إلى يحيى بن خالد بن برمك فأخرجه من السجن، وقد كان الهادي عزم في تلك الليلة على قتله وقتل هارون الرشيد، فأخرجه الرشيد وكان ابنه من الرضاعة، وولاّه حينئذٍ الوزارة، وولى يوسف بن القاسم بن صبيح كتابة الإنشاء. وكان هو الذي قام خطيباً بين يديه حتى أخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ، ويقال إنه لما مات الهادي في الليل جاء يحيى بن خالد بن برمك إلى الرشيد فوجده نائماً فقال له: قم يا أمير المؤمنين. فقال: كم تروعني، ولو سمع بهذا الكلام هذا الرجل لكان ذلك أكبر ذنوبي عنده؟ فقال له يحيى: قد مات الرجل. فجلس هارون فقال: أشر علي. فجعل يذكر ولايات الأقاليم لرجال يسميهم فيوليهم الرشيد، فينما هما كذلك إذ جاء آخر فقال: هو عبد الله وهو المأمون. ثم أصبح فصلى على أخيه الهادي، ودفنه بعيساباذ، وحلف لا يصلي الظهر إلا ببغداد. فلما فرغ من الجنازة أمر بضرب عنق أبي عصمة القائد لأنه كان مع جعفر بن الهادي، فزاحموا هارون على جسر فقال أبو عصمة: قف حتى يجوز ولي العهد. فقال الرشيد: السمع والطاعة للأمير. فجاز جعفر ووقف الرشيد. فلما ولي أمر بقتل أبي عصمة، ثم سار إلى بغداد. فلما انتهى إلى جسر بغداد استدعى بالغواصين فقال إني سقط مني ههنا خاتم كان والدي المهدي قد اشتراه لي بمائة ألف، فلما كان من أيام بعث ورائي الهادي يطلبه فألقيته إلى الرسول فسقط ههنا. فغاصوا وراءه فوجدوه فسر به الرشيد سروراً كثيراً.

ولما ولى الرشيد يحيى بن خالد الوزارة قال له: قد فوضت إليك أمر الرعية وخلعت ذلك من عنقي وجعلته في عنقك، فول من رأيت واعزل من رأيت. ففي ذلك يقول إبراهيم بن الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي النّدى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هي المشاورة في الأمور كلها لا يقطع أمراً يحيى بن خالد أمراً حتى يشاورهما فيها يبرمه ويحلُّه ويمضيه ويحكمه.

وفيها أمر الرشيد بسهم ذوي القربى أن يقسم في بني هاشم على السواء.

وفيها تتبع الرشيد خلقاً من الزنادقة فقتل منهم طائفة كثيرة.

وفيها خرج عليه بعض أهل البيت.

وفيها ولد الأمين محمد بن الرشيد بن زبيدة. وذلك يوم الجمعة لست عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة.

وفيها كمل بناء مدينة طرسوس على يدي فرج الخادم التركي ونزلها الناس.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد، وأعطى أهل الحرمين أموالا كثيرة جدّاً، ويقال إنه غزا في هذه السنة أيضاً. وفي ذلك يقول داود بن رزين الشاعر:

بهارون لاح النور في كل بلدة ... وقام به في عدل سيرته النهج
إمام بذات الله أصبح شغله ... وأكثر ما يعنى به الغزو والحج
تضيق عيون الناس عن نور وجهه ... إذا ما بدا للناس منظره البلج
وإن أمين الله هارون ذا الندى ... ينيل الذي يرجوه أضعاف ما يرجو

وغزا الصائفة في هذه السنة سليمان بن عبد الله البكائي.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم أبو عبد الرحمن الفراهيدي.** ويقال الفرهودي الأزدي اليحمدي، شيخ النحاة، وعنه أخذ سيبويه والنضر بن شميل، وغير واحد من أكابرهم، وهو الذي اخترع علم العروض. قسمه إلى خمس دوائر وفرعه إلى خمسة عشر بحراً، وزاد الأخفش فيه بحراً آخر وهو الخبب، وقد قال بعض الشعراء:

قد كان شعر الورى صحيحاً ... من قبل أن يخلق الخليل

وقد كان له معرفة بعلم النغم، وله فيه تصنيف أيضاً، وله كتاب «العين» في اللغة، ابتداه وأكمله النضر بن شميل وأضرابه من أصحابه، كمؤرج السدوسي، ونصر بن علي الجهضمي. فلم يناسبوا ما وضعه الخليل رحمه الله. وقد وضع ابن درستويه كتابا بيّن فيه ما وقع لهم من الخلل فأفاد.

وقد كان الخليل رجلا صالحاً عاقلا وقوراً كاملا، وكان متقللا من الدنيا، صبوراً على العيش الخشن الضيق، وكان يقول: لا يجاوز همي ما وراء بابي، وكان ظريفاً حسن الخلق.

وذكر أنه اشتغل عليه رجل في العروض قال: وكان بعيد الفهم. قال فقلت له يوماً: كيف تقطع هذا البيت؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فشرع معي في تقطيعه على قدر معرفته، ثم إنه نهض من عندي فلم يعد إلي، وكأنه فهم ما أشرت إليه. ويقال إنه لم يسم أحد بعد النبي ﷺ بأحمد سوى أبيه. رُوي ذلك عن أحمد بن أبي خيثمة والله أعلم.

ولد الخليل سنة مائة من الهجرة. ومات بالبصرة سنة سبعين ومائة على المشهور، وقيل سنة ستين، وزعم ابن الجوزي في كتابه شذور العقود أنه توفي سنة ثلاثين ومائة. وهذا غريب جداً. والمشهور الأول والله أعلم

■ **الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي مولاهم، المصري** المؤدب راوية الشافعي، وآخر من روى عنه. وكان رجلا صالحاً تفرس فيه الشافعي وفي البويطي والمزني وابن عبد الحكم فوافق ذلك ما وقع في نفس الأمر رحمه الله.

ومن شعر الربيع هذا:

صبراً جميلا ما أسرع الفرجا ... من صدق الله في الأمور نجا
من خشي الله لم ينله أذى ... ومن رجا الله كان حيث رجا

[وهم المؤلف في ذكره هنا إنما مات سنة ٢٧٠هـ]

فأما الربيع بن سليمان بن داود الجيزي فإنه روى عن الشافعي أيضاً، وقد مات في سنة ست وخمسين ومائتين رحمهما الله.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائة

فيها أضاف الرشيد الخاتم إلى يحيى بن خالد مع الوزارة.

وفيها قتل الرشيد أبا هريرة محمد بن فروخ نائب الجزيرة صبراً في قصر الخلد بين يديه.

وفيها خرج الفضل بن سعيد الحروري فقتل.

وفيها قدم روح بن حاتم إفريقية.

وخرجت أم أمير المؤمنين الخيزران إلى مكة فأقامت بها حتى شهدت الحج، وكان الذي حج بالناس عم الخلفاء عبد الصمد بن علي بن الله بن عباس.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائة

فيها وضع الرشيد عن أهل العراق العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف.

وفيها خرج الرشيد من بغداد يرتاد له موضعاً يسكنه غيرها فلم يبرح إلا أن تشوّش فيها ثم رجع.

وفيها حج بالناس يعقوب بن أبي جعفر المنصور عم هارون الرشيد.

وفيها غزا الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة

فيها توفي:

■ **محمد بن سليمان** بالبصرة فأمر الرشيد بالاحتياط على حواصله التي تصلح للخلفاء، فوجدوا من ذلك شيئاً كثيراً جداً فقبضوه من الذهب والفضة والأمتعة التي يستعان بها على الحرب وعلى تقوّي المسلمين من العدد والبرك وغير ذلك.

وهو ■ **محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس**، وأمه أم حسن بنت جعفر بن حسن بن حسن بن علي، وكان من رجالات قريش وشجعانهم. جمع له المنصور بين البصرة والكوفة، وزوجه المهدي ابنته العباسة، وكان له من الأموال شيء كثير، كان دخله في كل يوم مائة ألف. وكان له خاتم من ياقوت أحمر لم ير مثله.

وروى الحديث عن أبيه عن جده الأكبر وهو ابن عباس، حديثاً مرفوعاً في مسح رأس اليتيم إلى مقدم رأسه، ومسح رأس من له أب إلى مؤخره.

وقد وفد على الرشيد فهنأه بالخلافة فأكرمه وعظمه وزاده في عمله شيئاً كثيراً. ولما أراد الخروج خرج معه الرشيد يشيعه إلى كلواذى.

توفي في جمادى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وخمسين سنة، وقد أرسل الرشيد من اصطفى من ماله الصامت فوجد له من الذهب ثلاثة آلاف ألف دينار، ومن الدراهم ستين ألف ألف، خارجاً عن الأملاك والجواهر.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه:٨/٢٣٨] أن وفاته ووفاة الخيزران في يوم واحد، وقد وقفت جارية من جواريه على قبره فأنشأت تقول:

أمسى التراب لمن هويت مبيتا ... الق التراب فقل له حييتا

إنا نحبك يا تراب وما بنا ... إلا كرامة من عليه حثيتا

وفيها توفيت:

■ **الخيزران جارية المهدي وأم أميري المؤمنين الهادي والرشيد**، اشتراها المهدي وحظيت عنده جداً ثم أعتقها وتزوجها وولدت له خليفتين: موسى الهادي وهارون الرشيد. ولم يتفق هذا لغيرها من النساء إلا لولادة بنت العباس العبسية، زوجة عبد الملك بن مروان، وهي أم الوليد وسليمان. وإلا لشاهفرند بنت فيروز بن يزدجرد، ولدت لمولاها الوليد بن عبد الملك بن مروان: يزيد وإبراهيم. وكلاهما ولي الخلافة.

وقد روي من طريق الخيزران عن مولاها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «من اتقى الله وقاه الله كل شيء». ولما عرضت الخيزران على المهدي ليشتريها أعجبته إلا دقة ساقيها، فقال لها: يا جارية إنك لعلى غاية المنى لولا خوشة في ساقيك. فقالت: يا أمير المؤمنين إنك أحوج ما تكون إليهما لا تراهما فاستحسن جوابها واشتراها وحظيت عنده جداً. وقد حجت الخيزران مرة في حياة المهدي فكتب إليها وهي بمكة يستوحش لها ويتشوق إليها يقول:

نحن في غاية السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غيّب ونحن حضور

فأجدّوا في السير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته أو أمرت من أجابه:

قد أتانا الذي وصفت من الشو ... ق فكدنا وما فعلنا نطير

ليت أن الرياح كن يؤدين ... إليكم ما قد يُجنّ الضمير

لم أزل صبة فإن كنت بعدي ... في سرور فدام ذاك السرور

وذكروا أنه أهدى إليها محمد بن سليمان نائب البصرة مائة وصيف، مع كل وصيف جام من فضة مملوء مسكاً، فكتبت إليه: إن كان ما بعثته ثمنا عن ظننا فيك فظننا فيك أكثر مما بعثت، وقد بخستنا في الثمن، وإن كنت تريد به زيادة المودة فقد اتهمتني في المودة. وردت ذلك عليه، وقد اشترت الدار المشهوره بها بمكة المعروفة بدار الخيزران، فزادتها في المسجد الحرام.

وكان مغلّ ضياعها في كل سنة ألف ألف وستين ألفاً واتفق موتها ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من هذه السنة. فخرج ابنها الرشيد في جنازتها وهو حامل سريرها يخب في الطين. فلما انتهى الى المقبرة أتى بماء فغسل رجليه ولبس خفاً وصلى عليها، ونزل في لحدها. فلما خرج من القبر أتى بسرير فجلس عليه واستدعى بالفضل بن الربيع فولاه الخاتم والنفقات. وأنشد الرشيد قول متمم ابن نويرة حين دفن أمه الخيزران:

وكنا كندماني جذيمة برهة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وممن توفي في هذه السنة:

■ **غادر: جارية كانت لموسى الهادي**، كان يحبها حباً شديداً جداً، وكانت تحسن الغناء جيداً، فبينما هي يوماً تغنيه إذ أخذته فكرة غيبته عنها وتغير لونه، فسأله بعض الحاضرين: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: أخذتني فكرة أني أموت وأن أخي هارون يتولى الخلافة بعدي ويتزوج جاريتي هذه. ففداه الحاضرون ودعوا له بطول العمر. ثم استدعى أخاه هارون فأخبره بما وقع في فكره فعوذه الرشيد من ذلك، فاستحلفه الهادي بالأيمان المغلظة من الطلاق والعتاق والحج ماشياً حافياً أن لا يتزوجها، فحلف له واستحلف

الجارية بالحج والعتاق فحلفت له، فلم يكن إلا أقل من شهر حتى مات، فلما كان بعد ذلك بعث الرشيد إليها يخطبها، فقالت: كيف بالأيمان التي حلفتها وحلفتها. فقال: أنا أكفر عني وعنك، فتزوجها وحظيت عنده جداً، حتى كانت تنام في حجره فلا يتحرك خشية أن يزعجها من منامها. فبينما هي ذات ليلة نائمة معه إذ انتبهت مذعورة تبكي، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين رأيت الهادي مولاي في منامي هذا وهو يقول:

أخلفت عهدي بعد ما ... جاورت سكان المقابر
ونسيتني وحنثت في ... أيمانك الكذب الفواجر
ونكحت غادرة أخي ... صدق الذي سماك غادر
أمسيت في أهل البلى ... وغدوت في الحور الغرائر
لا يهنك الإلف الجديـ ... ـد ولا تدر عنك الدوائر
ولحقت بي قبل الصبا ... ح وصرت حيث غدوت صائر

فقال لها الرشيد: إنما هذا أضغاث أحلام. فقالت: كلا والله يا أمير المؤمنين، فكأنما كتبت هذه الأبيات في قلبي. ثم ما زالت تضطرب وترتعد حتى ماتت قبل الصباح.

■ هيلانة جارية الرشيد، وهو الذي سماها هيلانة لكثرة قولها هي لانه.

قال الأصمعي: وكان لها محباً، وكانت قبله ليحيى بن خالد بن برمك، فدخل الرشيد يوماً منزله قبل الخلافة فاعترضته في الطريق فقالت: أما لنا منك نصيب؟ فقال لها:وكيف السبيل إلى ذلك؟ فقالت: استوهبني من هذا الشيخ. فاستوهبها من يحيى بن خالد فوهبها له وحظيت عنده، ومكثت عنده ثلاث سنين ثم توفيت فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها واسترثاها وكان من قوله فيها:

قد قلت لما ضمنوك الثرى ... وجالت الحسرة في صدري
اذهب فلا والله لا سرني ... بعدك شيء آخر الدهر

وقال العباس بن الأحنف في موتها:

يامن تباشرت القبور بموتها ... قصد الزمان مساءتي فرماك
ابغي الأنيس فما أرى لي مؤنساً ... إلا التردد حيث كنت أراك
ملك بكاك وطال بعدك حزنه ... لو يستطيع بملكه لفداك
تحمي الفؤاد عن النساء حفيظة ... كي لا يحل حمى الفؤاد سواك

قال: فأمر له الرشيد بأربعين ألفاً، لكل بيت عشرة آلاف.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائة

فيها وقعت عصبية بالشام وتخبيط بين أهلها.

وفيها استقضى الرشيد يوسف ابن القاضي أبي يوسف وأبوه حي.

وفيها غزا الصائفة عبد الملك بن صالح فدخل بلاد الروم.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين الرشيد، فلما اقترب من مكة بلغه أن فيها وباء فلم يدخل مكة حتى كان وقت الوقوف فوقف ثم جاء المزدلفة ثم منى ثم دخل مكة فطاف وسعى ثم ارتحل ولم ينزل بها.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائة

فيها أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد من بعده لولده محمد بن زبيدة وسماه الأمين، وعمره إذ ذاك خمس سنين، فقال في ذلك سلم الخاسر:

قد وفق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده ... شهدا عليه بمنظر ومخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

وقد كان الرشيد يتوسم النجابة والرجاحة في عبدالله المأمون، ويقول: والله إن فيه حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي. ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت، وإني لأقدم محمد بن زبيدة عليه وإني لأعلم أنه متبع هواه ولكن لا أستطيع غير ذلك. ثم أنشأ يقول:

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني ... غلبت على الأمر الذي كان أحزما
وكيف يرد الدر في الضرع بعدما ... توزع حتى صار نهباً مقسما
أخاف التواء الأمر بعد استوائه ... وأن ينقض الأمر الذي كان أبرما

وغزا الصائفة عبد الملك بن صالح، في قول الواقدي.

وحج بالناس الخليفة هارون الرشيد.

وفيها سار يحيى بن عبد الله بن حسن إلى الديلم وتحرك هنالك.

وفيها توفي من الأعيان

■ شعوانة العابدة الزاهدة، كانت أمة سوداء كثيرة العبادة، روي عنها كلمات حسان، وقد سألها الفضيل بن عياض الدعاء فقالت: أما بينك وبينه ما إن دعوته استجاب لك؟ فشهق الفضيل ووقع مغشيا عليه.

■ الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي مولاهم.

قال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٢٧/٤]: كان مولى قيس بن رفاعة وهو مولى عبد الرحمن بن مسافر الفهمي، كان الليث إمام الديار المصرية ولد بقرقشندة من بلاد مصر سنة أربع وتسعين. وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، ونشأ بالديار المصرية.

وقال ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٢٨/٤]: أصله من قلقشندة وضبطه بلامين الثانية متحركة.

وحكى عن بعضهم أنه كان حنفي المذهب، وأنه ولي القضاء بمصر، وأنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة، وذلك غريب جداً.

وذكروا أنه كان يدخله من ملكه في كل سنة خمسة آلاف دينار.

وقال آخرون: كان يدخل له من الغلة في كل سنة ثمانون ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة.

وكان إماماً في الفقه والحديث والعربية.

قال الشافعي: كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه.

وبعث إليه مالك يستهديه شيئاً من العصفر لأجل جهاز ابنته، فبعث إليه بثلاثين حملا، فاستعمل منه مالك حاجته وباع منه بخمسمائة دينار. وبقي عنده بقية.

وحج مرة فأهدى له مالك طبقاً فيه رطب فرد الطبق وفيه ألف دينار.

وكان يهب الرجل من أصحابه من العلماء والعُبّاد الألف دينار وما يقارب ذلك.

وكان يخرج الى الإسكندرية في البحر هو وأصحابه في مركب ومطبخه في مركب. ومناقبه كثيرة جداً، وقد ذكرنا في «التكميل».

وحكى ابن خلكان [وفيات الأعيان: ١٢٨/٤] أنه سمع قائلاً يقول يوم مات الليث:

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريباً وقبر

فالتفتوا فلم يروا أحداً.

■ المنذر بن عبد الله بن المنذر القرشي: عرض عليه المهدي أن يلي القضاء ويعطيه من بيت المال مائة ألف درهم، فقال: إني كنت عاهدت الله أن لا يلي شيئاً، وأعيذ أمير المؤمنين بالله أن أخيس بعهدي. فقال له المهدي: آلله؟ قال: الله. قال: انطلق فقد أعفيتك.

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائة

فيها كان ظهور يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ببلاد الديلم، واتبعه خلق كثير وجم غفير، وقويت شوكته، وارتحل إليه الناس من الكور والأمصار، فانزعج لذلك الرشيد وقلق من أمره، فندب إليه الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك في خمسين ألفاً، وولاه كور الجبل والري وجرجان وطبرستان وقومس والرُّويان وغير ذلك. فسار الفضل ابن يحيى إلى تلك الناحية في أبهة عظيمة، وكتب الرشيد تلحقه مع البرد في كل منزلة، وأنواع التحف والبر، وكاتب الفضل صاحب الديلم ووعده بألف ألف درهم إن هو سهل خروج يحيى بن عبدالله إليهم، وكتب الفضل إلى يحيى بن عبد الله يعده ويمنيه ويؤمله ويرجيه، ويبسط أمله إن هو خرج إليه أن يقيم له العذر عند الرشيد. فامتنع يحيى أن يخرج إليهم حتى يكتب له الرشيد كتاب أمان بيده. فكتب الفضل إلى الرشيد بذلك ففرح الرشيد ووقع منه موقعاً عظيماً. وكتب الأمان بيده وأشهد عليه القضاة والفقهاء ومشيخة بني هاشم، منهم عبد الصمد بن علي، وبعث الأمان وأرسل معه جوائز وتحفاً كثيرة جداً، فلما وصلت إلى الفضل بعثها بكمالها إلى يحيى بن عبد الله، فخرج يحيى بن عبد الله إليهم، فسار به الفضل فدخل به بغداد، وتلقاه الرشيد وأكرمه وأجزل له العطاء، وخدمه آل برمك خدمة عظيمة، بحيث إن يحيى بن خالد كان يتولى: خدمته بنفسه: وعظم الفضل عند الرشيد جداً بهذه الفعلة حيث سعى في الإصلاح بين العباسيين والفاطميين.

ففي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة يمدح الفضل بن يحيى ويشكره على سعيه هذا:

ظفرت فلا شلت يد برمكية رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامه فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم

فأصبحت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم

ومازال قدح الملك يخرج فائزاً لكم كلما ضمت قداح المساهم

قالوا: ثم إن الرشيد تنكر ليحيى بن عبد الله بن حسن وتغير عليه، ويقال: إنه سجنه ثم استحضره الرشيد وعنده القاضيان محمد بن الحسن وأبو البختري وعنده الجماعات من الهاشميين وغيرهم، وأحضر الأمان الذي كان بعثه إليه فسأل محمد بن الحسن عن هذا الأمان أصحيح هو؟ قال: نعم! فتغيظ الرشيد عليه. وقال أبو البختري: ليس وهو بصحيح فاحكم فيه بما شئت، ومزق الأمان. ويصق فيه أبو البختري، وأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال: هيه هيه، وهو يتبسَّم تبسم المغضب، وقال: إن الناس يزعمون أنا سممناك. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين إن لنا قرابة ورحماً وحقاً، فعلام تعذبني وتحبسني؟ فرق له الرشيد، فاعترض بكار بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير فقال: يا أمير المؤمنين لا يغرنك كلام هذا، فإنه عاص شاق، وإنما هذا منه مكر وخبث. وقد أفسد علينا مدينتنا وأظهر فيها العصيان فقال له يحيى: ومن أنتم عافاكم الله؟ وإنما هاجر أبوك إلى المدينة بأبائي وآباه هذا ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين إنما الناس نحن وأنتم والله يا أمير المؤمنين. لقد جاء إليَّ هذا حين قتل أخي محمد بن عبد الله فقال: لعن الله قاتله، وأنشدني فيه نحواً من عشرين بيتاً، وقال: إن تحركت في هذا الأمر فأنا أول من يبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة وأيدينا معك؟ قال: فتغير وجه الزبيري وأنكر وشرع يحلف بالأيمان المغلظة: إنه لكاذب في ذلك، وتنمَّر الرشيد وقال ليحيى: أتحفظ شيئاً من المرثية؟ قال: نعم. وأنشده منها جانباً. فازداد الزبيري في الإنكار، فقال له يحيى بن عبد الله: فقل: إن كنت كاذباً فقد برئت من حول الله وقوته، ووكلني الله إلى حولي وقوتي. فامتنع من الحلف بذلك، فعزم عليه الرشيد وتغيظ عليه، فحلف بذلك فما كان إلا أن خرج من عند الرشيد فرماه الله بالفالج فمات من ساعته. ويقال إن امرأته غمست وجهه بمخدة فقتلته، فالله أعلم.

ثم إن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله بن حسن وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال إنما حبسه بعض يوم وقيل ثلاثة أيام. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش بعد ذلك كله شهراً واحداً ثم مات رحمه الله وأكرم مثواه.

وفي هذه السنة وقعت فتنة عظيمة بالشام بين النزارية، وهم قيس، واليمانية، وهذا كان أول بدو أمر العشرين بحوران، وهم قيس ويمن، أعادوا ماكانوا عليه في الجاهلية في هذا الأوان، فقتل منهم في بشر كثير.

وكان على نيابه الشام كلها من جهة الرشيد ابن عمه موسى بن عيسى، وقيل عبد الصمد بن علي فالله أعلم.

وكان على نيابة دمشق بخصوصها سندي بن شاهك أحد موالي ابي جعفر المنصور، وقد هدم سور دمشق حين هاجت الفتنة خوفاً من أن يتغلب عليها أبو الهيذام المري رأس القيسية، وقد كان سندي هذا دميم الخلق.

قال الحافظ: وكان لا يحلف المكاري ولا الملاح ولا الحائك، يقول: القول قولهم، ويستخير الله في الجمال ومعلم الكتاب. وقد توفي سندي سنة أربع ومائتين.

فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى بن خالد ومعه جماعة من القواد ورؤوس الكتاب، فأصلحوا بين الناس وهدأت الفتنة واستقام أمر الشام، وحملوا جماعات من رؤوس الفتنة إلى دار السلام فرد الرشيد أمرهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وأطلقهم، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده

فصُبَّ موسى عليها بخيله وجنوده

فدانت الشام لما أتى نسيجُ وحيده

هذا الجواد الذي بُذ كل جود بجوده

أعداه جود أبيه يحيى وجود جدوده
فجاد موسى بن يحيى بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي مشوره وقصيده
من البرامك عُودٌ له فاكرم بعوده
حووا على الشعر طراً خفيفه ومديده

وفيها عزل الرشيد الغطريف بن عطاء عن خراسان وولاها حمزة بن مالك بن الهيثم الخزاعي الملقب بالعروس.

وفيها ولى الرشيد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك نيابة مصر، جعفر فاستناب عليها عمر بن مهران، وكان شنيع الشكل، زريَّ الخَلْق، بيِّن الكِبْنة أحول، وما كان سبب ولاية الرشيد إياه الديار المصرية أن نائبها موسى بن عيسى كان قد عزم على خلع الرشيد. فقال الرشيد: والله لأعزلنه ولأولين عليها أخسَّ الناس. فاستدعى عمر بن مهران هذا فولاه عليها نيابة عن جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي فسار إليها عمر بن مهران على بغل وغلامه أبو درة على بغل آخر، فدخلها كذلك فانتهى إلى مجلس نائبها موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس، فلما انفض الناس أقبل عليه موسى بن عيسى وهو لا يعرف من هو، فقال: ألك حاجة يا شيخ؟ قال: نعم أصلح الله الأمير. ثم قام بالكتب، فدعها إليه، فلما قرأها قال: أنت عمر بن مهران؟ قال: نعم! قال: لعن الله فرعون حين قال: ﴿أليس لي ملك مصر﴾؟ ثم سلم إليه العمل وارتحل عنها، وأقبل عمر بن مهران على عمله، وكان لايقبل شيئاً من الهدايا إلا ما كان ذهباً أو فضة أو قماشاً، ويكتب على كل هدية اسم مهديه، ثم إنه طالب بالخراج وألحَّ عليهم في ذلك، فشرع بعضهم في مما طلته فاقسم لا يماطله أحد إلا فعل به وفعل. فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، وكان يبعث ما جمعه الى بغداد، ومن ماطله بعثه الى بغداد. فتأدب الناس معه. ثم جاءهم القسط الثاني فعجز كثير منهم عن الأداء فجعل يستحضر ما كانوا أدوه إليه من الهدايا، فإن كان نقداً أداه عنهم، وإن كان براً باعه وأداه عنهم. وقال لهم: إني إنما ادخرت هذا لكم الى وقت حاجتكم. ثم أكمل استخراج جميع الخراج بديار مصر ولم يفعل ذلك أحد قبله. ثم انصرف عنها لأنه كان قد شرط على الرشيد أنه إذا مهد البلاد وجبى الخراج، فذاك إذنه في الإنصراف. ولم يكن معه بالديار المصرية جيش ولا غيره سوى مولاه أبو درة وحاجبه، وهو منفذ أموره.

وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك ففتح حصناً.

وفيها حجت زبيدة زوجة الخليفة ومعها أخوها، وكان أمير الحج في هذه السنة سليمان بن أبي جعفر المنصور عم الرشيد.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس، كان أميراً على مصر، توفي في شعبان، حكى عنه عبدالله بن وهب.

■ إبراهيم ابن هرمة الشاعر، وهو إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة أبو إسحاق الفهري المدني شاعر مُفْلِق، وفد على المنصور بغداد في وفد أهل المدينة حين استوفدهم إليه، فقدموا عليه فجلسوا إلى ستر دون المنصور، يرى الناس من ورائه ولا يرونه، وأبو الخصيب الحاجب واقف يقول: يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب، فيأمره فيخطب، ويقول: هذا فلان الشاعر فيستنشده. حتى كان من آخرهم ابن هرمة هذا، قال: فسمعته يقول: لامرحباً ولا أهلا ولا أنعم الله به عيناً. قال: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهبت والله نفسي، ثم رجعت إلى نفسي هلكت، ثم استنشدني فأنشدته قصيدتي التي أقول فيها:

سرى ثوبه عنك الصِّبا المتخايل وقرب للبين الخليط المزايل

حتى انتهيت الى قولي:

فأما الذي أمته يأمن الردى وأما الذي حاولت بالثكل ثاكل

قال: فأمر برفع الحجاب فإذا وجهه كأنه فلقة قمر، فاستنشدني بقية القصيدة وأمرني بالقرب إليه والجلوس بين يديه، ثم قال: ويحك يا إبراهيم! لولا ذنوب بلغتني عنك لفضلتك على أصحابك فأقرَّ عليَّ بذنوبك أعفها عنك، فقلت: هذا رجل فقيه عالم، وإنما يريد أن تقيلني بمجة تجب علي، فقلت: يا أمير المؤمنين كل ذنب بلغك مما عنوته عني فأنا مقرُّبه. فتناول المخصرة فضربني بها ضربتين وأمر لي بعشرة آلاف درهم وخلعة وعفا عني وألحقني بنظرائي.

وكان من جملة ما ينقمه المنصور عليه قوله:

ومهما ألام على حبهم فإني أحب بني فاطمه
بني بنت من جاء بالمحكما ت وبالدين والسنة القائمه
فلست أبالي بحبي لهم سواهم من النعم السائمه

قال الأخفش. قال لنا ثعلب قال الأصمعي: ختم الشعراء بابن هرمة وهو آخر المُدِج.

ذكر وفاته في هذه السنة أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم [٩/٢١].

■ الجراح بن مليح والد وكيع بن الجراح.

■ سعيد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن جميل أبو عبد الله المديني، ولي قضاء بغداد سبع عشرة سنة بعسكر المهدي، وثقه ابن معين وغيره.

■ صالح بن بشير المرّي: أحد العباد الزهاد، كان كثير البكاء وكان يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثوري فيقول: هذا نذير قوم، وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء راكباً على حمار فدنا من بساط الخليفة فأمر المهدي ابنيه - وليَّي العهد موسى الهادي وهارون الرشيد، فابتدراه، فأقبل صالح على نفسه فقال: لقد خبت وخسرت إن كنت عملت لهذا اليوم، إليه ليتزلاه. ثم جلس الى المهدي فوعظه فقال له: اعلم أن رسول الله ﷺ خصم من خالفه في أمته، ومن كان محمد ﷺ خصمه كان الله خصمه، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله ﷺ حججاً تضمن لك النجاة، وإلا فاستسلم للهلكة، واعلم أن أبطأ الصرعى نهضة صريع هوى يدَّعيه إلى الله قُربة، وأن أثبت الناس قدماً يوم القيامة آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، في كلام طويل. فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه.

■ عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. قدم قاضياً بالعراق فمات في هذا العام.

■ فرج بن فضالة الحمصي التنوخي، كان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد، فتوفي في هذه السنة، وكان مولده سنة ثمان وثمانين فمات وله ثمان وثمانون سنة.

ومن مناقبه أن المنصور دخل يوماً إلى قصر الذهب فقام الناس إلا الفرج بن فضالة فقال له وقد غضب عليه: لم لم تقم؟ قال: خفت أن يسألني الله عن ذلك ويسألك لم رضيت وقد كرهه رسول الله ﷺ. قال:

فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه.

■ **المسيب بن زهير بن عمرو** أبو مسلم الضبي، كان والي الشرطة ببغداد في أيام المنصور والمهدي والرشيد، وولي خراسان مرة للمهدي. وكانت وفاته في هذه السنة عن ست وسبعين سنة.

■ **الوضاح بن عبد الله** أبو عوانة اليشكري مولاهم، كان من أئمة المشايخ في الرواية. توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائة

فيها عزل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي عن مصر وولى عليها إسحاق بن سليمان، وعزل حمزة بن مالك عن خراسان وولى عليها الفضل بن يحيى البرمكي مضافاً إلى ما كان بيده من الأعمال بالري وسجستان وغير ذلك.

وذكر الواقدي أنه أصاب الناس ريح شديدة وظلمة في أواخر المحرم من هذه السنة، وكذلك في أواخر صفر منها.

وحج بالناس وأمير المؤمنين هارون الرشيد.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **شريك بن عبد الله القاضي الكوفي النخعي**، سمع أبا إسحاق السبيعي وغير واحد، وكان مشكوراً في حكمه وتنفيذه وتضمينه، وكان لايجلس للحكم حتى يتغدى ثم يخرج ورقة من قمطره فينظر فيها ثم يأمر بتقديم الخصوم إليه، فحرص بعض أصحابه على قراءة ما في تلك الرقعة فإذا فيها يا شريك بن عبد الله اذكر الصراط وحدته يا شريك بن عبد الله اذكر الموقف بين يدي الله عز وجل. كانت وفاته يوم السبت مستهل ذي القعدة منها.

■ **عبد الواحد بن زيد**

■ **محمد بن مسلم**

■ **موسى بن أعين**.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائة

فيها وثبت طائفة من الحوفية من قيس وقضاعة بعامل مصر إسحاق بن سليمان فقاتلوه وجرت فتنة عظيمة فبعث الرشيد هرثمة بن أعين نائب فلسطين في خلق من الأمراء مدداً لإسحاق بن سليمان، فقاتلوهم حتى أذعنوا بالطاعة وأدّوا ما عليهم من الخراج والوظائف، واستمر هرثمة نائباً على مصر نحواً من شهر عوضاً عن إسحاق بن سليمان، ثم عزله الرشيد عنها وولى عليها عبدالملك بن صالح.

وفيها وثبت طائفة من أهل إفريقية فقتلوا الفضل بن روح بن حاتم وأخرجوا من كان بها من آل المهلب، فبعث إليهم الرشيد هرثمة فرجعوا إلى الطاعة على يديه.

وفيها فوض الرشيد أمور الخلافة كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك.

وفيها خرج الوليد بن طريف بالجزيرة وحكم بها وقتل خلقاً من أهلها، ثم مضى منها إلى أرمينية فكان من أمره ما سنذكره.

وفيها سار الفضل بن يحيى إلى خراسان فأحسن السيرة بها، وبنى فيها الربط والمساجد، وغزا ما وراء النهر. واتخذ بها جنداً من العجم سماهم العباسية، وجعل ولاءهم لهم، وكانوا نحواً من خمسمائة ألف، وبعث منهم نحواً من عشرين ألفاً إلى بغداد، فكانوا يعرفون بها بالكرنبيَّة، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ... عند الحروب إذا ما تأفل الشهب

حامٍ على ملك قوم عزُّ سهمهم ... من الوراثة في أيديهم سبب

أمست يد لبني ساقي الحجيج بها ... كتائب مالها في غيرهم أرب

كتائب لبني العباس قد عرفت ... ما ألّف الفضل منها العجم والعربُ

أثبت خمس مئين في عدادهم ... من الألوف التي أحصت لها الكتبُ

يقارعون عن القوم الذين هم ... أولي بأحمد في القرآن إن نسبوا

إن الجواد ابن يحيى الفضل لاوَرِقٌ ... يبقى على جود كفيه ولا ذهب

مامر يوم له مذ شدَّ مترره ... إلا تمول أقوام بما يهب

كم غاية في الندى والبأس أحرزها ... للطالبين مداها دونها تعب

يعطي اللُّهى حين لا يعطي الجواد لا ... ينبو إذا سُلَّت الهنديّة القضب

ولا الرضى والرضى للّه غايته ... إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضبُ

قد فاض عرفك حتى مايعادله ... غيث مغيث ولا بحر له حدب

وكان قد أنشده قبل خروجه إلى خراسان:

ألم تر أن الجود من لدن آدم ... تحدر حتى صار في راحة الفضل

إذا ما أبو العباس راحت سماؤه ... فيالك من هطل ويا لك من وَبْلُ

إذا أم طفل راعها جوع طفلها ... دعته باسم الفضل فاستطعم الطفلُ

ليحيى بك الإسلام إنك عزه ... وإنك من قوم صغيرهم كهل

قال فأمر له بمائة ألف درهم. ذكر ذلك كله أبوجعفر بن جرير.

وقال سلم الخاسر فيهم أيضاً:

وكيف تخاف من بؤس بدار ... تكنفها البرامكة البحور

وقوم منهم الفضل بن يحيى ... نفير ما يوازنه نفير

له يومان يوم ندى ويأس ... كأن الدهر بينهما أسير

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر ... فهمته أمير أو وزير

وقد اتفق للفضل بن يحيى في هذه السفرة إلى خراسان أشياء غريبة، وفتح بلاداً كثيرة، منها كابل وما وراء النهر، وقهر ملك الترك هناك وكان ممتنعاً، وأطلق أموالا كثيرة جداً، ثم قفل راجعاً إلى بغداد، فلما اقترب منها خرج الرشيد ووجوه الناس إليه، وقدم عليه الشعراء والخطباء وأكابر الناس، فجعل يطلق الألف ألف، والخمسمائة ألف ونحوها، وصرف من الأموال في ذلك شيئاً كثيراً جداً لا يمكن حصره إلا بكلفة عظيمة، وقد دخل عليه بعض الشعراء والبدر موضوعة مختومة بين يديه وهي تفرق على الناس فقال:

كفى الله بالفضل بن يحيى بن ... وجود يديه بخل كل بخيل

فأمر له بمال جزيل.

وغزا الصائفة في هذه السنة معاوية بن زفر بن عاصم، وغزا الشاتية سليمان بن راشد.

وحج بالناس فيها محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن

عباس وهو نائب مكة كرمها الله.

وفيها توفي

جعفر بن سليمان، وعبثر بن القاسم، عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم القاضي ببغداد، وصلى عليه الرشيد ودفن بها، وقد قيل إنه مات في التي قبلها فالله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائة

فيها كان قدوم الفضل بن يحيى من خراسان وقد استخلف عليها عمرو بن شرحبيل، فولى الرشيد عليها منصور بن يزيد بن منصور الحميري.

وفيها عزل الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن الحجبة وردها إلى الفضل بن الربيع.

وفيها خرج بخراسان حمزة بن أترك السجستاني، وكان من أمره ما سيأتي طرف من ذكره.

وفيها رجع الوليد بن طريف الشاري إلى الجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فراوغه حتى قتله وتفرق أصحابه، فقالت الفارعة في أخيها الوليد بن طريف ترثيه:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتىً لايحبُّ الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قناً وسيوف

وفيها خرج الرشيد معتمراً من بغداد معتمراً شكراً لله عز وجل، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة حتى حج بالناس في هذه السنة، فمشى من مكة إلى منى ثم إلى عرفات، وشهد المشاهد والمشاعر كلها ماشياً، ثم انصرف إلى بغداد على طريق البصرة.

وذكر من توفي فيها من السادة الأعيان

■ **السيد الحميري الشاعر الرافضي**

■ إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة أبو هاشم الحميري الملقب بالسيد، كان من الشعراء المشهورين والمبرزين في هذه الصناعة المفوهين، ولكنه كان رافضياً خبيثاً، وشيعياً غثيثاً، وكان ممن يشرب الخمر ويقول بالرجعة - أي بالدور .

قال يوماً لرجل: أقرضني ديناراً ولك عندي مائة دينار إذا عدنا إلى الدنيا. فقال له الرجل: إني أخشى أن تعود كلباً أو خنزيراً فيذهب مالي.

وكان قبحه الله يسب الصحابة في شعره ويشتم الخيرة.

قال الأصمعي: ولولا ذلك ما قدمت عليه أحداً في طبقته، ولا سيما الشيخين وابنتيهما، رضي الله عنهم، ولعنه وأسحقه وأبعده .

وقد أورد ابن الجوزي [المنتظم:٩/٤٠] شيئاً من شعره في ذلك كرهت كتابته، وقد اسود وجهه قبل موته وأصابه كرب شديد جداً. ولما مات لم يدفنوه لسبه الصحابه رضي الله عنهم

وفيها توفي:

■ حماد بن زيد أحد أئمة الحديث.

■ خالد بن عبد الله الطّحان، من سادات المسلمين، وشَرَى نفسه من الله أربع مرات.

■ مالك بن أنس الإمام.

■ المقل بن زياد صاحب الأوزاعي.

■ أبو الأحوص. وكلهم قد ذكرناهم في كتابنا التكميل. بما فيه مقنع وكفاية بما يغني عن ذكرهم هنا. ولكن الإمام مالك هو أشهرهم فإنه أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة فهو

■ مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خُثيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح الحميري، أبو عبد الله المدني إمام دار الهجرة في زمانه.

روى مالك عن غير واحد من التابعين، وحدث عنه خلق من الأئمة، منهم السفيانان، وشعبة، وابن المبارك، والأوزاعي، وابن مهدي وابن جريج والليث والشافعي والزهري شيخه، ويحيى بن سعيد الأنصاري وهو شيخه، ويحيى بن سعيد القطان، ويحيى بن يحيى الأندلسي، ويحيى بن يحيى النيسابوري.

قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر.

وقال سفيان بن عيينة: ما كان أشد انتقاده للرجال.

وقال يحيى بن معين: كل من روى عنه مالك فهو ثقة، إلا أبا أمية.

وقال غير واحد: هو أثبت أصحاب نافع والزهري.

وقال الشافعي: إذا جاء الحديث فمالك النجم.

وقال أيضاً: من أراد الحديث فهو عيال على مالك.

ومناقبة وفضائله كثيرة جداً، وثناء الأئمة عليه أكثر من أن يحصر في هذا المكان.

قال أبو مصعب: سمعت مالكاً يقول: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك.

وكان إذا أراد التحديث تنظف وتطيب ولبس أحسن ثيابه، وكان يلبس حسناً. وكان نقش خاتمه حسبي الله ونعم الوكيل.

وكان إذا دخل منزله يقول: ما شاء الله لاقوة إلا بالله. وكان منزله مبسوطاً بأنواع الفُرش. ومن وقت خروج محمد بن عبد الله بن حسن لزم مالك بيته فلم يكن يتردّد إلى أحد لا لعزاء ولا لهناء، حتى قيل: ولا يخرج إلى جماعة ولا جمعة، ويقول: ما كل ما يعلم يقال، وليس كل أحد يقدر على الاعتذار ولما احتضر رحمه الله شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ثم جعل يقول: لله الأمر من قبل ومن بعد، ثم قبض في ليلة أربعة عشر من صفر، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة، وله خمس وثمانون سنة.

قال الواقدي: بلغ تسعين سنة ودفن بالبقيع.

وقد روى الترمذي [٢٦٨٠] عن سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن ابي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة رواية: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة». ثم قال: هذا حديث حسن وهو حديث ابن عيينة، وقد روي عن ابن عيينة أنه قال: هو مالك بن أنس. وكذا قال عبد الرزاق.

وعن ابن عيينة رواية أنه عبد العزيز بن عبد الله العمري. وقد ترجمه القاضي ابن خلكان في الوفيات فأطنب وأتى بفوائد جمة.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائة

فيها هاجت الفتنة بالشام بين النزارية واليمنية. فانزعج الرشيد لذلك فندب جعفراً البرمكي إلى الشام في جماعة من الأمراء والجنود، فدخل الشام

فانقاد الناس له ولم يدع جعفر بالشام فرساً ولا سيفاً ولا رمحاً إلا استلبه من الناس، وأطفأ الله به نار تلك الفتنة.

وقد ذلك يقول بعض الشعراء في ذلك:

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد تراضى به قحطانها ونزارها

ثم كر جعفر راجعاً إلى بغداد بعد ما استخلف على الشام عيسى بن العكي، ولما قدم على الرشيد أكرمه وقربه وأدناه، وشرع جعفر يذكر كثرة وحشته له في الشام، ويحمد الله الذي من عليه برجوعه إلى أمير المؤمنين ورؤيته وجهه.

وفيها ولى الرشيد جعفراً خراسان وسجستان فاستعمل على ذلك محمد بن الحسن بن قحطبة، ثم عزل الرشيد جعفراً عن خراسان بعد عشرين ليلة.

وفيها هدم الرشيد سور الموصل بسبب كثرة الخوارج هناك، وجعل الرشيد جعفراً على الحرس، ونزل الرشيد الرقة واستوطنها واستناب على بغداد ابنه الأمين محمداً وولاه العراقين، وعزل هرثمة بن أعين عن إفريقية واستدعاه إلى بغداد فاستنابه جعفر على الحرس.

وفيها كانت بمصر زلزلة شديدة سقط منها رأس منارة الإسكندرية.

وفيها خرج بالجزيرة خراشة الشيباني فقتله مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي.

وفيها ظهرت طائفة بجرجان يقال لها المحمرة لبسوا الحمرة واتبعوا رجلا يقال لهم: عمرو بن محمد العمركي، وكان ينسب إلى الزندقة، فبعث الرشيد يأمر بقتله فقتل بمرو وأطفأ الله نارهم في ذلك الوقت.

وفيها غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم.

وحج بالناس موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان

■ إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري: قارىء أهل المدينة ومؤدب عليّ بن المهدي ببغداد. وقد أقام مدة ببغداد يؤدب عليّ بن المهدي في هذه السنة.

وفيها كانت وفاة

■ علي بن المهدي وقد ولي إمارة الحج غير مرة، كما تقدم وكان أسن من الرشيد بشهور.

■ حسان بن أبي سنان بن أبي أوفى بن عوف التوخي الأنباري، ولد سنة ستين، ورأى أنس بن مالك ودعا له فجاء من نسله قضاة ووزراء وصلحاء، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية. وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية، وكان يعرِّب الكتب بين يدي ربيعة لما ولاه السفاح الأنبار.

وفيها توفي:

■ عبد الوارث بن سعيد التَّنُّوري أحد الثقات

و■ عافية بن يزيد بن قيس القاضي للمهدي على الجانب الشرقي من بغداد، هو وابن علاثة، وكانا يحكمان بجامع الرصافة، وكان عافية عابداً زاهداً ورعاً، دخل يوماً على المهدي في وقت الظهيرة فقال: يا أمير المؤمنين أعفني، فقال له المهدي: ولم؟ أعترض عليك أحد من الأمراء؟ فقال: لا ولكن كان بين اثنين خصومة عندي فعمد أحدهما إلى رطب السكر - وكأنه سمع أني أحبه - فأهدى إلي منه طبقاً لايصلح إلا لأمير المؤمنين، فرددته عليه، فلما أصبحا: وجلسنا إلى الحكومة لم يستويا عندي في قلبي ولا نظري، ومال قلبي إلى المهدي منهما، هذا وما قبلت منه فكيف لو قبلت منه؟ فأعفني يا أمير المؤمنين عفا الله عنك فأعفاه. وقال الأصمعي: كنت عند الرشيد يوماً وعنده عافية القاضي وقد أحضره لأن قوماً استعدوا عليه إلى الرشيد، فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب الخليفة عما يسأله. وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية، فقال له الرشيد: لم لم تشمتني مع الناس؟ فقال: لأنك لم تحمد الله، واحتج بالحديث في ذلك. فقال له الرشيد: ارجع لعملك فو الله ما كنت لتفعل ما قيل عنك، وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها. ثم رده رداً جميلا إلى ولايته.

وفيها توفي: -

■ سيبويه: إمام النحاة، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، المعروف بسيبويه النحوي، مولى بني الحارث بن كعب، وقيل مولى آل الربيع بن زياد، وإنما سمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك، ومعنى سيبويه رائحة التفاح، وقد كان في ابتداء أمره يصحب المحدِّثين والفقهاء، وكان يستملي على حماد بن سلمة، فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك، فلزم الخليل بن أحمد فبرع في النحو، ودخل بغداد وناظر الكسائي.

وكان سيبويه شاباً حسناً جميلا نظيفاً، وقد تعلق من كل علم بسبب، وضرب في كل أدب بسهم، مع حداثه سنة وبراعته في النحو.

وقد صنف في النحو كتاباً لا يلحق شأوه، وشرحه أئمة النجاة بعده فانغمروا في لجج بحره، واستخرجوا من جواهر حاصِله، ولم يبلغوا إلى قعره. وقد زعم ثعلب أنه لم ينفرد بتصنيفه، وقد تساعد جماعة في تصنيفه نحو من أربعين نفساً هو أحدهم، وهو أصول الخليل، فادعاه سيبويه لنفسه. وقد استبعد ذلك السيرافي في كتاب طبقات النحاة. قال: وقد أخذ سيبويه اللغات عن أبي الخطاب الأخفش وغيره وكتابه المشهور «بالكتاب» لم يُسبق إلى مثله، ولا يلحقه في أحد.

وكان سيبويه يقول: سعيد بن أبي العروبة، والعروبة يوم الجمعة، وكان يقول: من قال عروبة فقد أخطأ، فذكر ذلك ليونس فقال أصاب لله دره.

وقد ارتحل الى خراسان ليحظى عند طلحة بن طاهر فإنه كان يحب النحو فعرض هناك مرضه الذي توفي فيه فتمثل عند الموت:

يؤمل دنيا لتبقى له فمات المؤمل قبل الأمل
حثيثاً يُروِّي أصولَ الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

ويقال: إنه لما احتضر وضع رأسه في حجر أخيه فدمعت عين أخيه فاستفاق فرآه يبكي فقال:

وكنا جميعاً فرق الدهر بيننا الى الأمد الأقصى فمن يأمن

قال الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد:١٩٩/١٢]: يقال إنه توفي وعمره ثنتان وثلاثون سنة.

وفيها توفيت

■ **عفيرة العابدة:** كانت طويلة الحزن كثيرة البكاء. قدم قريب لها من سفر فجعلت تبكي، فقيل لها: ليس هذا وقت بكاء! فقالت: لقد ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله، فمسرور ومثبور.

وفيها مات:

■ **مسلم بن خالد الزنجي** شيخ الشافعي. كان من أهل مكة، وقد تكلموا فيه لسوء حفظه.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة

فيها غزا أمير المؤمنين هارون الرشيد بلاد الروم ففتح حصناً يقال له الصفصاف، فقال في ذلك مروان بن أبي حفصة:

إن أمير المؤمنين المصطفى ... قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

وفيها غزا عبد الملك بن صالح بلاد الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة.

وفيها تغلبت المحمِّرة على جرجان.

وفيها أمر الرشيد أن يكتب في صدور الرسائل الصلاة على رسول الله ﷺ بعد الثناء على الله عز وجل.

وفيها حج بالناس الرشيد وتعجل في النفر، وسأله يحيى بن خالد أن يعفيه من الولاية فأعفاه وأقام يحيى بمكة.

ذكر من توفي فيها من الأعيان:

■ **الحسن بن قحطبة** أحد أكابر الأمراء العباسية.

■ **حمزة بن مالك**، ولي إمرة خراسان في أيام الرشيد.

■ **خلف بن خليفة** شيخ الحسن بن عرفة عن مائة سنة.

■ **عبد الله بن المبارك: أبو عبد الرحمن المروزي**، كان أبوه تركياً مولى لرجل من التجار من بني حنظلة من أهل همذان، وكان ابن المبارك إذا قدمها أحسن إلى ولد مولاهم، وكانت أمه خوارزمية، ولد سنة ثمان عشرة ومائة.

وسمع إسماعيل بن خالد، والأعمش، وهشام بن عروة، وحميداً الطويل، وغيرهم من أئمة التابعين.

وحدث عنه خلائق من الناس، وكان موصوفاً بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة، له التصانيف الحسان، والشعر المتضمن حكماً جمة، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مال نحو أربعمائة ألف يدور يتجر به في البلدان، فحيث اجتمع بعالم أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف ينفقها كلها في أهل العلم والعبادة، وربما أنفق من رأس المال.

قال سفيان بن عيينة: نظرت في أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلون عليه إلا بصحبتهم رسول الله ﷺ.

وقال إسماعيل بن عياش: ما على وجه الأرض مثله، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك، ولقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم.

وقدم مرة الرقة وبها هارون الرشيد، فلما دخلها وانجفل الناس إلى ابن المبارك وازدحم الناس حوله، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك فقالت: ما للناس؟ فقيل لها: قدم رجل من علماء خراسان يقال له عبد الله بن المبارك فانجفل الناس إليه. فقالت المرأة: هذا هو الملك، لاملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة.

وخرج مرة الى الحج فاجتاز ببعض البلاد فمات طائر معهم فأمر بإلقائه على مزبلة، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت فكشف عن أمرها وفحص، حتى سألها فقالت: أنا وأختي ههنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة. وقد حلت لنا الميتة، وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل. فأمر ابن المبارك برد الأحمال وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عد منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي. فهذا أفضل من حجنا في هذا العام، ثم رجع.

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه: من عزم منكم على الحج، فيأخذ نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب، وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا المناسك فيقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية، فيشتري لكل واحد منهم ما وصاه أهله من الهدايا المكية واليمنية وغيرها، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية، فإذا قفلوا بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبيضت أبوابها ورمم شعثها، وإذا رجعوا إلى أوطانهم عمل وليمةً بعد قدومهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه وأخرج منه تلك الصرر ثم يقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم وهم شاكرون ناشرون لواء الثناء الجميل.

وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك، يطعمه وهو صائم لله عز وجل في الحر الشديد.

وسأله مرة سائل فأعطاه درهماً فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون في غذائهم الشواء والفالوذج، وقد كان يكفيه قطعة. فقال: والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز، فأما إذا كان يأكل الشواء والفالوذج فلا بدّ من عشرة دراهم يا غلام: رده وادفع وأعطه عشرة دراهم.

وفضائله ومناقبه كثيرة جداً.

قال أبو عمر بن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله.

توفي عبد الله بن المبارك بهيت في هذه السنة في رمضانها عن ثلاث وستين سنة.

■ **مفضل بن فضالة** ولي قضاء مصر مرتين، وكان ديناً ثقة، سأل الله أن يذهب عنه الأمل فأذهبه، فكان بعد ذلك لايهنئه عيش ولاشيء من الدنيا، فسأل الله أن يرده عليه فرده فرجع إلى حاله.

■ **يعقوب التالب:** العابد الكوفي، قال علي بن الموفق عن منصور بن عمار: خرجت ذات ليلة وأنا أظن أني قد أصبحت، فإذا عليَّ ليل، فجلست إلى باب صغير وإذا شاب يبكي وهو يقول: وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولكن سولت لي نفسي، وغلبتني شقوتي، وغرني سترك المرخى عليَّ فالآن من عذابك من يستنقذني؟ وبحبل من أتصل إن أنت قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه على ما مضى من أيامي في معصية ربي: يا ويلي كم أتوب وكم أعود، قد حان لي أن أستحيي من ربي عز وجل. قال منصور فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

مَايُؤمَرونَ﴾ [التحريم ٦] قال: فسمعت صوتاً واضطراباً شديداً فذهبت لحاجتي، فلما رجعت مررت بذلك الباب فإذا جنازة، فسألت عنه فإذا هو قد مات من سماع هذه الآية.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائة

فيها أخذ الرشيد لولده عبد الله المأمون ولاية العهد من بعد أخيه محمد ابن زبيدة الأمين وذلك بالرقة بعد مرجعه من الحج، وضم ابنه المأمون إلى جعفر بن يحيى البرمكي ثم أرسله إلى بغداد ومعه جماعة من أهل الرشيد خدمة له، وولاه خراسان وما يتصل بها، وسماه المأمون.

وفيها رجع يحيى بن خالد البرمكي من مجاورته بمكة إلى بغداد.

وفيها غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فبلغ مدينة أصحاب الكهف.

وفيها سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن اليون وملكوا عليهم أمه رينى وتلقب أغسطة.

وحج بالناس فيها موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس.

وفيها توفي من الأعيان

■ إسماعيل بن عياش الحمصي أحد المشاهير من أئمة الشاميين، وفيه كلام.

■ مروان بن أبي حفصة الشاعر المشهور المشكور، كان يمدح الخلفاء والبرامكة.

■ معن بن زائدة وكان قد تحصّل له حصل من الأموال شيء كثير جداً، وكان مع ذلك من أبخل الناس، لا يكاد يأكل اللحم من بخله، ولا يشعل في بيته سراجاً، ولا يلبس من الثياب إلا الكرباس والفرو الغليظ، وكان رفيقه سلم الخاسر إذا ركب الى دار الخلافة يأتي على بردون وبدلة سنية تساوي ألف دينار، والطيب ينفح من ثيابه، ويأتي مروان في شر حالة وأسوئها.

وخرج يوماً إلى المهدي فقالت امرأة من أهله: إن أطلق لك الخليفة شيئاً فاجعل لي منه شيئاً. فقال: إن أعطاني مائة ألف درهم فلك درهم. فأعطاه ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانيق. توفي ببغداد في هذه السنة، ودفن في مقبرة نصر بن مالك.

والقاضي أبو يوسف: هو

■ يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة، وهي أمه، وأبوه بَحير بن معاوية، وسعدٌ هذا له صحبة استصغر يوم أحد، وأبو يوسف القاضي هذا كان أكبر أصحاب أبي حنيفة رحمه الله.

روى الحديث عن الأعمش وهشام بن عروة ومحمد بن إسحاق ويحيى بن سعيد وغيرهم.

وعنه محمد بن الحسن وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

قال علي بن الجعد: سمعته يقول: توفي أبي وأنا صغير فأسلمتني أمي إلى قصار فكنت أمر على حلقه أبي حنيفة فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة وتذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك وأذهب إلى أبي حنيفة، فلما طال ذلك قالت أمي لأبي حنيفة: إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي، وإنك قد أفسدته علي. فقال لها: اسكتي يا رعناء. ها هو ذا يتعلم العلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق فقالت له: إنك شيخ قد خرفت.

قال أبو يوسف: فلما وليت القضاء ـ وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة.

قال أبو يوسف: فبينا أنا ذات يوم عند الرشيد إذ أتي بفالوذج وكنت لا أعرفها فقال لي: كل من هذا، فإنه لايصنع لنا كل وقت. فقلت: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا الفالوذج. قال: فتبسمت فقال: مالك تتبسم؟ فقلت: لاشيء أبقى الله أمير المؤمنين. فقال: لتخبرني. فقصصت عليه القصة من أولها فقال: إن العلم ينفع ويرفع في الدنيا والآخرة. ثم قال: رحم الله أبا حنيفة ـ فلقد كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه.

وكان أبو حنيفة يقول عن أبي يوسف: إنه أعلم أصحابه.

وقال المزني: كان أبو يوسف أتبعهم للحديث.

وقال عليّ بن المديني: كان صدوقاً.

وقال ابن معين: كان ثقة.

وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم.

وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول: من قال: القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرض مبايته.

ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله: من طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب. ومن طلب العلم بالكلام تزندق.

ولما تناظر هو ومالك بالمدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضراوات احتج مالك بما استدعى به من تلك الصيعان المنقوله عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم تكن الخضراوات في زمن الخلفاء الراشدين. فقال أبو يوسف: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. وهذا انصاف.

وقد كان يحضر في مجلس حكمه العلماء على طبقاتهم، حتى إن أحمد بن حنبل كان شاباً وكان يحضر مجلسه في أثناء الناس فيتناظرون ويتباحثون، وهو مع ذلك يحكم ويصنّف أيضاً.

وقال: وليت هذا الحكم وأرجو الله أن لا يسألني عن جور ولاميل إلى أحد، إلا يوماً واحداً جاءني رجل فذكر أن له بستاناً وأنه في يد أمير المؤمنين، فدخلت الى أمير المؤمنين فأعلمته فقال: البستان لي اشتراه لي المهدي. فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يحضره لأسمع دعواه. فأحضره فادعى بالبستان فقلت: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ فقال: هو بستاني. فقلت للرجل: قد سمعت ما أجاب. فقال الرجل: يحلف، فقلت، أتحلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فقلت ساعرض عليك اليمين ثلاثاً فإن حلفت وإلا حكمت عليك. فعرضتها عليه ثلاثاً فامتنع فحكمت بالبستان للمدعي. قال: فكنت في أثناء الخصومة أودُّ أن تنفصل ولم يمكني أن أجلس الرجل مع الخليفة. وبعث القاضي أبو يوسف في تسليم البستان إلى الرجل.

وروى المعافى بن زكريا الجريري عن محمد بن أبي الأزهر عن حماد بن أبي أسحاق الموصلي عن أبيه عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف. قال: بينا أنا ذات ليلة قد نمت في الفراش، إذا رسول الخليفة يطرق الباب، فخرجت متزعجاً فقال: أمير المؤمنين يدعوك، فذهبت فإذا هو جالس ومعه عيسى بن جعفر فقال لي الرشيد: إن هذا قد طلبت منه جارية يهبنيها فلم يفعل، أو يبعنيها، فلم يفعل، وإني أشهدك إن لم يجبني إلى ذلك قتلته. فقلت لعيسى: لم لم تفعل؟ فقال: إني حالف بالطلاق والعتاق وصدقة مالي كله أن لاأبيعها ولاأهبها. فقال لي الرشيد: فهل له من مخلص؟ فقلت: نعم يبيعك

نصفها ويهبك نصفها. فوهبه النصف وباعه النصف بمائة ألف دينار، فقبل منه ذلك وأحضرت الجارية، فلما رآها الرشيد قال: هل لي من سبيل عليها الليلة؟ قلت: إنها مملوكة ولا بد من استبرائها، إلا أن تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لاتستبرأ. قال: فأعتقها وزوَّجتها منه بعشرين ألف دينار، وأمر لي بمائتي ألف درهم وعشرين تختاً من ثياب، وأرسلت إليّ الجارية بعشرة آلاف دينار.

وقال يحيى بن معين: كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب دَبيقيٍّ وطيب وتماثيل ند وغير ذلك، فذاكرني رجل في إسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه» فقال أبو يوسف: إنما ذاك في الأقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا ما ترون، ياغلام شِلْ الى الخزائن.

وقال بشر بن غياث المريسي: سمعت أبا يوسف يقول: صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة ثم انصبت عليَّ الدنيا سبع عشرة سنة، وما أظن أجلي إلا قد اقترب. كان شهور حتى مات.

وقد مات أبو يوسف في ربيع الأول من هذه السنة عن سبع وستين سنة، وقد مكث في القضاء ست عشرة سنة وولي القضاء من بعده ولده يوسف. وقد كان نائبه على الجانب الغربي من بغداد. ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف كما يقوله عبدالله بن محمد البلوي الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي فقد أخطأ في ذلك، إنما ورد الشافعي بغداد في أول قدمة قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع بمحمد بن الحسن الشيباني فأحسن إليه وأقبل عليه، ولم يكن بينهما شنآن كما يذكره بعض من لاخبرة له في هذا الشأن والله أعلم.

وفيها توفي:

■ **يعقوب بن داود بن طهمان:** أبو عبد الله مولى عبد الله بن خازم السلمي، استوزره المهدي، وسلم إليه أزمة الأمور وحظي عنده جداً، ثم لما أمره بقتل ذلك العلوي كما تقدم فأرسله وغمّت عليه تلك الجارية وتحقق أنه لم يفعل سجنه المهدي في بئر وبنيت عليه قبة، ونبت عليه شعر كما ينبت شعر الأنعام، وعمي، ويقال بل عشي بصره، ومكث نحواً من خمسة عشرة سنة في ذلك البئر لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً إلا في أوقات الصلوات يعلمونه بذلك، ويدلى إليه في كل يوم رغيف وكوز ماء، فمكث كذلك حتى انقضت أيام المهدي وأيام الهادي وصدر من أيام الرشيد، قال يعقوب: فأتاني آت في منامي فقال:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفك عان ... ويأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت نوديت فظننت أني أعلم بوقت الصلاة، ودلى إليّ حبل وقيل لي: اربط هذا الحبل في وسطك، فأخرجوني، فلما نظرت إلى الضياء لم أبصر شيئاً، وأوقفت بين يدي الخليفة، فظننته المهدي فسلمت عليه أنه المهدي، فقال: لست به، فقلت الهادي؟ فقال: لست به. فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد. فقال: نعم ثم قال: والله إنه لم يشفع فيك عندي أحد، ولكني البارحة حملت جارية لي صغيرة على عنقي فذكرت حملك إياي على عنقك فرحمت ما أنت فيه من الضيق فأخرجتك. ثم أنعم عليه وأحسن إليه. فغار منه يحيى بن خالد بن برمك، وخشي أن يعيده إلى المنزلة التي كان عليها أيام المهدي، وفهم ذلك يعقوب فاستأذن الرشيد في الذهاب الى مكة فأذن له، فكان بها حتى مات في هذه السنة رحمه الله.

ويزيد بن زريع أبو معاوية العيشي، كان ثقة عالماً عابداً ورعاً، توفي أبوه وكان والي البصرة وترك من المال خمسمائة ألف درهم، فلم يأخذ منها يزيد درهما واحداً، وكان يعمل الخوص ويأكل منه. توفي بالبصرة في هذه السنة، وقيل قبل ذلك فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائة

فيها خرجت الخزر على الناس من ثلمة أرمينية فعاثوا في تلك البلاد فساداً، وسبوا من المسلمين وأهل الذمة نحواً من مائة ألف، وقتلوا بشراً كثيراً، وانهزم نائب أرمينية سعيد بن مسلم، فأرسل الرشيد إليهم خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد في جيوش كثيفة إلى تلك البلاد، فأصلحوا ما وقع فيها من العيث والفساد.

وحج بالناس العباس بن موسى الهادي.

وفيها توفي من الأعيان

■ **علي بن الفضيل بن عياض** في حياة أبيه. كان كثير العبادة والورع والخوف.

■ **محمد بن صبيح** أبو العباس مولى بني عجل المذكّر، ويعرف بابن السماك.

روى عن إسماعيل بن أبي خالد والأعمش والثوري وهشام بن عروة وغيرهم.

ودخل يوماً على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين: إن لك بين يدي الله موقفاً فانظر أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟ فبكى الرشيد حتى كاد يموت.

■ **موسى بن جعفر بن محمد بن علي** بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن الهاشمي، ويقال له: الكاظم. ولد سنة ثمان أو تسع وعشرين ومائة، وكان كثير العبادة والمروءة، إذا بلغه عن أحد أنه يؤذيه أرسل إليه بالتحف والذهب، ولد له من الذكور والإناث أربعون نسمة. وأهدى له مرة عبد عصيدة فاشتراه واشترى المزرعة التي هو فيها بألف دينار وأعتقه، ووهبها له.

وقد استدعاه المهدي الى بغداد فحبسه، فلما كان في بعض الليالي رأى المهدي علي بن أبي طالب وهو يقول له: يا محمد ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] فاستيقظ مذعوراً وأمر به فأخرج من السجن ليلا فأجلسه معه وعانقه وأقبل عليه، وأخذ عليه العهد أن لا يخرج عليه ولا على أحد من أولاده، فقال: والله ما هذا من شأني ولا حدثت فيه نفسي، فقال: صدقت، وأمر له بثلاثة آلاف دينار، وأمر به فرد الى المدينة، فما أصبح الصباح إلا وهو على الطريق، فلم يزل بالمدينة حتى كانت خلافة الرشيد فحج، فلما دخل ليسلم على قبر النبي ﷺ ومعه موسى بن جعفر فقال الرشيد: السلام عليك يا رسول الله يا ابن عم. فقال موسى: السلام عليك يا أبه. فقال الرشيد: هذا هو الفخر يا أبا الحسن. ثم لم يزل ذلك في نفسه حتى استدعاه في سنة تسع وسبعين وسجنه فأطال سجنه، فكتب إليه موسى رسالة يقول فيها: أما بعد يا أمير المؤمنين إنه لن ينقضيَ عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك يوم من الرخاء، حتى يفضي بنا ذلك إلى يوم يخسر فيه المبطلون.

توفي لخمس بقين من رجب من هذه السنة ببغداد وقبره هناك مشهور.

■ **هُشَيم بن بشير بن أبي خازم القاسم بن دينار أبو معاوية السلمي** الواسطي، كان أبوه طباخاً للحجاج بن يوسف الثقفي، ثم كان بعد ذلك يبيع الصُحناةَ والكوامخ، وكان يمنع ابنه من طلب العلم ليساعده على صناعته، فأبى إلا أن يسمع الحديث. فاتفق أن هُشيماً مرض فجاءه أبو شيبة قاضي واسط ليعوده ومعه خلق من الناس، فلما رآه بشير فرح بذلك وقال له: يا بني أبلغ من أمرك أن جاء القاضي الى منزلي؟ لا أمنعك بعد هذا اليوم من طلب الحديث.

كان هو من سادات العلماء، وحدث عنه مالك وشعبة والثوري وأحمد بن حنبل وخلق سواهم، وكان من الصلحاء العباد. ومكث يصلي الصبح بوضوء العشاء قبل أن يموت عشر سنين.

■ **يحيى بن زكريا بن أبي زائدة** قاضي المدائن، كان من الأئمة الثقات.

■ **يونس بن حبيب** أحد النحاة النجباء، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وغيره، وأخذ عنه الكسائي والفراء، وقد كانت له حلقة بالبصرة يتنابها أهل العلم والأدب والفصحاء من الحاضرين والعرب. توفي في هذه السنة عن ثمان وتسعين سنة.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد فأخذ الناس بأداء بقايا الخراج الذي عليهم، وولى رجلا يضرب على ذلك ويحبس، وولى على أطراف البلاد. وعزل وقطع ووصل.

وخرج بالجزيرة أبو عمرو الشاري فبعث إليه الرشيد من قتله بشهرزور.

وحج بالناس فيها إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس العباسي.

وممن توفي من الأعيان

■ (أحمد بن الرشيد)

أحمد ابن أمير المؤمنين الرشيد: كان زاهداً عابداً قد تنسك، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه، يعمل في الطين، وليس يملك الا مرّاً وزنبيلا - أي مجرفة وقفة - وكان لا يعمل إلا في يوم السبت فقط، ثم يُقبل على العبادة بقية أيام الجمعة، وكان لايعمل إلا في يوم السبت فقط. ثم يقبل على العبادة بقية أيام الجمعة. وكان من زبيدة في قول بعضهم، والصحيح أنه من امرأة غيرها كان الرشيد قد أحبها فتزوجها فحملت منه بهذا الغلام، ثم أحدرها الى البصرة وأعطاها خاتماً من ياقوت أحمر، وأشياء منها نفيسة، وأمرها إذا أفضت إليه الخلافة أن تأتيه. فلما صارت الخلافة إليه لم تأته ولا ولدها،، وبلغه أنهما ماتا، ولم يكن كذلك،، فكان هذا الشاب يعمل بيده ويأكل من كدها، فاتفق مرضه في دار من كان يستعمله في الطين فمرضه عنده، فلما احتضر أخرج الخاتم وقال لصاحب المنزل: اذهب بهذا الى الرشيد وقل له: صاحب هذا الخاتم يقول لك: إياك أن تموت في سكرتك هذه فتندم حيث لا ينفع نادماً ندمه، واحذر انصرافك من بين يدي الله الى الدارين، وأن يكون آخر العهد بك، فإن ما أنت فيه لو دام لغيرك لم يصل إليك، وسيصير الى غيرك وقد بلغك أخبار من مضى.

قال: فلما مات دفنه وطلب الحضور بين يدي الخليفة، فقال: ما حاجتك؟ قلت: هذا الخاتم دفعه اليّ رجل وأمرني أن أدفعه إليك، وأوصاني أن أقول كلاماً، فلما نظر عرفه فقال: ويحك وأين صاحب هذا الخاتم؟ قال فقلت: مات يا أمير المؤمنين، ثم ذكرت الكلام الذي أوصاني به، وذكرت له أنه كان يعمل بالفاعل في كل جمعة يوماً بدرهم وأربع دوانيق، أو بدرهم ودانق، يتقوت به سائر أيام الجمعة، ثم يقبل على العبادة. قال: فلما سمع هذا الكلام قام فضرب بنفسه الأرض وجعل يتمرغ ويتقلب ظهراً لبطن ويقول: والله لقد نصحتني يا بني، ثم بكى، ثم قال: أتعرف قبره؟ قلت: نعم! قال: إذا كان العشي فائتني، قال: فأتيته فذهب الى قبره فلم يزل يبكي عنده حتى أصبح، ثم أمر لذلك الرجل بعشرة آلاف درهم. وكتب له ولعياله رزقاً.

■ **عبد الله بن مصعب: بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام،** القرشي الأسدي، والد بكار. ألزمه الخليفة الرشيد بولاية المدينة فقبلها بشروط عدة اشترطها، فأجابه إلى ذلك، ثم أضاف إليه نيابة اليمن، فكان من أعدل الولاة، وكان عمره يوم توفي نحواً من سبعين سنة.

■ **عبد الله بن عبد العزيز العمري:** أدرك أبا طوالة. وروى عن أبيه وإبراهيم بن سعد، وكان عابداً زاهداً، وعظ الرشيد يوماً فأطنب وأطيب. قال له وهو واقف على الصفا: أتنظر كم حولها من الناس؟ فقال: بشر كثير. فقال: كل منهم يسأل يوم القيامة عن خاصة نفسه، وأنت تسأل عنهم كلهم. فبكى الرشيد بكاء كثيراً، وجعلوا يأتونه بمنديل بعد منديل للدموع. ثم قال له: يا هارون إن الرجل ليسرع في ماله فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يُسرع في أموال المسلمين كهلم؟ ثم تركه وانصرف والرشيد يبكي. وله معه مواقف محمودة في غير هذا الموضع. توفي عن ست وستين سنة.

■ **محمد بن يوسف بن معدان:** أبو عبد الله الأصبهاني، أدرك التابعين، ثم اشتغل بالعبادة والزهادة. كان عبد الله بن المبارك يسميه عروس الزهاد.

وقال يحيى بن سعيد القطان: ما رأيت أفضل منه، وكان كأنه قد عاين.

وقال ابن مهدي:ما رأيت مثله قالوا لا يشتري زاده من خباز واحد، ولا من بقال واحد، كان لا يشتري إلا ممن لا يعرفه، يقول: أخشى أن يحابوني فأكون ممن يعيش بدينه. وكان لايضع جنبه للنوم صيفاً ولاشتاء. ومات ولم يجاوز الأربعين سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائة

فيها قتل أهل طبرستان متوليهم مهرويه الرازي، فولى الرشيد عليهم عبدالله بن سعيد الحرشي.

وفيها قتل عبد الرحمن الأبناري أبان بن قحطبة الخارجي بمرج القلعة.

وفيها عاث حمزة الشاري باذغيس من خراسان، فنهض عيسى بن علي بن عيسى الى عشرة آلاف من جيش حمزة فقتلهم، وسار وراء جيش حمزة الى كابل وزابلستان.

وفيها خرج أبو الخصيب فتغلب على أبيورد وطوس ونيسابور وحاصر مرو وقوي أمره.

وفيها توفي

■ **يزيد بن مزيد** بيردعة، فولى الرشيد مكانه ابنه أسد بن يزيد.

واستأذن الوزير يحيى بن خالد الرشيد في أن يعتمر في رمضان فأذن له، فاعتمر في رمضان ثم رابط بجُدَّه الى وقت الحج فحج مع الناس.

وكان أمير الحج في هذه السنة منصور بن محمد بن عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن عباس.

ذكر من توفي في هذه السنة من الأعيان

■ **عبد الصمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي:** عم السفاح والمنصور. ولد سنة أربع ومائة، وكان ضخم الخلق جداً ولم يبدل أسنانه، وكانت أصولها صفيحة واحدة. قال يوما للرشيد: يا أمير المؤمنين هذا المجلس اجتمع فيه عم أمير المؤمنين، وعم عمه، وعم عم عمه، وذلك أن سليمان بن أبي جعفر عم الرشيد، والعباس بن محمد بن علي عم سليمان، وعبد الصمد بن علي عم السفاح. وتلخيص ذلك أن عبد الصمد عم عم عم الرشيد لأنه عم جده.

روى عبدالصمد عن أبيه عن جده عبد اللّه بن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن البر والصلة ليطيلان الأعمار، ويعمران الديار، ويثريان الأموال، ولو كان القوم فجاراً».

وبه أن رسول اللّه ﷺ قال «إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة» ثم تلا رسول اللّه ﷺ ﴿والَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. [الرعد: ٢١] وغير ذلك من الأحاديث.

و■ **محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عباس،** المعروف بالإمام، كان على إمارة الحاج، وإقامة شعائر الحج في خلافة المنصور عدة سنين. توفي ببغداد فصلى عليه الأمين في شوال من هذه السنة. ودفن بالعباسية.

وفيها توفي من مشايخ الحديث:

■ **ضِمام بن إسماعيل، وعمر بن عبيد. والمطلب بن زياد. والمعافى بن عمران.** في قول. **ويوسف بن الماجشون.**

و■ **أبو إسحاق الفزاري** إمام أهل الشام بعد الأوزاعي في المغازي والعلم والعبادة.

■ **رابعة العدوية:** هي رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك، العدوية البصرية العابدة المشهورة، ذكرها القشيري في الرسالة وأبو نعيم في الحلية وابن الجوزي في صفة الصفوة، والشيخ شهاب الدين السهروردي في المعارف. وأثنى عليها أكثر الناس، وتكلم فيها أبو داود السجستاني، واتهمها بالزندقة، فلعله بلغه عنها أمر. وأنشد لها السهروردي في المعارف:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي ... وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ... وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وقد ذكر لها أحوال وأعمال صالحة، وصيام نهار وقيام ليل، ورثيت لها منامات صالحة فاللّه سبحانه وتعالى أعلم. توفيت بالقدس الشريف وقبرها شرقيه بالطور.

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائة

فيها خرج علي بن عيسى بن ماهان من مرو لحرب أبي الخصيب الى نسا فقاتله بها، وسبى نساءه وذراريه. واستقامت خراسان.

وحج بالناس فيها أمير المؤمنين هارون الرشيد ومعه ابناه محمد الأمين، وعبد اللّه المأمون، فبلغ جملة ما أعطى لأهل الحرمين ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار، وذلك أنه كان يعطي ثم يذهب الناس من بعده إلى ولده محمد الأمين فيعطي، ثم يذهبون إلى ولده عبد اللّه المأمون فيعطي.

وكان إلى الأمين ولاية الشام والعراق، وإلى المأمون من همذان إلى بلاد المشرق. ثم بايع الرشيد لولده القاسم من بعد أخويه، ولقبه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان الباعث له على ذلك ان ابنه القاسم هذا كان في حجر عبد الملك بن صالح، فلما بايع الرشيد لولديه الأمين والمأمون كتب إليه:

يا أيها الملك الذي ... لو كان نجماً كان سعدا
اعقد لقاسم بيعة ... وافدح له في الملك زندا
فاللّه فرد واحد ... فاجعل ولاة العهد فردا

ففعل الرشيد ذلك، وقد حمده قوم على ذلك، وذمه آخرون. ولم ينتظم للقاسم هذا أمر، بل اخترمته الأقدار عن بلوغ والأوطار.

ولما قضى هارون الرشيد حجه ومناسكه أحضر من معه من الأمراء والوزراء، وأحضر ولي العهد محمداً الأمين وعبد اللّه المأمون. وأشهد على كلٍّ منهما السمع والطاعة لأخيه، وألاّ ينازعه ما ولاّه اللّه من ذلك وكتب بمضمون ذلك صحيفة. وكتب فيها الأمراء والوزراء خطوطهم بالشهادة عليها بذلك، وأراد الرشيد أن يعلقها في الكعبة فسقطت فقيل: هذا أمر سريع انتقاضه. وكذا وقع كما سيأتي بيانه.

وقال إبراهيم الموصلي في عقد هذه البيعة في الكعبة:

خير الأمور مغبة ... وأحق أمر بالتمام
أمر قضى أحكامه ... من في البلد الحرام

وقد أطال القول في هذا المقام أبو جعفر بن جرير وتبعه ابن الجوزي في المنتظم.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **أصبغ بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبو زيّان** في رمضان منها.

و■ **حسان بن إبراهيم قاضي كرمان** عن مائة سنة.

و■ **سلم الخاسر الشاعر:** وهو سلم بن عمرو بن حماد بن عطاء، وإنما قيل له الخاسر لأنه باع مصحفاً واشترى به ديوان شعر لامرىء القيس وقيل للاعشى، وقيل لأنه أنفق مائتي ألف في صناعة الأدب وقد كان شاعراً منطبّقاً له قدرة على الإنشاء على حرف واحد، فمن ذلك قوله لموسى الهادي:

موسى المطر ... غيث يكر
ثم انهمر ... كم اعتسر
ثم ايتسر ... وكم قدر
ثم غفر ... عدل السير
باقي الأثر ... خير البشر
فرع مضر ... بدر بدر
لمن نظر ... هو الوزر

لمن حضر والمفتخر
لمن غبر والمجتبر
لمن عثر

وذكر الخطيب أنه كان على طريقة غير مرضية من المجون والفسق، وأنه كان من تلاميذ بشار بن برد، وأن نظمه أحسن من نظم بشار، فمما غلب فيه بشاراً قوله:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فقال سلم:

من راقب الناس مات غمّا وفاز باللذة الجسور

فغضب بشار وقال: أخذ معاني فكساها ألفاظاً أخف من الفاظي.

وقد حصل له من الخلفاء والبرامكة نحو من أربعين ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك. ولما مات ترك ستة وثلاثين ألف دينار وديعة عند أبي السمراء الغساني، فغنى إبراهيم الموصلي الرشيد يوماً فأطربه فقال له: سل فقال: يا أمير المؤمنين أسألك شيئاً لا أرزؤك. قال: وما هو؟ فذكر له وديعة سلم الخاسر، وأنه لم يترك وارثاً. فأمر له بها. ويقال إنها كانت خمسين ألف دينار.

■ **العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم الرشيد**، كان من سادات قريش، ولي إمارة الجزيرة في أيام الرشيد، وقد أطلق له الرشيد في يوم خمسة آلافالأعيان ألف درهم، وإليه تنسب العباسية، وبها دفن وعمره خمس وستون سنة وصلى عليه الأمين.

■ **يقطين بن موسى**: كان أحد الدعاة الى دولة بني العباس، وكان داهية ذا رأي، وقد احتال مرة حيلة عظيمة وذلك حين حبس مروان الحمار إبراهيمَ بن محمد بحرّان، فتحيرت الشيعة العباسية فيمن يكون ولي الأمر من بعده فذهب يقطين هذا الى مروان فوقف بين يديه في صورة تاجر فقال: يا أمير المؤمنين إني قد بعت بضاعة من رجل ولم أقبض ثمنها منه حتى أخذته رسلك فحبسوه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجمع بيني وبينه لأطالبه بمالي. قال: نعم! فأرسل به إليه مع غلام، فلما رآه قال: يا عدو الله الى من تركت بعدك آخذ مالي منه؟ فقال: الى ابن الحارثية ـ يعني أخاه عبد الله السفاح ـ فرجع يقطين الى الدعاة الى بني العباس فأعلمهم بما قال، فبايعوا السفاح، وكان ما قد كان.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائة

مهلك البرامكة

فيها كان مقتل الرشيد، جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ودمار ديارهم واندثار آثارهم، وذهاب صغارهم وكبارهم، وقد اختلف في سبب ذلك على أقوال ذكرها أبوجعفر بن جرير وغيره من علماء التاريخ فممّا قيل: إن الرشيد كان قد سلم يحيى بن عبد الله بن حسن الى جعفر البرمكي فسجنه عنده، فما زال يحيى يترفق له حتى أطلقه جعفر، فنمّ الفضل بن الربيع على جعفر في ذلك فقال له الرشيد: ويلك لا تدخل بيني وبين جعفر، فلعله قد أطلقه عن أمري وأنا لا أشعر. ثم سأل الرشيد جعفراً عن ذلك فصدقه الحال فتغيظ عليه وحلف ليقتلنه، وكره البرامكة، ومقتهم وقلاهم بعد ذلك، بعدما كانوا أحظى الناس عنده، وأحبهم إليه.

وكانت أم جعفر والفضل أمه من الرضاعة. وقد جعلهم الرشيد من الرفعة في الدنيا وكثرة المال بسبب ذلك شيئاً كثيراً لم يحصل لمن قبلهم من الوزراء ولا لمن بعدهم من الأكابر والرؤساء، بحيث إن جعفراً بنى داراً غرم عليها عشرين ألف ألف درهم، وكان ذلك من جملة ما نقمه عليه الرشيد.

ويقال: إن الرشيد كان لا يكاد يمر ببلد ولا إقليم ولا قرية ولا مزرعة ولابستان إلا قيل هذا لجعفر، وقيل: إن البرامكة كانوا يريدون إبطال خلافة الرشيد وإظهار الزندقة. وقيل إنما قتلهم بسبب العباسة. ومن العلماء من أنكر ذلك وإن كان ابن جرير قد ذكره.

وذكر ابن الجوزي [المنتظم: ١٣٢/٩] أن الرشيد سئل عن السبب الذي من أجله أهلك البرامكة فقال: لو أعلم أن قميصي يعلم ذلك لأحرقته.

وقد كان جعفر يدخل على الرشيد بغير إذن حتى إنه كان ربما دخل عليه وهو في الفراش مع حظاياه ـ وهذه وجاهة عظيمة ومنزلة عالية ـ وكان من أحظى العشراء على الشراب ـ فإن الرشيد كان يستعمل في أواخر أيام ملكه المسكر ـ وكان أحب أهله إليه أخته العباسة بنت المهدي، وكان يحضرها معه، وجعفر البرمكي حاضر أيضاً، فزوجه بها ليحل له النظر إليها، واشترط عليه أن لا يطأها. وكان الرشيد ربما قام وتركهما وهما ثملان من الشراب فربما واقعها جعفر فاتفق حملها منه فولدت ولداً وبعثته مع بعض جواريها الى مكة، وكان يربى بها.

وذكر القاضي ابن خلكان في الوفيات [٣٣٣/١، ٣٣٤ صفة أخرى] في مقتل جعفر وذلك أنه لما زوج الرشيد جعفراً من العباسة أحبته حباً شديداً، فراودته عن نفسه فامتنع أشد الامتناع خوفا من الرشيد، فاحتالت عليه ـ وكانت أمه تهدي إليه في كل ليلة جمعة جارية حسناء بكراً ـ فقالت لأمه: ادخليني عليه في صفة جارية. ففعلت ذلك فتهددتها حتى فعلت ذلك. فلما دخلت عليه وكان لم يتحقق وجهها من مهابة الرشيد فواقعها فقالت له: كيف رأيت خديعة بنات الملوك فقال: ومن أنت؟ فقالت: أنا العباسة وحملت من تلك الليلة، فدخل على أمه فقال لها: بعتيني والله برخيص. ثم إن والده يحيى بن خالد جعل يضيق على عيال الرشيد في النفقة حتى شكت زبيدة ذلك الى الرشيد مرات، ثم أفشت له سر العباسة، فاستشاط غضباً، ولما أخبرته أن الولد قد أرسلت به الى مكة حج عامة ذلك حتى تحقق الأمر. ويقال: إن بعض الجواري نمّت عليها الى الرشيد وأخبرته بما وقع من الأمر، وأن الولد بمكة وعنده جوار ومعه أموال وحلي كثير. فلم يصدق حتى حج في السنة الحالية، ثم فكشف عن الحال، فإذا هو كما ذكرت تلك الجارية.

وقد حج في هذه السنة يحيى بن خالد الوزير وقد استشعر الغضب من الرشيد، فجعل يدعو عند الكعبة: اللّهم إن كان يرضيك عني سلب مالي وولدي وأهلي ففعل ذلك بي وأبق عليّ منهم الفضل، ثم خرج. فلما كان عند باب المسجد رجع فقال: اللّهم والفضل معهم فإني راضٍ برضاك عني ولا تستثن منهم أحداً.

فلما قفل الرشيد من الحج صار الى الحيرة ثم ركب في السفن الى الغمر من أرض الأنبار، فلما كانت ليلة السبت سلخ المحرم من هذه السنة أعني سنة سبع وثمانين أرسل مسروراً الخادم ومعه حماد بن سالم أبو عصمة في جماعة من الجند، فأطافوا بجعفر بن يحيى ليلا، فدخل عليه مسرور الخادم وعنده بختيشوع المتطبب، وأبو زكّار الأعمى المغني الكلوذاني، وهو في أمره،

وأبو زكّار يغنيه:

فـلا تبعـد فكـلُّ فتـىً سـيأتي عليـه المـوت يَطْـرقُ أو يغـادي

فقال الخادم له: يـا أبـا الفضـل هـذا المـوت قـد طرقـك، أجـب أمـير المؤمنين. فقام إليه فقبّل قدميه ودخـل عليـه أن يدخـل إلى أهلـه فيوصـي إليهم، فقال: أما الدخول فلا سبيل إليه. فأوصى جعفر وأعتـق جماعـة مـن مماليكه وجـاءت رسـل الرشـيد تستحثه فـأخرج إخراجـاً عنيفـاً، فجعلـوا يقودونه حتى أتوا به المنزل الذي فيـه الرشـيد، فحبسـه وقيـده بقيـد حمـار، وأعلموا الرشيد بما كان يفعل، فأمر بضرب عنقه، فجاء السياف الى جعفـر فقال: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن آتيه برأسك. فقال: يا أبـا هاشـم لعـل أمير المؤمنين سكران، فإذا صحا عـاتبك علـى ذلـك، فعـاوده. فرجـع إليـه فقال: يا أمير المؤمنين: لعلك مشغول. فقال: ويحك يا ماص بظر أمـه ائتـني برأسه. فكرر عليه جعفر المعاودة، فقال له: برئت من المهـدي لئـن لم تـأتني برأسه لأبعثن من يأتيني برأسك ورأسه. فرجع الى جعفر فحز رأسـه وأتـى به الى الرشيد فألقاه بين يديه، وأرسل الرشيد من ليلتـه البرد في الاحتيـاط على البرامكة جميعهم ببغداد وغيرها، ومن كان منهم بسبيل. فأخذوا كلهـم عن آخرهم. فلم يفلـت منهـم أحـد. وحبـس يحيـى بـن خـالد في منزلـه، وحبس الفضل بن يحيى في منزل آخر وأخـذ جميـع مـا كـانوا يملكونـه مـن الأموال والموالي والحشم والخدم وبعـث الرشـيد بـرأس جعفـر وجثتـه ثـم قطعت باثنين فنصب الرأس عند الجسر الأعلى، وشـق الجثـة عنـد الجسـر الأسفل، وشقها الآخر عند الجسر الآخر، ثم أحرقت بعد ذلك. ونودي في بغداد: أن لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم، إلا محمد بن يحيى بن خالد فإنه استثناه من البراءة لنصحه الخليفة.

وأتى الرشيد بأنس بن أبي شيخ وكان يتهم بالزندقـة، وكـان مصاحبـاً لجعفر بن يحيى البرمكي وذلك ليلة قتـل جعفـر، فـدار بينـه وبـين الرشـيد كلام، ثم أخرج الرشيد من تحت فراشه سيفا وأمر بضرب عنقه به. وجعل يتمثل ببيت قيل في أنس قبل ذلك:

تلمظ السيف من شوق إلى أنـس فالسـيف يلحـظ والأقـدار تنتظـر

فضربت عنق أنس فسبق السيف الدم فقال الرشيد: رحم اللّه عبد اللّه بن مصعب، فقال النـاس: إن السـيف كـان للزبيـر بـن العـوام. وشـحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها.

وقد كان الرشيد في اليوم الذي قتل في آخره جعفراً، هو وإيـاه راكبـين في الصيد، وقد خلا بـه دون ولاة العهـود، وطيبـه في ذلـك اليـوم بالغالية بيده، فلما كان وقت المغرب ودعه الرشيد وضمه إليه وقال: لولا أن الليلـة ليلة خلوتي بالنساء ما فارقتك، فاذهب الى منزلك واشرب واطرب لتكـون على مثل حالي. فقـال: واللّـه ياأمـير المؤمنـين لا أشـتهي ذلـك إلا معـك. فانصرف عنه جعفر فما هو إلا أن ذهب من الليل بعضه حتى أوقع به من البأس والنكال ما تقدم ذكره. وكان ذلك ليلة السبت آخر ليلة مـن المحـرم، وقيل إنها كانت مستهلّ صفر سنة سبه وثمانين، وكان عمـر جعفـر إذ ذاك سبعاً وثلاثين سنة، ولما جاء الخبر الى أبيه يحيى بن خالد بقتله قال: قتل اللّه ابنه. ولما قيل له: قد خربت دارك قال: خرب اللّه داره. ويقال: إن يحيى لما نظر الى دوره وقد هتكت ستورها واستبيحت قصورها، وانتهـب مـا فيهـا، قال: هكذا تقوم الساعة.

وقد كتب إليه بعض أصحابه يعزيه فيما وقع، فكتب جواب التعزية:أنا بقضاء اللّه راض، وبالخيار عالم، ولا يؤاخذ اللّـه العبـاد إلا بذنوبهـم، ومـا اللّه بظلام للعبيد. وما يغفر اللّه أكثر وللّه الحمد.

وقد أكثر الشعراء من المراثي في البرامكـة فمـن ذلـك قـول الرقاشي، ويُذكر أنها لأبي نواس:

الآن اسـترحنا واسـتراحت ركابنـا وأمسـك من يجدى ومن كـان يجتـدي
فقـل للمطايـا قـد أمنـت مـن السُّرى وطـي الفيـافي فدفـداً بعـد فدفـد
وقـل للمنايـا قـد ظفـرت بجعفـر ولـن تظفـري مـن بعـده بمسـوّد
وقل للعطايـا بعـد فضـل تعطلـي وقـل للرزايـا كـل يـوم تجـددي
ودونـك سـيفاً برمكيـاً مهنّـداً أصيـب بسـيف هـاشمي مهنّـد

وقال الرقاشي، وقد نظر إلى جعفر وهو على جذعة مصلوب:

أمـا واللّـه لـولا خـوف واش وعـين للخليفـة لا تنـام
لطفنـا حـول جذعـك واسـتلمنا كمـا للنـاس بـالحجر اسـتلام
فما أبصرت قبلـك يـا بـن يحيى حسـاماً فلـه السـيف الحسـام
علـى اللـذات والدنيـا جميعـاً ودولـة آل برمـكٍ السـلام

قال فاستدعا به الرشيد وقال له: كم كان يعطيك جعفر كل عام؟ قال: ألف دينار. فأمر له بألفي دينار.

وقال الزبير بن بكار عن عمه مصعب الزبيري قـال: لما قتـل الرشـيد جعفر بن يحيى وقفت امرأة على حمار فاره فقالت بلسان فصيح: واللّـه يـا جعفر لئن صرت اليوم آية فلقد كنت في المكارم غاية، ثم أنشأت تقول:

ولما رأيت السـيف خـالط جعفـراً ونـادى منـاد للخليفـة في يحيـى
بكيـت علـى الدنيـا وأيقنـت أنمـا قصارى الفتى يوماً مفارقـة الدنيـا
ومـا هـي إلا دولـة بعـد دولـة تحـوّل ذا نعمـى وتعقـب ذا بلـوى
إذا أنزلـت هـذا منـازل رفعـة مـن الملـك حطـت ذا إلى الغايـة

قال: ثم حركت حمارها فكأنها كانت ريحاً لا أثر لهـا، ولا يعـرف أيـن ذهبت.

وذكر ابوالفرج بن الجوزي في كتابه المنتظم [١٣٠/٩] أن جعفراً كان له جارية يقال لها فنفنة مغنية، لم يكن لها في الدنيا نظير، وكـان مشـتراها عليه بمن معها من الجواري مائة ألف دينار، فطلبها منه الرشيد فامتنع من ذلـك، فلما قتله الرشيد اصطفى تلـك الجارية فأحضرهـا ليلـة في مجلـس شـرابه وعنـده جماعـة مـن جلسـائه وسمّـاره، وأحبابـه فـأمر مـن معهـا أن يغنـين فاندفعت كل واحدة تغني، حتـى انتهـت النوبـة الى فنفنـة، فأمرهـا بالغنـاء فأسبلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا. فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وأمر بعض الحاضرين أن يأخذها إليه فقـد وهبهـا لـه، ثـم لمـا أراد الانصراف قال له فيما بينه وبينه: لاتطأها. ففهم أنـه يريـد بذلـك كسـرها. فلما كان بعد ذلك أحضرها وأظهـر أنـه قـد رضـي عنهـا وأمرهـا بالغنـاء فامتنعت وأرسلت دمعها وقالت: أما بعد السادة فلا. فغضب الرشيد أشـد من الأول وقال: النطع والسيف، وجاء السياف فوقف علـى رأسـها وقـال له: إذا أمرتك ثلاثاً وعقدت أصابعي ثلاثا فاضرب. ثم قال لها غني فبكـت وقالت: أما بعد السادة فلا. فعقد أصبعه الخنصر، ثم أمرها الثانية فامتنعت، فعقد اثنتـين، فـارتعد الحـاضرون وأشـفقوا غايـة الإشـفاق وأقبلـوا عليهـا يسألونها أن لا تقتل نفسها، وأن تجيب أمير المؤمنين الى ما يريـد منهـا. ثـم أمرها الثالثة فاندفعت تغني:

لما رأيت الديار وقد درست أيقنت أن النعيم لم يعد

قال: فوثب إليها الرشيد وأخذ العود من يدها وأقبل يضرب به وجهها ورأسها حتى تكسر، وأقبلت الدماء وتطايرنا من حولها، وحملت الجارية من بين يديه فماتت بعد ثلاث.

وروي أن الرشيد كان يقول: لعن الله من أغراني بالبرامكة، فما وجدت بعدهم لذة ولا راحة ولا رخاء، وددت والله أني شوطرت نصف عمري وملكي وأني تركتهم على أمرهم.

وحكى ابن خلكان أن جعفراً اشترى جارية من رجل بأربعين ألف دينار، فالتفتت إلى بائعها وقالت له: اذكر العهد الذي بيني وبينك، لا تأكل من ثمني شيئاً. فبكى سيدها وقال: اشهدوا أنها حرة، وأني قد تزوجتها. فقال جعفر: اشهدوا أن الثمن له أيضاً.

قال: وكتب إلى نائب له: أما بعد فقد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما أن تعدل، وإما أن تعتزل.

ومن أحسن ما وقع منه من التلطف في إزالة هم الرشيد، وقد دخل عليه منجم يهودي فأخبر أنه سيموت في هذه السنة، فحمل الرشيد هماً عظيماً،فدخل جعفر فسأل: ما الخبر؟ فأخبره بقول اليهودي للخليفة أنه سيموت من عامه هذا فاستدعى جعفر اليهودي فقال له: كم وجدت بقي لك من العمر؟ فذكر مدة طويلة فاقبل على الرشيد. فقال: يا أمير المؤمنين اقتله حتى تعلم كذبه فيما أخبر عن موتك كما علمت كذبه فيما اخبر عن عمره. فأمر الرشيد باليهودي فقتل، وسري عن الرشيد همُّه الذي كان يجده، و لله الحمد.

وبعد مقتل البرامكة قتل الرشيد إبراهيم بن عثمان بن نهيك، وذلك أنه حزن على مقتل البرامكة، ولا سيما على جعفر، وكان يكثر البكاء عليهم، ثم خرج من حيز البكاء الى حيز الانتصار لهم والأخذ بثارهم، وكان إذا شرب في منزله يقول لجاريته: ائتني بسيفي، فيسله ثم يقول: والله لأقتلن قاتله، فأكثر أن يقول ذلك، فخشي ابنه عثمان أن يطلع الخليفة على ذلك فيهلكهم عن آخرهم، ورأى أن أباه لا ينزع عن هذا، فذهب إلى الفضل بن الربيع فأعلمه، فأخبر الفضل الخليفة، فاستدعى به فاستخبره فأخبره، فقال: ومن يشهد معك؟ فقال: فلان الخادم فجاء به فأخبره، فقال الرشيد: لا يحل قتل أمير كبير بمجرد قول غلام وخصي، لعلهما قد تواصيا على ذلك. فأحضره الرشيد معه على الشراب ثم خلا به فقال له: ويحك يا إبراهيم إن عندي سراً أحب أن أطلعك عليه، قد أقلقني في الليل والنهار. قال: وما هو؟ قال: إني ندمت على قتل البرامكة ووددت أني قد خرجت من نصف ملكي ونقصت نصف عمري ولم أكن فعلت بهم ما فعلت، فإني لم أجد بعدهم لذة ولاراحة. فقال: رحمة الله على أبي الفضل - يعني جعفراً - وبكى، وقال: والله ياسيدي لقد أخطأت في قتله. فقال له: قم لعنك الله، ثم حبسه ثم قتله بعد ثلاثة أيام، وسلم أهله وولده.

وفي هذه السنة غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح بسبب أنه بلغه أنه يريد الخلافة، واشتد غضبه بسببه أيضاً على البرامكة الذين هم في الحبوس، وسجنه فلم يزل في السجن حتى توفي الرشيد فأخرجه الأمين وعقد له على نيابة الشام.

وفي هذه السنة ثارت العصبية بالشام بين المضرية واليمانية، فبعث إليهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالمصيصة فانهدم بعض سورها ونضب ماؤهم ساعة من الليل.

وفيها بعث الرشيد ولده القاسم على الصائفة. وجعله قرباناً ووسيلة بين يديه، وولاه العواصم، فسار الى بلاد الروم فحاصرهم حتى افتدوا بخلق من الأسارى يطلقونهم ويرجع عنهم، ففعل ذلك.

وفيها نقضت الروم الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين، الذي كان عقده الرشيد بينه وبين ريني ملكة الروم الملقبة أغسطة. وذلك أن الروم عزلوها عنهم وملكوا عليهم النقفور، وكان شجاعاً، يقال إنه من سلالة آل جفنة، وإنه قبل الملك كان يلي ديوان الخراج، وملكوا نقفور هذا عليهم فخلعوا ريني وسملوا عينيها. فكتب نقفور إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلُ أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد إليَّ ما حصل لك من الأموال وافتد نفسك، وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ هارون الرشيد الكتاب استفزّه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه، دون أن يخاطبه، وتفرّق جلساؤه خوفاً منه واستدعى بدواة وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام.

ثم شخص من يومه حتى اقام بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرب وأحرق، واصطلم فطلب نقفور منه الموادعة على خراج يؤديه إليه في كل سنة، فأجابه الرشيد الى ذلك. فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم وعليه، حتى ينفصل الشتاء.

وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن عباس بن محمد بن علي.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ **جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أبو الفضل البرمكي** الوزير ابن الوزير، ولاه الرشيد الشام وغيرها من البلاد، وذكر ابن عساكر أن الرشيد بعثه إلى دمشق لما ثارت الفتنة بين العثمرين بحوران بين قيس ويمن، وكان ذلك أول ما أنشؤوه في الإسلام، كان خامداً فأثاروه في هذا الأوان، فلما قدم جعفر بجيشه خمدت الشرور وظهر السرور، وقيلت في ذلك أشعار حسان، قد ذكرها في ترجمته من «تاريخه»؛ فمنها:

لقد أوقدت في الشام نيران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر وفيه تلاقى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجدٍ تراضى به فحْطانُها ونزارُها
هو الملك المأمول للبر والتقى وصولاته لايستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه ومديته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه فعندك مأواها وأنت قرارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة يؤمّلُ جدواها ويُخشى دمارها

وهى قصيدة طويلة اقتصرنا منها على هذا القدر، وكانت له فصاحة وبلاغة وكرم زائد، وكان أبوه قد ضمه إلى القاضي أبي يوسف فتفقه عليه، وصار له اختصاص بالرشيد، وقد وقع ليلة بحضرة الرشيد زيادة على ألف توقيع، ولم يخرج في شيء منها عن موجب الفقه.

وقد روى الحديث عن أبيه عن عبد الحميد الكاتب عن عبد الملك بن مروان كاتب عثمان عن زيد بن ثابت كاتب الوحي. قال قال رسول الله ﷺ: «إذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه». رواه الخطيب [تاريخ بغداد:١٢/٣٤٠] وابن عساكر [تاريخ دمشق:٤٠/٤٧] من طريق أبي القاسم الكعبي المتكلم، واسمه عبد الله بن أحمد البلخي - كان كاتباً لمحمد بن زيد - عن أبيه عن عبد الله بن طاهر عن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق عن الفضل بن سهل ذي الرياستين عن جعفر بن يحيى به. وقال عمرو بن بحر الجاحظ قال جعفر بن يحيى للرشيد: يا أمير المؤمنين! قال لي أبي يحيى: إذا أقبلت الدنيا عليك فأعط؛ فإنها لا تفني، وإذا أدبرت عنك، فأعط، فإنها لاتبقى، قال جعفر: وأنشدني أبي:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة ... فليس ينقصها التبذير والسرف
فإن تولّت فأحرى أن تجود بها ... فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

قال الخطيب البغدادي: ولقد كان جعفر من علّو القدر ونفاذ الأمر وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها، ولم يشاركه فيها. وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر. أما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فأشهر من أن يذكروأبين من أن يظهر. وكان أيضاً من ذوي الفصاحة والمذكورين والبلاغة.

وروى ابن عساكر عن مهذب حاجب العباس بن محمد صاحب قطيعة العباس والعباسية أنه أصابته ضائقة، فألحّ عليه المطالبون وعنده سفط فيه جوهر شراؤه عليه ألف ألف درهم، فحمله إلى منه فاشتراه بثمنه ووزن له ألف ألف، وقبض منه السفط وأجلسه عنده في تلك الليلة فلما رجع إلى منزله إذا السفط قد سبقه إلى منزله. فلما أصبح غدا إليه ليشكره فوجده مع أخيه الفضل على باب الرشيد يستأذنان عليه، فقال له جعفر: إني قد ذكرت أمرك للفضل، وقد أمر لك بألف ألف. وما أظنها إلا قد سبقتك الى أهلك، وسأفاوض فيك أمير المؤمنين. فلما دخل ذكر له أمره وما لحقه من الديون فأمر له بثلاثمائة ألف دينار.

وكان جعفر ليلة في سمره عند رجل من أصحابه فجاءت الخنفساء فركبت ثياب الرجل فألقاها عنه جعفر وقال: إن الناس يقولون: إنّ من قصدته الخنفساء يبشر بمال يصيبه. فأمر له جعفر بألف دينار. ثم عادت الخنفساء، فرجعت الى الرجل فأمر له بألف دينار أخرى.

وحج مرة مع الرشيد فلما كانوا بالمدينة قال لرجل من أصحابه: انظر جارية أشتريها تكون فائقة في جمالها وغنائها وذكائها، ففتش الرجل فوجد جارية على النعت فطلب سيدها فيها مالا كثيراً على أن يراها جعفر، فذهب جعفر الى منزل سيدها فلما رآها أعجب بها، فلما غنته أعجبته أكثر، فساومه صاحبها فيها، وقال: قد أحضرنا مالا فإن أعجبك وإلا زدناك، فقال لها سيدها: إني كنت في نعمة وكنت عندي في غاية السرور، وإنه قد انقبض على حالي، وإني قد أحببت أن أبيعك لهذا الملك، لتكوني عنده كما كنت عندي. فقالت: ياسيدي لو ملكت منك ما ملكت مني لم أبعك بالدنيا وما فيها، وأين ما كنت عاهدتني أن لاتبيعني ولا تأكل من ثمني. فقال سيدها لجعفر وأصحابه: أشهدكم أنها حرة لوجه الله، وأني قد تزوجتها. فلما قال ذلك نهض جعفر وقام أصحابه وأمروا الحمال أن يحمل الدراهم. فقال جعفر: والله لاتبعني، وقال للرجل: قد ملكتها فأنفقها على أهلك، وذهب وتركه.

هذا وقد كان يبخل بالنسبة إلى أخيه الفضل، إلا أن الفضل كان أكثر منه مالا.

وروى ابن عساكر من طريق الدارقطني بسنده أنه لما أصيب جعفر وجدوا له في جرة ألف دينار، وزنة كل دينار مائة دينار، مكتوب على صفحة الدينار الواحدة جعفر والأخرى:

واصفر من ضرب دار الملوك ... يلوح على وجهه جعفر
يزيد على مائةٍ واحداً ... متى تعطه معسراً يوسر

وقال أحمد بن المعلى الراوية: كتبت عنان جارية الناطفي إلى جعفر تطلب منه أن يقول لأبيه يحيى أن يشير على الرشيد بشرائها، وكتبت إليه بهذه الأبيات من شعرها في جعفر:

يا لائمي جهلا ألا تقصر ... من ذا على حر الهوى يصبر
لا تلحني إذا شربت الهوى ... صرفاً فممزوج الهوى يسكر
أحاط بي الحب فخلفي له ... بحر وقدّامي له أبحر
تخفق رايات الهوى بالردى ... فوقي وحولي للهوى عسكر
سيان عندي في الهوى لائم ... أقل فيه والذي يكثر
أنت المصفى من بني برمك ... يا جعفر الخيرات ياجعفر
لا يبلغ الواصف في وصفه ... ما فيك من فضل ولا يعشر
من وفر المال بأغراضه ... فجعفر أعراضه أوفر
ديباجة الملك على وجهه ... وفي يديه العارض الممطر
سحت علينا منهما ديمة ... ينهل منها الذهب الأحمر
لو مسحت كفاه جلمودة ... أنضر فيها الورق الأخضر
لا يستتم المجد إلا فتى ... يصبر للبذل كما يصبر
يهتز تاج الملك من فوقه ... فخراً ويزهى تحته المنبر
أشبهه البدر إذا ما بدا ... أو غرة في وجهه تزهر
والله ما أدري أبدر الدجى ... في وجهه أم وجهه أنور
يستمطرُ الزوارُ منكَ الندى ... وأنتَ بالزوارِ تستبشرُ

وكتبت تحت أبياتها حاجتها، فركب من فوره إلى أبيه فأدخله على الخليفة فأشار عليه بشرائها فقال: لا والله لا أشتريها، وقد قال فيها الشعراء فأكثروا، واشتهر أمرها وهي التي يقول فيها أبو نواس:

إنّ عِنانَ النطافَ جاريةٌ ... أصبح حرُّها للنُّيك ميدانا
لا يشتريها إلا ابنُ زانيةٍ ... أو قلطبانٌ يكونُ من كانا

وعن ثمامة بن أشرس قال: بت ليلة مع جعفر بن يحيى بن خالد فانتبه من منامه يبكي مذعوراً فقلت: ما شأنك؟ قال: رأيت شيخاً جاء فأخذ بعضادتي هذا الباب وقال:

كأن لم يكنْ بينَ الحجونِ إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمرْ بمكة سامرُ

قال فأجبته:

بل نحنُ كنا أهلها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

قال ثمامة بن أشرس: فلما كانت الليلة القابلة قتله الرشيد ونصب رأسه على الجسر ثم خرج الرشيد فنظر إليه فتأمله ثم أنشأ يقول:

تقاضاكَ دهرُكَ ما أسلفا وكدرَ عيشك بعدَ الصفا

فلا تعجبنَّ فإنَّ الزمانَ رهينٌ بتفريقِ ما ألفا

قال: فنظرت إلى جعفر وقلت: أما لئن أصبحت اليوم آية فلقد كنت في الخير غاية، قال: فنظر الي الرشيد كأنه جمل صؤول ثم أنشأ يقول:

ما يعجبُ العالمُ مِنْ جعفرٍ ما عاينوهُ فينا كانا

مَن جعفرٌ أو منْ أبوهُ ومنْ كانت بنو برمكٍ لولانا

ثم حول وجه فرسه وانصرف.

وقد كان مقتل جعفر ليلة السبت مستهل صفر من سنة سبع وثمانين ومائة، وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة، وكان له في الوزارة سبع عشرة سنة.

وقد دخلت عبادة أم جعفر على أناس في يوم عيد أضحى تستمنحهم جلد شاه تتدفأ به، وسألوها عن أمرهم فقالت: أذكر أصبحت في مثل هذا اليوم وإن على رأسي أربعمائة وصيفة، وإني لأقول: إن ابني جعفراً عاق بي.

وروى الخطيب البغدادي أن سفيان بن عيينة لما بلغه قتل الرشيد جعفراً وما أحل بالبرامكة من النقمة، استقبل القبلة وقال: اللّهم إن جعفراً كان قد كفاني مؤنة الدنيا فاكفه مؤنة الآخرة.

حكاية غريبة:

ذكر أبوالفرج بن الجوزي في كتابه المنتظم [١٤٦/٩-١٤٨] أن المأمون بلغه أن رجلا يأتي كل يوم إلى قبور البرامكة فيبكي عليهم ويندبهم، فبعث من جاءه به فدخل عليه وقد يئس من الحياة، فقال له: ويحك! ما يحملك على صنيعك هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنهم أسدوا إليّ معروفاً وخيراً كثيراً ولي خبر طويل. فقال: قل قال: أنا المنذر بن المغيرة من أهل دمشق، كنت في نعمة عظيمة، فزالت عني حتى أفضى بي الحال إلى أن بعت داري، ولم يبق لي شيء، فأشار بعض أصحابي عليَّ بقصد البرامكة ببغداد، فأتيت أهلي وتحملت بعيالي، فأتيت بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيّاً فأنزلتهن في مسجد مهجور ثم قصدت مسجدا مأهولا أصلي فيه. فدخلت فإذا فيه جماعة لم أر أحسن منهم، فجلست إليهم فجعلت أدير في نفسي كلاماً أطلب به منهم قوتاً للعيال، فيمنعني من ذلك ذُلّ السؤال، فبينا أنا كذلك إذا بخادم قد أقبل فاستدعاهم فقاموا كلهم وقمت معهم،فدخلوا داراً عظيمة، فإذا الوزير يحيى بن خالد فيها فجلسوا حوله، فعقد عقد ابنته عائشة على ابن عم له ونثروا علينا سحيق المسك وبنادق العنبر، ثم جاءت الخدم إلى كل واحد من الجماعة بصينية من فضة فيها ألف دينار، ومعها فتات المسك، فأخذها القوم ونهضوا وبقيت بين يدي الصينية التي وضعوها لي، وأنا أهاب أن آخذها من عظمتها عندي، فقال لي بعض الحاضرين: ألا تأخذها وتقوم؟ فمددت يدي فأخذتها فأفرغت ذهبها في جيبي وأخذت الصينية تحت إبطي وقمت، وأنا خائف أن تؤخذ مني، فجعلت أتلفت والوزير ينظر إلي وأنا لا أشعر، فلما بلغت الستارة أمرهم فردوني فبشست من المال، فلما رجعت قال لي: ما شأنك خائف؟ فقصصت عليه خبري، فبكى ثم قال لأولاده: خذوا هذا فضموه إليكم. فجاءني خادم فأخذ مني الذهب والصينية وأقمت عندهم عشرة أيام من ولد إلى ولد، وخاطري كله عند عيالي، ولا يمكنني الانصراف، فلما انقضت العشرة الأيام جاءني خادم فقال: ألا تذهب إلى أهلك؟ فقلت: بلى والله، فقام يمشي أمامي ولم يعطني الذهب، فقلت: يا ليت هذا كان قبل أن يؤخذ مني الصينية والذهب، يا ليت عيالي رأوا ذلك. فسار يمشي أمامي إلى دار لم أر أحسن منها، فدخلتها فاذا عيالي يتمرغون في الذهب والحرير فيها، وقد بعثوا إلى الدار مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، وكتاباً فيه تمليك الدار بما فيها، وبقريتين جليلتين، فكنت مع البرامكة في أطيب عيش، فلما أصيبوا أخذ مني عمرو بن مسعدة القريتين وألزمني بخراجهما، فكلما لحقتني فاقة قصدت دورهم وقبورهم فبكيت عليهم. فأمر المأمون برد القريتين، عليه وخراجهما فبكى الشيخ بكاء شديداً فقال له المأمون: ألم أستأنف بك جميلا؟ قال: بلى! ولكن هو من بركة البرامكة. فقال المأمون: امض مصاحباً فإن الوفاء مبارك، وحسن العهد من الإيمان.

وممن توفي فيها من الأعيان:

■ **الفضيل بن عياض:** أبو علي التميمي أحد أئمة العباد وعلم الزهاد،وواحد العلماء الأولياء، ولد بخراسان بكورة أبيورد وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع الأعمش ومنصور بن المعتمر وعطاء بن السائب وحصين بن عبد الرحمن وغيرهم. ثم انتقل إلى مكة فتعبد بها، وكان حسن التلاوة كثير الصلاة والصيام، وكان سيداً كبير الشأن ثقة من أئمة الرواية رحمه الله ورضي عنه. وله مع الرشيد قصة موعظته له، وقد روينا ذلك مطولا في كيفية دخول الرشيد عليه منزله، وما قال له الفضيل بن عياض، وعرض الرشيد عليه المال فابى ذلك ولم يقبل منه شيئاً. وكانت وفاته بمكة في هذا العام في المحرم منه.

وذكروا أنه كان شاطراً يقطع الطريق، وكان يتعشق جارية، فبينما هو ذات ليلة يتسور عليها جداراً إذ سمع قارئاً يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: بلى! ويا رب. وأقلع عما هو فيه. ورجع إلى خربة فبات بها فسمع سفاراً يقولون: خذوا حذركم إن فضيلا أمامكم يقطع عليهم الطريق، فأمنهم واستمر على توبته حتى كان منه ما كان من السيادة والعبادة والزهادة، حتى صار علماً يقتدى به ويهتدى بكلامه وفعاله.رحمه الله

قال الفضيل: لو أن الدنيا كلها حلال لا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.

وقال: العمل لأجل الناس شرك، وترك العمل لأجل الناس رياء، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال له الرشيد يوماً: ما أزهدك، فقال: أنت أزهد مني، لأني زهدت في الدنيا الفانية، وأنت زهدت في الآخرة الباقية.

ومن كلامه: لو أن لي دعوة مستجابة لدعوت بها لإمام عامّةٍ فإنه إذا صلح أمنت العباد والبلاد.

وقال أيضاً: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي.

وقال في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. [الملك:٢] قال: يعني أخلصه وأصوبه، إن العمل يجب أن يكون خالصاً لله، وصواباً على متابعة النبي ﷺ

وفيها توفي

بشر بن المفضل. وعبد السلام بن حرب. وعبد العزيز بن محمد الدراوردي. وعبد العزيز العمّي.

■ **علي بن عيسى،** الأمير ببلاد الروم مع القاسم بن الرشيد في

الصائفة.

■ معتمر بن سليمان

■ أبو شعيب البراني الزاهد، وكان أول من سكن براناً في كوخ له يتعبد فيه، فهويته امرأة من بنات الرؤساء فانخلعت مما كانت فيه من الدنيا والسعادة والحشمة، وتزوجته وأقامت معه يتعبّدان في ذلك الكوخ حتى ماتا رحمهما الله، ويقال: إن اسمها: جوهرة.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة

فيها غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج النفور للقائه فجرح النفور ثلاث جراحات، وانهزم، وقتل من أصحابه أكثر من أربعين ألفاً، وغنموا أكثر من أربعة آلاف دابة.

وفيها رابط القاسم بن الرشيد بمرج دابق.

وفيها حج بالناس أمير المؤمنين هارون الرشيد، وكانت آخر حجاته.

وقد قال أبوبكر بن عياش حين رأى الرشيد منصرفاً من الحج ـ وقد اجتاز بالكوفة ـ لا يحج الرشيد بعدها، ولا يحج بعده خليفة أبداً. وقد لقيه بهلول المولع العاقل فوعظه موعظة حسنة، فرورينا من طريق الفضل بن الربيع الحاجب قال: حججت مع الرشيد فمررنا بالكوفة فإذا بهلول المجنون يهذي، فقلت: اسكت فقد أقبل أمير المؤمنين، فسكت. فلما حاذاه الهودج قال: يا أمير المؤمنين حدّثني أيمن بن نابل حدثنا قدامة بن عبد الله العامري قال. رأيت النبي ﷺ يمشي على جمل وتحته رَحْلٌ رث، ولم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك. فقلت: يا أمير المؤمنين إنه بهلول المجنون، فقال: قد عرفته، قل يا بهلول فقال:

فهبْ أنّ قَدْ ملكتَ الأرضَ طراً ... ودانَ لكَ العبادُ فكانَ ماذا

أليسَ غداً مصيرك جوفَ قبرٍ ... ويحثو التُّربَ هذا ثمَّ هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالا وجمالا فعف في جماله، وواسى في ماله، كتب في ديوان الأبرار. قال: فظن أنه يريد شيئاً، فقال: إنا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا تقض ديناً بدين، اردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنا أمرنا أن يجرى عليك رزق. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني. وها أنا قد عشت عمراً لم تجر علي رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خذها. فقال: اردد على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أبو اسحاق الفزاري: إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة، إمام أهل الشام في المغازي وغير ذلك.

أخذ عن الثوري والأوزاعي وغيرهما، توفي في هذه السنة. وقيل قبلها.

■ إبراهيم الموصلي: النديم، هو إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نُسْك أبو إسحاق، أحد الشعراء والمغنين والندماء، أصله من الفرس وولاؤه للحنظليين وولد بالكوفة وصحب شبانها وأخذ عنهم الغناء، فأجاد في عمله ثم سافر إلى الموصل ثم عاد إلى الكوفة فقالوا له: الموصلي. ثم اتصل بالخلفاء أولهم المهدي وحظي عند الرشيد، وكان من جملة سماره وندمائه ومغنيه، وقد أثرى وكثر ماله جداً، حتى إنه يقال: إنه ترك أربعة وعشرين ألف ألف درهم، وكانت له طرف وحكايات غريبة، وكان مولده سنة خمس وعشرين ومائة في الكوفة، ونشأ في كفالة بني تميم، فتعلم منهم ونسب إليهم، وكان فاضلا بارعاً في صناعة الغناء، وكان مزوّجاً بأخت منصور الملقب بزلزل، الذي كان يضرب معه، فاذا غنى هذا وضرب هذا اهتز المجلس. وكانت وفاته في هذه السنة على الصحيح.

وحكى ابن خلكان في الوفيات [٤٣/١] قولاً أنه توفي هو وأبو العتاهية وأبو عمرو الشيباني النحوي ببغداد في يوم واحد من سنة ثلاث عشرة ومائتين. وصحح الأول. ومن أشعاره شعره عند احتضاره قوله:

مالٌ واللّهو طيبي ... مِنْ مقاساة الذي بي

سوفَ أنعى عن قريبٍ ... لعدوٍّ وحبيبِ

وفيها مات:

جرير بن عبد الحميد. ورشدين بن سعد. وعبدة بن سليمان. وعقبة بن خالد. وعمر بن أيوب العابد أحد مشايخ أحمد بن حنبل. وعيسى بن يونس في قول.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة

فيها رجع الرشيد من الحج وسار إلى الري فولى وعزل. وقطع ووصل.

وفيها ردّ علي بن عيسى إلى ولاية خراسان، وجاءه نواب تلك البلاد بالهدايا والتحف من سائر الأشكال والألوان، ثم عاد إلى بغداد فأدركه عيد الأضحى بقصر اللصوص فضحى عنده، ودخل بغداد لثلاث بقين من ذي الحجة، فلما اجتاز بالجسر أمر بجثة جعفر بن يحيى البرمكي فأحرقت ودفنت، وكانت مصلوبة من قتله إلى هذا اليوم، ثم ارتحل الرشيد من بغداد إلى الرقة ليسكنها وهو متأسف على بغداد وطيبها، وإنما مراده بمقامه بالرقة ردع المفسدين بها، وقد قال العباس بن الأحنف في خروجهم من بغداد مع الرشيد:

ما أنخنا حتى ارتحلنا فما ... نفرقُ بينَ المُناخِ والارتحالِ

ساءلونا عنْ حالنا إذ قدمنا ... فقرنّا وداعهمْ بالسؤالِ

وفي هذه السنة فادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم، حتى يقال إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين. فقال فيه بعض الشعراء الألبّاء:

وفكّت بكَ الأسرى التي شيدت ... محابسُ ما فيها حميمٌ يزورها

على حينِ أعيا المسلمينَ فكاكُها ... وقالوا سجونُ المشركين قبورُها

وفيها رابط القاسم بن هارون الرشيد بمرج دابق محاصراً الروم.

وفيها حج بالناس العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ علي بن حمزة بن عبد الله بن فيروز أبو الحسن الأسدي مولاهم، الكوفي المعروف بالكسائي لإحرامه في كساء، وقيل لاشتغاله على حمزة الزيات في كساء، النحوي اللغوي أحد أئمة القراء، أصله من الكوفة ثم

استوطن بغداد، فأدب الرشيد وولده الأمين، وكان قد قرأ على حمزة بن حبيب الزيات قراءته، وكان يقرئ بها، ثم اختار لنفسه قراءة فكان يقرأ بها.

وقد روى عن أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وغيرهما، وعنه يحيى بن زياد الفراء وأبوعبيد.

وقد قال الشافعي: من أراد أن يتبحّر النحو فهو عيال على الكسائي.

وقد كان الكسائي أخذ عن الخليل صناعة النحو فسأله يوماً: عمن أخذت هذا؟ قال: من بوادي الحجاز. فرحل الكسائي إلى هناك فكتب عن العرب شيئاً كثيراً، ثم عاد ومن همّته العود إلى الخليل فإذا هو قد مات وتصدر في موضعه يونس، فجرت بينهما مناظرات أقر له فيها يونس، وأجلسه في موضعه.

قال الكسائي: صليت يوماً بالرشيد فأعجبتني قراءتي، فغلطت غلطة ما غلطها صبيّ، أردت أن أقول ﴿لعلهم يرجعون﴾ [الأعراف:١٨٦]، فقلت لعلهم يرجعين، فما تجاسر الرشيد أن يردها. لكن لما سلمت قال: أي لغة هذه؟ فقلت: إن الجواد قد يعثر. فقال: أما هذا فنعم.

وقال بعضهم: لقيت الكسائي فإذا هو مهموم، فقلت: ما لك؟ فقال: إن يحيى بن خالد قد وجه إليّ يسألني عن أشياء فأخشى من الخطأ، فقلت: قل ما شئت فأنت الكسائي. فقال: قطعه الله - يعني لسانه - إن قلت ما لم أعلم.

وقال الكسائي يوماً قلت لنجار: بكم هذان البابان؟ فقال: بسَلْحتان يا مصفعان.

توفي الكسائي في هذه السنة على المشهور، عن سبعين سنة. وكان في صحبة الرشيد ببلاد الريّ فمات بنواحيها هو ومحمد بن الحسن في يوم واحد، وكان الرشيد يقول: دفنت الفقه والعربية بالري.

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٢٩٦/٣]: وقيل إن الكسائي توفي بطوس سنة ثنتين وثمانين ومائة فالله أعلم.

وقد رأى بعضهم الكسائي في المنام ووجه كالبدر فقال له: ما فعل ربك بك؟ فقال: غفر لي بالقرآن. فقلت: ما فعل حمزة؟ قال: ذاك في عليين ما نراه إلا كما ترى الكوكب.

■ محمد بن الحسن بن فرقد: أبو عبد الله الشيباني مولاهم، صاحب أبي حنيفة. أصله من قرية من قرى دمشق، قدم أبوه العراق فولد محمد بواسط سنة ثنتين وثلاثين ومائة، ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة ومسعر والثوري وعمر بن ذر ومالك بن مغول، وكتب عن مالك بن أنس والأوزاعي وأبي يوسف، وسكن بغداد وحدث بها، وكتب عنه الشافعي حين قدمها في سنة أربع وثمانين ومائة وقَرَ بعير، وولاه الرشيد قضاء الرقة ثم عزله وخرج مع الرشيد الى الريّ فمات بها.

وكان يقول لأهله: لا تسألوني حاجة من حاجات الدنيا فتشغلوا قلبي. وخذوا ما شئتم من وكيلي فإنه أقل همي وأفرغ لقلبي.

وقال الشافعي: ما رأيت حبراً سميناً مثله، ولا رأيت أخف روحاً منه، ولا أفصح منه. كنت إذا سمعته يقرأ وكأنّ القرآن نَزل بلغته.

وقال أيضاً ما رأيت أعقل من محمد بن الحسن، كان يملأ العين والقلب.

قال الطحاوي: كان الشافعي قد طلب من محمد بن الحسن كتاب السير فلم يجبه إلى الإعارة فكتب إليه:

فـل للـذي لم تـرَ عيـ ـنـا مـن رآه مثلـه

حتـى كـأنْ مَـنْ رآ ـهُ قـد رأى مـن قبلـهْ

العلـمُ ينهـى أهلـه أن يمنعـوهُ أهلـه

لعلـهُ يبذلـهِ لأهلـهِ لعلـهْ

قال: فوجه به إليه في الحال هدية لا عارية.

وقال إبراهيم الحربي: قيل لأحمد بن حنبل: هذه المسائل الدقاق من أين هي لك؟ قال: من كتب محمد بن الحسن رحمه الله وكانت وفاة محمد بن الحسن والكسائي في يوم واحد من هذه السنة. فقال الرشيد: دفنت اليوم اللغة والفقه جميعاً. وكان عمر محمد بن الحسن ثمانياً وخمسين سنة.

سنة تسعين ومائة من الهجرة

فيها خلع رافع بن ليث بن نصر بن سيار نائب سمرقند الطاعة ودعا إلى نفسه، وتابعه أهل بلده وطائفة كثيرة من تلك الناحية، واستفحل أمره، فسار إليه نائب خراسان علي بن عيسى فهزمه رافع وتفاقم الأمر به.

وفيها سار هارون الرشيد لغزو بلاد الروم لعشر بقين من رجب، وقد لبس على رأسه قلنسوة فقال فيها أبو المعلى الكلابي:

فمـن يطلـبْ لقـاءكَ أو يـرده فبـالحرمينِ أو أقصـى الثغـورِ

ففـي أرضِ العـدوِ علـى طمـرٍّ وفي أرضِ الترفـهِ فـوقَ كـورِ

ثم وصل إلى الطوانة فعسكر بها وبعث نقفور بالطاعة وحمل الخراج والجزية حتى عن رأسه ورأس ولده، وأهل مملكته، في كل سنة خمسين ألف دينار، وبعث يطلب من الرشيد جارية قد أسروها وكانت ابنة ملك هرقلة، وكان قد خطبها على ولده، فبعث بها الرشيد مع هدايا وتحف وطيب بعث بطلبه، واشترط عليه الرشيد أن يحمل في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار، وأن لا يعمر هرقلة. ثم انصرف الرشيد راجعاً واستناب على الغزو عقبة بن جعفر.

ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى أهلها وقتل منهم خلقاً كثيراً. وخرج رجل من عبد القيس فبعث إليه الرشيد من قتله.

وحج بالناس في هذه السنة عيسى بن موسى الهادي.

ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان

■ أسد بن عمرو بن عامر أبو المنذر البجلي الكوفي صاحب أبي حنيفة، وحكم ببغداد وبواسط، فلما أنكر بصره عزل نفسه عن القضاء.

روى عنه أحمد بن حنبل وقال: كان صدوقاً. ووثقه ابن معين، وتكلم فيه علي بن المديني والبخاري.

■ سعدون المجنون صام ستين سنة فخف دماغه فسماه الناس المجنون، وقف يوماً على حلقة ذي النون المصري فسمع كلامه فصرخ ثم أنشأ يقول:

ولا خيرَ في شكوى إلى غيرِ مشتكى ولابد من شكوى إذا لم يكنْ صبرُ

وقال الأصمعي: مررت به وهو جالس عند رأس شيخ سكران يذب عنه، فقلت له: ما لي أراك عند رأس هذا الشيخ؟ فقال: إنه مجنون. فقلت: أنت المجنون أو هو؟ قال: لا بل هو، لأني صليت الظهر والعصر جماعة وهو لم يصلّ جماعة ولا فرادى. وهو مع هذا قد شرب الخمر وأنا لم أشربها. قلت:فهل قلت في هذا شيئاً؟ قال: نعم، ثم أنشأ يقول:

تركتُ النبيذَ لأهلِ النبيذِ ... وأصبحتُ أشربُ ماءً قراحا
لأن النبيذَ يذلُ العزيزَ ... ويكسو بذاك الوجوهَ الصِّباحا
فإنْ كانَ ذا جائراً للشبابِ ... فما العذرُ منهُ إذا الشيبُ لاحا

قال الأصمعي: فقلت له: صدقت، وانصرفت

■ عبيدة بن حميد بن صهيب أبو عبد الرحمن التيمي الكوفي، مؤدب الأمين. روى عن الأعمش وغيره، وعنه أحمد بن حنبل. وكان يثني عليه.

■ يحيى بن خالد بن برمك: أبو علي الوزير والد جعفر البرمكي، ضم إليه المهدي ولده الرشيد فرباه، وأرضعته امرأته مع الفضل بن يحيى، فلما ولي الرشيد عرف له حقه، وكان يقول: قال أبي. وفوض إليه أمور الخلافة وأزمّتها، ولم يزل كذلك حتى نكبت البرامكة فقتل جعفراً وخلد أباه يحيى في الحبس حتى مات في هذه السنة.

وكان كريماً فصيحاً، ذا رأي سديد، يظهر من أموره خير وصلاح.

قال يوماً لولده: خذوا من كل شيْ طرفاً، فإن من جهل شيئاً عاداه. وقال لأولاده: اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون.

وكان يقول لهم: إذا أقبلت الدنيا فأنفقوا منها فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت فأنفقوا منها فإنها لا تبقى.

وكان إذا سأله سائل في الطريق وهو راكب أقل ما يأمر له بمائتي درهم فقال رجل يوماً:

يا سمي الحصورِ يحيى ... أتيحتْ لكَ مِنْ فضلِ ربنا جنتانِ
كلُّ مَنْ مرَّ في الطريقِ عليكم ... فلهُ مِنْ نوالكمْ مائتانِ
مائتا درهمٍ لمثلي قليلٌ ... هبي منكم للقابس العجلانِ

فقال: صدقت. وأمر أن فسبق به إلى الدار، فلما رجع سأل عنه فإذا هو قد تزوج وهو يريد أن يدخل على أهله فأعطاه صداقها أربعة آلاف، وثمن دار أربعة آلاف، وعن الأمتعة أربعة آلاف. وثمن الدخول أربعة آلاف، وأربعة آلاف يستظهر بها.

وجاءه رجل يوماً فسأله شيئاً فقال: ويحك لقد جئتني في وقت لا أملك فيه مالا، ولكن قد بعث إلي صاحب إلي يطلب مني أن يهدي إلي ما أحب، وقد بلغني أنك تريد أن تبيع جارية لك، وأنك قد أعطيت فيها ثلاثة آلاف دينار، وإني سأطلبها منه فلا تبعها منه بأقل من ثلاثين ألف دينار. فلما جاءني يساومني فيها الحجتُ أن لا أبيعها بأقلّ من ثلاثين ألف دينار، فبلغ في ثمنها عشرين ألف دينار، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها، وأجبت إلى بيعها، فأخذها وأخذت العشرين ألف دينار. فأهداها إلى يحيى، فلما اجتمعت بيحيى قال: بكم بعتها؟ قلت: بعشرين ألف دينار. قال: إنك لخسيس خذ جاريتك إليك وقد بعث إلي نائب فارس يطلب مني أن أستهديه شيئاً، وإني سأطلبها منه فلا تبعها بأقل من خمسين ألف دينار. فجاؤوني فوصلوا إلى ثلاثين ألف دينار، فبعتها. فلما جئته لأمني أيضاً وردها عليّ، فقلت: أشهدك أنها حرة وقد تزوجتها، وقلت: جارية قد أفادتني خمسين ألف دينار لا أفرط فيها بعد اليوم.

وذكر الخطيب أن الرشيد طلب من منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم، ولم يكن عنده منها سوى ألف ألف درهم، فضاق ذرعاً، وقد توعده إن لم يحملها في يومه ذلك بالقتل وخراب الديار، فدخل على يحيى بن خالد وذكر له أمره فأطلق له خمسة آلاف ألف، واستطلق له من ابنه الفضل ألفي ألف، وقال لابنه: يا بني بلغني أنك تريد أن تشتري بها ضيعة. وهذه ضيعة تغل الشكر وتبقى مدى الدهر. وأخذ له من ابنه جعفر ألف ألف، وأخذ له من جاريته دنانير عقداً مُشتراه بمائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار، وقال للمترسم عليه: قد حسبناه عليك بألفي ألف. فلما عرضت الأموال على الرشيد رد العقد، وكان قد وهبه لجارية يحيى، فلم يعد فيه بعد أن وهبه لها. وقال له بعض بنيه وهم في السجن والقيود: يا أبت بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال، فقال: يا بني دعوة مظلوم سرت بليل ونحن عنها غافلون ولم يغفل الله عنها. ثم أنشأ يقول:

ربَّ قومٍ قد غدوْا في نعمةٍ ... زمناً والدهرُ ريانُ غدقْ
سكتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ... ثمَّ أبكاهم دماً حينَ نطقْ

وقد كان يحيى بن خالد هذا يجري على سفيان بن عيينة كل شهر ألف درهم، وكان سفيان يدعو له في سجوده يقول: اللّهم إنه قد كفاني المؤنة وفرغني للعبادة فاكفه أمر آخرته. فلما مات رآه بعض أصحابه في المنام فقال: ما فعل الله لك؟ قال: غفر لي بدعاء سفيان.

وقد كانت وفاة يحيى بن خالد رحمه الله في الحبس بالرافقة لثلاث خلون من المحرم في هذه السنة عن سبعين سنة، وصلى عليه ابنه الفضل، ودفن على شط الفرات، وقد وجد في جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه: قد تقدم الخصم والمدعى عليه بالأثر، والحاكم الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة. فحملت إلى الرشيد فلما قرأها ما زال يبكي يومه ذلك، وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه. وقد قال بعض الشعراء في يحيى بن خالد هذا:

سألتُ الندا هلْ أنتَ حرٌ فقال لا ... ولكنني عبدٌ ليحيى بنِ خالدِ
فقلتُ شراءٌ قال لا بلْ وراثةٌ ... توارثني عن والدٍ بعدَ والدِ

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائة

فيها خرج رجل بسواد العراق يقال له ثروان بن سيف، وجعل يتنقل فيها من بلد إلى بلد، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك فهزمه وجرح ثروان وقتل عامة أصحابه، وكتب بالفتح إلى الرشيد.

وفيها خرج بالشام أبو النداء فوجه إليه الرشيد يحيى بن معاذ واستنابه على الشام.

وفيها وقع الثلج ببغداد.

وفيها غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه على مرحلتين من طرسوس، وانهزم الباقون، وولى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين، وضم إليه ثلاثين ألفاً فيهم مسرور الخادم، وإليه النفقات.

وخرج الرشيد إلى الحدث ليكون قريباً منهم. وأمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلاد.

وفيها عزل الرشيد علي بن موسى عن إمرة خراسان وولاها هرثمة بن أعين.

وفيها فتح الرشيد هرقلة في شوال وخرّبها وسبى أهلها وبث الجيوش والسرايا بأرض الروم وخرجت الروم إلى عين زُرْبى، والكنيسة السوداء.

وكان خراج هرقلة في كل يوم مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرفوق، وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر، ودخل جزيرة قبرص فسبى أهلها وحملهم حتى باعهم بالرافقة، فبلغ ثمن الأسقف ألفي دينار، باعهم أبو البختري القاضي.

وفيها أسلم الفضل بن سهل على يدي المأمون.

وحج بالناس فيها الفضل بن عباس بن محمد بن علي العباسي وكان والي مكة، ولم يكن للناس بعد هذه السنة صائفة إلى سنة خمس عشرة ومائتين.

ذكر من توفي فيها من الأعيان

■ سلمة بن الفضل الأبرش.

■ عبد الرحمن بن القاسم الفقيه الراوي عن مالك الذي هو العمدة في مذهب مالك فيما يرويه عن الإمام مالك، وكان من كبار الصالحين.

■ عيسى بن يونس بن أبي إسحاق، قدم على الرشيد فأمر له بمال جزيل، نحواً من خمسين ألفا فلم يقبله.

■ الفضل بن موسى السيناني.

■ محمد بن سلمة.

■ مخلد بن الحسين المصيصي أحد الزهاد الثقات. قال لم أتكلم بكلمة أحتاج إلى الإعتذار منها منذ خمسين سنة. ومعمر الرقي.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين ومائة

فيها دخل هرثمة بن أعين إلى خراسان نائباً عليها، وقبض على علي بن عيسى فأخذ أمواله وحواصله وأركبه على راحلة ونادى عليه ببلاد خراسان، وكتب إلى الرشيد بذلك فشكره على ذلك، ثم سيَّره إلى الرشيد بعد ذلك فحبس بداره ببغداد.

وفيها ولى الرشيد ثابت بن نصر بن مالك نيابة الثغور فدخل بلاد الروم وفتح مطمورة.

وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم على يدي ثابت بن نصر.

وفيها خرجت الخُرَّمية بالجبل وبلاد أذربيجان. فوجه الرشيد إليهم عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف فارس فقتل منهم خلقا وأسر وسبى ذراريهم، وقدم بهم بغداد فأمر الرشيد بقتل الرجال منهم، وبالذرية فبيعوا بها. وكان قد غزاهم قبل ذلك خزيمة بن خازم.

وفي ربيع الأول منها قدم الرشيد من الرقة إلى بغداد في السفن وقد استخلف على الرقة ابنه القاسم وبين يديه خزيمة بن خازم، ومن نية الرشيد الذهاب إلى خراسان لغزو رافع بن ليث الذي كان قد خلع الطاعة واستحوذ على بلاد كثيرة من بلاد سمرقند وغيرها، ثم خرج الرشيد في شعبان قاصداً خراسان، واستخلف على بغداد ابنه محمداً الأمين، وسأل المأمون من أبيه أن يخرج معه خوفاً من غدر أخيه الأمين، فأذن له فسار معه وقد شكا الرشيد في أثناء الطريق إلى بعض أمرائه جفاء بنيه الثلاثة الذين جعلهم ولاة العهد من بعده، وأراه داء في جسده، وقال إن لكل واحد من الأمين والمأمون والقاسم عندي عيناً علي، وهم يعدون أنفاسي، ويتمنون انقضاء أيامي، وذلك شر لهم لو كانوا يعلمون. فدعا له ذلك الأمير ثم أمره الرشيد بالانصراف إلى عمله وودعه، وكان آخر العهد به.

وفيها تحرك ثروان الحروري وقتل عامل السلطان بطف البصرة.

وفيها قتل الرشيد الهيصم اليماني.

ومات

■ عيسى بن جعفر وهو يريد اللحاق بالرشيد فمات في الطريق.

وفيها حج بالناس العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر المنصور.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إسماعيل بن جامع: بن إسماعيل بن عبد الله بن المطلب بن أبي وداعة أبو القاسم، أحد المشاهير بالغناء، وممن يضرب به المثل فيه فيقال: غناء ابن جامع، وقد كان أولا يحفظ القرآن ثم صار إلى صناعة الغناء وترك القرآن، وذكر عنه أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني صاحب الأغاني حكايات غريبة، من ذلك أنه قال: كنت يوماً مشرفاً في غرفة بحران إذ أقبلت جارية سوداء معها قربة تستقي فيها من مشرعة، فجلست ووضعت قربتها واندفعت تغني:

إلى اللّهِ أشكو مخلهَا وسماحتي ... لها عَسَلٌ مني وتبذلُ عَلْقَما

فردّي مصابَ القلبِ أنتِ قتلتِهِ ... ولا تبعدي فيما تجشّمت كُلْثما

قال: فسمعت ما لا صبر لي عنه ورجوت أن تعيده فقامت وانصرفت، فنزلت وانطلقت وراءها وسألتها أن تعيده فقالت: إن علي خراجاً كل يوم درهمين، فأعطيتها درهمان فأعادته فحفظته وسلكته يومي ذلك، فلما أصبحت أنسيته فأقبلت السوداء فنزلت فسألتها أن تعيده فلم تفعل إلا بدرهمين، ثم قالت: كأنك تستكثر أربعة دراهم. كأني بك وقد أخذت به أربعة آلاف دينار.

قال ابن جامع: فغنيته ليلة للرشيد فأعطاني ألف دينار، ثم استعادنيه ثلاثاً أخرى وأعطاني ثلاثة آلاف دينار، فتبسمت فقال: مم تتبسَّم؟ فذكرت له القصة، فضحك وألقى إلي كيساً آخر فيه ألف دينار. وقال لا تكذب السوداء.

وحكي عنه أيضاً قال: أصبحت يوماً بالمدينة وليس معي إلا ثلاثة دراهم فإذا جارية على رقبتها جرة تريد الركي وهي تسعى وتترنم بصوت شجي وتقول:

شكونا إلى أحبابنا طولَ ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصرَ الليلَ عندنا

وذاكَ لأنّ النومَ يغشى عيونهمْ ... سراعاً ولا يغشى لنا النومُ أعينا

إذا ما دنا الليلَ المضرُّ لذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرونَ إذا دنا

فلوْ أنهم كانوا يلاقونَ مثلما ... نلاقي لكانوا في المضاجعِ مثلنا

قال: فاستعدته منها وأعطيتها الثلاثة دراهم فقالت: لتأخذن بدلها ألف دينار، وألف دينار وألف دينار. فأعطاني الرشيد ثلاثة آلاف دينار في ليلة على ذلك الصوت.

■ بكر بن النطاح أبو وائل الحنفي البصري الشاعر المشهور، نزل بغداد زمن الرشيد، وكان يعاشر أبا العتاهية.

قال أبو هفان: أشعر أهل الغزل من المحدثين أربعة، أولهم بكر بن النطاح.

وقال المبرد: سمعت الحسن بن رجاء يقول: اجتمع جماعة من الشعراء ومعهم بكر بن النطاح يتناشدون، فلما فرغوا من طوالهم أنشد بكر بن

النطاح لنفسه:

ما ضرها لو كتبت بالرضى ... فجفنُ جفنُ العينِ أو أغمضا
شفاعةً مردودةً عندها ... في عاشقٍ تندَّم لو قَدْ قضى
يا نفسُ صبراً واعلمي أنما ... يأمل منها مثلما قَدْ مضى
لم تمرضِ الأجفانُ مِنْ قاتلٍ ... بلحظه إلا لأن أمرضا

قال: فابتدروه يقبلون رأسه.

ولما مات رثاه أبو العتاهية فقال:

ماتَ ابنُ نطاح أبو وائلٍ ... بكرٌ فأمسى الشعرُ قَدْ بانا

■ **بهلول المجنون**، كان يأوي إلى مقابر الكوفة، وكان يتكلم بكلمات حسنة، وقد لقي الرشيد وهو ذاهب الى الحج فوعظه وذلك في سنة ثمان وثمانين كما تقدم.

■ **عبد الله بن إدريس: الأودي الكوفي**، سمع الأعمش وابن جريج وشعبة ومالكا وخلقاً سواهم.

وروى عنه جماعات من الأئمة، وقد استدعاه الرشيد ليوليه القضاء فقال: لا أصلح، وامتنع أشد الامتناع، وكان قد سأل قبله وكيعاً فامتنع أيضاً، فطلب حفص بن غياث فقبل.

وأطلق لكل واحد خمسة آلاف درهم عوضاً عن كلفة السفر، فلم يقبل وكيع ولا ابن إدريس، وقبل ذلك حفص، فحلف ابن إدريس لا يكلمه أبداً.

وحج الرشيد في بعض السنين فاجتاز بالكوفة ومعه القاضي أبو يوسف والأمين والمأمون، فأمر الرشيد بجمع شيوخ الحديث ليسمعوا الأمين والمأمون، فاجتمعوا إلا ابن إدريس هذا، وعيسى بن يونس. فركب الأمين والمأمون بعد فراغهما من سماعهما على من اجتمع من المشايخ إلى ابن إدريس فأسمعهما مائة حديث، فقال له المأمون: يا عم إن أردت أعدتها من حفظي، فأذن له فأعادها من حفظه كما سمعها، فتعجب لحفظه ابن ادريس. ثم أمر له المأمون بمال فلم يقبل منه شيئاً، ثم سارا إلى عيسى بن يونس فسمَّعا عليه ثم أمر له المأمون بعشرة آلاف فلم يقبلها، فظن أنه استقلها فأضعفها فقال: والله ولا إهليلَجَة، لو ملأت لي المسجد مالا إلى سقفه ما قبلت منه شيئاً على حديث رسول الله ﷺ.

ولما احتضر ابن إدريس بكت ابنته فقال: لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة.

■ **صعصعة بن سلام**: ويقال ابن عبد الله أبو عبد الله الدمشقي، ثم تحول إلى الأندلس فاستوطنها في زمن عبد الرحمن بن معاوية وابنه هشام، وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس، وولي الصلاة بقرطبة، وفي أيامه غرست الأشجار بالمسجد الجامع هناك كما يراه الأوزاعي والشاميون ويكرهه مالك وأصحابه.

وقد روى عن مالك والأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز.

وروى عنه جماعة منهم عبد الملك بن حبيب الفقيه، وذكره في كتاب الفقهاء، وذكره ابن يونس في تاريخه - تاريخ مصر - والحميدي في تاريخ الأندلس، وحرر وفاته في هذه السنة أعني سنة ثنتين وسبعين ومائة.

وحكى عن شيخه ابن حزم أن صعصعة هذا أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس.

وقال ابن يونس: هو أول من أدخل علم الحديث إليها. وذكر أنه توفي قريباً من سنة ثمانين ومائة، والذي حرره الحميدي في هذه السنة أثبت.

■ **علي بن ظبيان: أبو الحسن العبسي الكوفي** قاضي الشرقية من بغداد، زمن الرشيد. كان ثقة عالماً من أصحاب أبي حنيفة، ثم ولاه الرشيد قاضي القضاة، وكان الرشيد يخرج معه إذا خرج من عنده، مات بقرميسين في هذه السنة.

■ **العباس بن الأحنف: بن الأسود بن طلحة** الشاعر المشهور، كان من عرب خراسان ونشأ ببغداد، وكان لطيفاً ظريفاً مقبولا حسن الشعر.

قال أبو العباس: قال عبدالله بن المعتز: لو قيل لي: من أحسن الناس شعراً تعرفه؟ لقلت: العباس:

قد سَحَبَ الناسُ أذيال الظنون بنا ... وفرَّقَ الناسُ فينا قَوْلَهم فرَقا
فكاذبٌ قد رمى بالحبِّ غيركم ... وصادقٌ ليس يدري أنه صَدَقا

وقد طلبه الرشيد ذات ليلة في أثناء الليل فانزعج لذلك، وخاف نساؤه، فلما وقف بين يدي الرشيد قال له: ويحك إنه قد عن لي بيت في جارية لي فأحببت أن تشفعه بمثله، فقال: يا أمير المؤمنين ما خفت قط أعظم من هذه الليلة، فقال: ولم؟ فذكر له دخول الحرس عليه في الليل، ثم جلس حتى سكن روعه ثم قال: ما قلت يا أمير المؤمنين؟ فقال:

جنان قد رأيناها ... فلم نرَ مثلها بشرا

فقال العباس:

يزيدكَ وجهها حسناً ... إذا ما زدتهُ نظرا

فقال الرشيد: زد. فقال:

إذا ما الليلُ مال عليـ ... ـكَ بالإظلام واعتكرا
ودجٌ فلم ترى قمراً ... فأبرزها ترى قمرا

فقال: إنا قد رأيناها، وقد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم.

ومن شعره الذي أقر له فيه بشار بن برد وأثبته في سلك الشعراء بسببه قوله:

أبكي الذينَ أذاقوني مودتهمْ ... حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمتُ منتصباً ... بثقل ما حملوني منهمُ قعدوا

وله أيضاً:

وحدثني يا سعدُ عنها فزدتني ... جنوناً فزدني مِن حديثكَ يا سعدُ
هواها هوى لم يعرفِ القلبُ غيرَه ... فليسَ لهُ قبلٌ وليسَ لهُ بعدُ

قال الأصمعي: دخلت على العباس بن الأحنف بالبصرة وهو طريح على فراشه يجود بنفسه وهو يقول:

يا بعيدَ الدارِ عَن وطنهِ ... مفرداً يبكي على شجنهْ
كلما شدَّ النُجاءُ بهِ ... زادتِ الأسقامُ في بدنهْ

ثم أغمي عليه فانتبه بصوت طائر على شجرة فقال:

ولقدْ زاد الفؤادُ شجىً ... هاتفٌ يبكي على فتنهْ
شاقهُ ما شاقني فبكى ... كلنا يبكي على سكنهْ

قال: ثم أغمي عليه أخرى فحركته فإذا هو قد مات.

قال الصولي: كانت وفاته في هذه السنة.

وحكى القاضي ابن خلكان أنه توفي بعدها.

وقيل سنة ثمان وثمانين ومائة والله أعلم.

وزعم بعضهم أنه بقي بعد الرشيد.

■ عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور: أخو زبيدة كان نائباً على البصرة في أيام الرشيد فمات في أثناء هذه السنة.

■ الفضل بن يحيى: بن خالد بن برمك أخو جعفر وإخوته، كان هو والرشيد يترضعان. أرضعت الخيزران فضلا هذا، وأرضعت أم الفضل - وهي زبيدة بنت سنين، بربرية - هارون الرشيد. وكانت زبيدة هذه من مولدات المدينة، وقد قال في ذلك بعض الشعراء:

كفى لكَ فضلا أن أفضلَ حرةٍ غذتكَ بثدي والخليفةَ واحدِ
لقد زنتَ يحيى في المشاهدِ كلها كما زان يحيى خالداً في المشاهدِ

قالوا: وكان الفضل بن يحيى أكرم من أخيه جعفر، ولكن كان فيه كبر شديد، وكان عبوساً، وكان جعفر أحسن بشراً منه وأطلق وجهاً، وأقل عطاء. وكان الناس إليه أميل، ولكن خصلة الكرم تغطي جميع القبائح، فهي تستر تلك الخصلة التي كانت في الفضل.

وقد وهب الفضل لطباخه مائه ألف درهم فعابه أبوه في ذلك، فقال: يا أبت إن هذا كان يصحبني في العسر واليسر والعيش الخشن، واستمر معي في هذا الحال فأحسن صحبتي، وقد قال الشاعر:

إنّ الكرامَ إذا ما أسهلوا ذكروا مَن كانَ يؤنسهم في المنزل الخشنِ

ووهب يوماً لبعض الأدباء عشرة آلاف دينار فبكى الرجل فقال له: مم تبكي، أستقللتها؟ قال: لا والله، ولكني أبكي أسفاً أن الأرض تواري مثلك.

وقال علي بن الجهم عن أبيه: أصبحت يوماً لا أملك شيئاً ولا علف الدابة. فقصدت الفضل بن يحيى، فإذا هو قد أقبل من دار الخلافة في موكب من الناس، فلما رآني رحب بي وقال: هلم. فسرت معه، فلما كان ببعض الطريق سمع غلاماً يدعو جارية من دار، وإذا هي باسم جارية له يحبها، فانزعج لذلك وشكا الي ما لقي من ذلك، فقلت: أصابك ما أصاب أخي بني عامر حيث يقول:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منىً فهيج أحزان الفؤاد ولا يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري

فقال: اكتب لي هذين البيتين. قال: فذهبت إلى بقال فرهنت عنده خاتمي على ثمن ورقة وكتبتهما له، فأخذهما وقال: انطلق راشداً. فرجعت إلى منزلي فقال لي غلامي: هات خاتمك حتى نرهنه على طعام لنا وعلف للدابة، فقلت: إني رهنته. فما أمسينا حتى أرسل إلي الفضل بثلاثين ألفاً، وعشرة آلاف درهم، سلفاً لشهرين من رزق أجراه عليّ.

ودخل عليه بعض الأكابر فأكرمه الفضل وأجلسه معه على السرير، فشكا إليه الرجل ديناً عليه وسأله أن يكلم في ذلك أمير المؤمنين. فقال: نعم، وكم دينك؟ قال ثلاثمائة ألف درهم. فخرج من عنده وهو مهموم لضعف رده عليه، ثم مال إلى بعض إخوانه فاستراح عنده ثم رجع إلى منزله فإذا المال قد سبقه إليه. وما أحسن ما قال فيه بعض الشعراء:

لك الفضل يافضل بن يحيى بن خالد وما كل من يدعى بفضل له الفضلُ
رأى اللّهُ فضلا منك في الناس واسعاً فسماك فضلا فالتقى الاسم والفعلُ

وقد كان الفضل أكبر رتبة من جعفر، ولكنّ جعفراً أحظى عند الرشيد منه وأخص. وقد ولي الفضل أعمالا كباراً، منها نيابة خراسان وغيرها.

ولما قتل الرشيد جعفراً وحبس البرامكة جلد الفضل بن يحيى بن خالد هذا مائة سوط وخلده في السجن حتى مات في هذه السنة، قبل الرشيد بشهور خمسة بالرقة وصلى عليه بالقصر الذي مات فيه أصحابه، ثم أخرجت جنازته فصلى عليها الناس، ودفن هناك وله خمس وأربعون سنة، وكان سبب موته ثقل أصابه في لسانه اشتد به يوم الخميس ويوم الجمعة، وتوفي قبل أذان الغداة من يوم السبت.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٤١/٨]: وذلك في المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائة.

وقال ابن الجوزي في المنتظم [٢٠٩/٩] كان ذلك: في سنة ثنتين وتسعين فالله أعلم.

وقد أطال القاضي ابن خلكان ترجمته وذكر طرفاً صالحاً من محاسنه ومكارمه، من ذلك أنه ورد بلخ حين كان نائبا على خراسان، وكان بها بيت النار التي كانت تعبدها المجوس، وقد كان جده برمك من خدامها، فهدم بعضه ولم يتمكن من هدمه كله، لقوة إحكامه، وبنى مكانه مسجداً لله تعالى. وذكر أنه كان يتمثل في السجن بهذه الأبيات ويبكي:

إلى اللّه فيما نالنا نرفع الشكوى ففي يده كشف المضرة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلانحن في الأموات فيها ولا الأحيا
إذا جاءنا السجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

■ محمد بن أميه الشاعر الكاتب، وهو من بيت كلهم شعراء، وقد اختلط أشعار بعضهم في بعض. وله شعر رائق ومديح فائق.

■ منصور بن الزبرقان: بن سلمة أبو الفضل النميري الشاعر، امتدح الرشيد، وأصله من الجزيرة وأقام ببغداد ويقال لجده مطعم الكبش الرخم، وذلك أنه أضاف قوماً فجعلت الرخم تحملق حولهم، فأمر بكبش يذبح للرخم حتى لا يتأذى بها أضيافه فقيل، ففعل له ذلك لذلك فقال الشاعر فيه:

أبوك زعيم بني قاسط وخالك ذو الكبش يَفْري الرخم

وله أشعار حسنة، وكان يروي عن كلثوم بن عمرو، وكان شيخه الذي أخذ عنه الغناء.

■ يوسف ابن القاضي أبي يوسف: يعقوب بن ابراهيم سمع الحديث من السريّ بن يحيى ويونس بن أبي إسحاق، ونظر في الرأي وتفقه، وولي قضاء الجانب الشرقي ببغداد في حياة أبيه، وصلى بالناس الجمعة بجامع المنصور عن أمر الرشيد. توفي في رجب من هذه السنة وهو قاضٍ ببغداد.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٤١/٨]: ففي المحرم منها توفي

■ الفضل بن يحيى، وقد أرّخ ابن الجوزي وفاته في سنة ثنتين وتسعين كما تقدم.

قال: وفيها توفي

■ سعيد الجوهري.

قال: وفيها وصل الرشيد جرجان وانتهت إليه خزائن علي بن عيسى تحمل على ألف وخمسمائة بعير، وذلك في صفر منها، ثم تحول منها إلى

طوس وهو عليل، فلم يزل بها حتى كانت وفاته فيها.

وفيها تواقع هرثمة نائب العراق هو ورافع بن الليث فكسره هرثمة وافتتح بخارى وأسر أخاه بشير بن الليث، فبعثه إلى الرشيد وهو بطوس مُثقل عن السير، فلما أُوقف بين يديه شرع يترقق له فلم يقبل منه، بل قال: والله لو لم يبق من عمري إلا أن أحرك شفتي بقتلك لقتلتك، ثم دعا بقصاب فجزأه بين يديه أربعة عشر عضواً، ثم رفع الرشيد يديه إلى السماء يدعو الله أن يمكنه من رافع كما مكنه من أخيه بشير.

ذكر وفاة هارون الرشيد

كان قد رأى وهو بالرَّقة رؤيا أفزعته وغمه ذلك، فدخل عليه جبريل بن بختيشوع فقال: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت كأنَّ كفاً فيها تربة حمراء خرجت من تحت سريري هذا وقائلا يقول: هذه تربة أمير المؤمنين. فهون عليه جبريل أمرها وقال: هذه من أضغاث الأحلام ومن حديث النفس، فتناسها يا أمير المؤمنين. فلما سار يريد خراسان ومر بطوس واعتقلته العلة بها، ذكر رؤياه التي كان رأى فهاله ذلك وانزعج جدّاً، فدخل الناس عليه فقال لجبريل يحك! أما تذكر ما قصصته عليك من الرؤيا؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين فكان ماذا؟ فدعا مسروراً الخادم وقال: ائتني بشيء من تربة هذه الأرض، فجاءه بتربة حمراء في يده، فلما رآها قال: والله هذه الكف التي رأيت، والتربة التي كانت فيها. قال جبريل: فوالله ما أتت عليه ثلاث حتى توفي رحمه الله.

وقد أمر بحفر قبره قبل موته في الدار التي كان فيها، وهي دار حميد بن أبي غانم الطائي، فجعل ينظر إلى قبره وهو يقول: يا بن آدم تصير إلى هذا. ثم أمر بقرّاء فقرؤوا في القبر القرآن حتى ختموه وهو في محفة على شفير القبر ولما حضرته الوفاة احتبى بملاءة وجلس يقاسي سكرات الموت، فقال له بعض من حضر: يا أمير المؤمنين لو اضطجعت كان أهون عليك. فضحك ضَحِك صحيح ثم قال: أما سمعت قول الشاعر:

وإني من قوم كرام يزيدهم شماساً وصبراً شدة الحدثان

وكانت وفاته ليلة السبت، وقيل ليلة الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، عن خمس، وقيل سبع وأربعين سنة. وكان ملكه ثلاثاً وعشرين سنة.

وهذه ترجمته

هو

■ هارون الرشيد أمير المؤمنين ابن المهدي محمد المهدي ابن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، القرشي الهاشمي، أبو محمد، ويقال أبو جعفر. وأمه الخيزران أم ولد. وكان مولده في شوال سنة ست وقيل سبع، وقيل ثمان وأربعين ومائة، وقيل إنه ولد سنة خمسين ومائة، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة، بعهد من أبيه المهدي كما تقدم.

روى الحديث عن أبيه وجده، وحدث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». أورده وهو على المنبر وهو يخطب الناس.

وقد حدث عنه ابنه وسليمان الهاشمي والد إسحاق، ونباتة بن عمرو.

وكان الرشيد أبيض طويلا سميناً جميلا.

وقد غزا الصائفة في حياة أبيه مراراً، وعقد الهدنة بين المسلمين والروم بعد محاصرته القسطنطينية، وقد لقي المسلمون من ذلك جهداً جهيداً وخوفاً شديداً، وكان الصلح مع امرأة أليون وهي الملقبة بأغسطة على حمل كثير تبذله للمسلمين في كل عام، ففرح المسلمون بذلك في المشارق والمغارب كما تقدم، وكان هذا هو الذي حدا أباه على البيعة له بعد أخيه في سنة ست وستين ومائة، ثم لما أفضت الخلافة إليه بعد أخيه في سنة سبعين ومائة كان من أحسن الناس سيرة وأكثرهم غزواً وحجاً بنفسه، ولهذا قال فيه أبو السعلي:

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمر وفي أرض البَنِيَّة فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق من المستخلفين على الأمور

وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم، وإذا حج أحج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة التامة، وكان يحب التشبه بجده أبي جعفر المنصور إلا في العطاء، فإنه كان سريع العطاء جزيله، وكان يحب الفقهاء والشعراء والأدباء ويعطيهم كثيراً، ولا يضيع لديه بر ولا معروف، وكان نقش خاتمه لا إله إلا الله. وكان يصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعاً، إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة.

وكان ابن أبي مريم المدني هو الذي يضحكه، وكان عنده فضيلة بأخبار الحجاز وغيرها، وكان الرشيد قد أنزله في قصره وخلطه بأهله. نبهه الرشيد يوماً إلى صلاة الصبح فقام فتوضأ ثم أدرك الرشيد وهو يقرأ في الصلاة: ﴿وما لي لا أعبد الذي فطرني﴾ [يس: ٢٢] فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله. فضحك الرشيد وقطع الصلاة، ثم أقبل عليه وقال: ويحك اجتنب الصلاة والقرآن ولَكَ ما عدا ذلك.

ودخل يوماً العباس بن محمد على الرشيد ومعه برنية من فضة فيها غالية من أحسن الطيب، فجعل يمدحها ويزيد في شكرها، وسأل من الرشيد أن يقبلها منه فقبلها فاستوهبها منه ابن أبي مريم فوهبها له، فقال له العباس: ويحك! جئت بشيء منعته نفسي وأهلي وآثرت به أمير المؤمنين سيدي فأخذته. فحلف ابن أبي مريم ليطين به استه، ثم أخذ منها شيئاً فطلى به استه ودهن جوارحه كلها منها، والرشيد لا يتمالك نفسه من الضحك. ثم قال لخادم قائم يقال له خاقان: اطلب لي غلامي. فقال الرشيد: ادع له غلامه. فقال له: خذ هذه الغالية واذهب بها إلى ستك فمرها فلتطيب منها استها حتى أرجع إليها فأنيكها. فذهب الضحك بالرشيد كل مذهب، ثم أقبل ابن أبي مريم على العباس بن محمد فقال له: جئت بهذه الغالية تمدحها عند أمير المؤمنين الذي ما تمطر السماء شيئاً ولا تنبت الأرض شيئاً إلا وهو تحت تصرفه وفي يده؟ وأعجب من هذا أن قيل لملك الموت: ما أمرك به هذا فأنفذه. وأنت تمدح هذه الغالية عنده كأنه يقال أو خباز أو طباخ أو تمار، فكاد الرشيد يهلك من شدة الضحك. ثم أمر لابن أبي مريم بمائة ألف درهم.

وقد شرب الرشيد يوماً دواء فسأله ابن أبي مريم أن يلي الحجابة في هذا اليوم، ومهما حصل له فهو بينه وبين أمير المؤمنين، فلاه الحجابة، فجاءت الرسل بالهدايا من كل جانب. من عند زبيدة والبرامكة وكبار الأمراء، فكان حاصله في هذا اليوم ستين ألف دينار، فسأله الرشيد في اليوم

الثاني عما تحصل فأخبره قال: فأين نصيبي؟ قال: معزول. قال: قد صالحتك عليه بعشرة آلاف تفاحة.

وقد استدعى إليه أبا معاوية الضرير محمد بن خازم ليسمع منه الحديث قال أبو معاوية: ما ذكرت عنده في حديث رسول الله ﷺ إلا قال: صلى الله وسلم على سيدي، وإذا سمع فيه موعظة بكى حتى يبلّ الثرى.

وأكلت عنده يوماً ثم قمت لأغسل يدي فصب الماء علي وأنا لا أراه. ثم قال: يا أبا معاوية أتدري من يصبّ عليك الماء؟ قلت: لا. قال: أنا. فدعا له أبو معاوية: الضرير، فقال: إنما أردت تعظيم العلم. وقد حدثه أبو معاوية يوماً عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بحديث: «احتجّ آدم وموسى» فقال عم الرشيد: أين التقيا يا أبا معاوية؟ فغضب الرشيد من ذلك غضباً شديداً، وقال: أتعترض على الحديث؟ عليّ بالنطع والسيف، فأحضر ذلك فقام الناس إليه يشفعون فيه فقال الرشيد: هذه زندقة. ثم أمر بسجنه وقال: أقسم أن لا يخرج حتى يخبرني من ألقى إليه هذا، فأقسم عمه بالأيمان المغلظة ما قال له أحد، وإنما كانت هذه الكلمة بادرة مني وأنا أستغفر الله وأتوب إليه. فأطلقه.

وقال بعضهم: دخلت على هارون الرشيد وبين يديه رجل مضروب العنق والسياف يمسح سيفه في قفا الرجل المقتول، فقال الرشيد: قتلته لأنه قال: القرآن مخلوق، فقتلته قربة إلى الله عز وجل.

وقال له بعض أهل العلم: يا أمير المؤمنين انظر هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم يعز سلطانك، فقال الرشيد: أو لست كذلك؟ أنا والله كذلك أحبهما وأحب من يحبهما وأعاقب من يبغضهما.

وقال له ابن السماك أو غيره: يا أمير المؤمنين إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك فاجتهد أن لا يكون فيهم أحد أطوع إلى الله منك. فقال: لئن كنت أقصرت في الكلام لقد أبلغت في الموعظة.

وقال له الفضيل بن عياض - أو غيره - إن الله لم يجعل أحداً من هؤلاء فوقك في الدنيا. فاجهد نفسك أن لا يكون أحد منهم فوقك في الآخرة، فاكدح لنفسك وأعملها في طاعة ربك.

ودخل عليه ابن السماك يوماً فاستسقى الرشيد فأتى بقلة فيها ماء مبرد فقال لابن السماك: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين! بكم كنت مشترياً هذه الشربة لو منعتها؟ فقال: بنصف ملكي. فقال: اشرب هنيئاً، فلما شرب قال: أرأيت لو منعت خروجها من بدنك بكم كنت تشتري ذلك؟ قال: بملكي كله. فقال: إن ملكاً قيمته شربة ماء، لخليق أن لا يتنافس فيه. فبكى هارون الرشيد.

وقال ابن قتيبة: حدثنا الرياشي سمعت الأصمعي يقول: دخلت على الرشيد وهو يقلم أظفاره يوم الجمعة فقلت له في ذلك فقال: أخذ الأظفار يوم الخميس من السُنة، وبلغني أن أخذها يوم الجمعة ينفي الفقر. فقلت: يا أمير المؤمنين أو تخشى الفقر؟ فقال: يا أصمعي وهل أحد أخشى للفقر مني؟.

وروى ابن عساكر عن إبراهيم بن المهدي قال: كنت يوماً عند الرشيد فدعا طباخه فقال: أعندك في الطعمام لحم جزور؟ قال: نعم، ألوان منه. فقال: أحضره مع الطعام فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضعها في فيه فضحك جعفر البرمكي، فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال: مم تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلاماً دارَ بيني وبين جاريتي البارحة. فقال: بحقي عليك لما أخبرتني به. قال: حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال: والله لتخبرني. فقال: يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوّم عليك؟ قال: بأربعة دراهم. قال: لا والله، يا أمير المؤمنين بل بأربعمئة ألف درهم. قال: وكيف ذلك؟ قال: إنك طلبت من طباخك هذا لحم الجزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده، فقلت: لا يخلون المطبخ من لحم جزور، فنحن ننحر كل يوم جزوراً لأجل مطبخ أمير المؤمنين، لأنا لا نشتري لحم الجزور من السوق. فصُرف في لحم الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم، ولم يطلب أمير المؤمنين لحم الجزور إلا هذا اليوم. قال جعفر: فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة. فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف.

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً وأقبل على نفسه يوبخها ويقول: هلكت والله يا هارون وأمر برفع السماط من بين يديه، ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر، فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وقد أمر بألفي ألف تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة، وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي، وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة. ثم خرج لصلاة العصر ثم رجع يبكي حتى صلى المغرب، ثم رجع، فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال: ما شأنك يا أمير المؤمنين باكياً في هذا اليوم؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته، وإنما ناله منها لقمة. فقال أبو يوسف لجعفر: هل كان ما تذبحونه من الجزور يفسد، أو يأكله الناس؟ قال: بل يأكله الناس. فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية، وبما يسره الله عليك من الصدقة في هذا اليوم على الفقراء، وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم، وقد قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ [الرحمن: ٤٦] فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف. ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غذاؤه في هذا اليوم عشاءه.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: اجتمع للرشيد من الجد والهزل ما لم يجتمع لغيره من بعده، كان أبو يوسف قاضيه، والبرامكة وزراءه، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدهم تعاظماً، ونديمه عمُّ أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية. وشاعره مروان بن أبي حفصة، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته، وضاربه زلزل وزامره برصوما. وزوجته أم جعفر - يعني زبيدة - وكانت أرغب الناس في كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف، أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك، إلى أشياء من المعروف أجراها الله على يدها.

وروى الخطيب البغدادي [تاريخ بغداد: ٨/١٤] أن الرشيد كان يقول: إنا من قوم عظمت رزيتهم، وحسنت بقيتهم، ورثنا رسول الله ﷺ وبقيت فينا خلافة الله عز وجل.

وبينما الرشيد يطوف يوماً بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة، فقال لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن يقول له قولا ليناً.

وعن شعيب بن حرب قال: رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي: قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فخوفتني وقالت: إنه الآن يضرب عنقك. فقلت: لا بد من ذلك، فناديته فقلت: يا هارون! قد أتعبت الأمة والبهائم. فقال: خذوه. فأدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي، فقال: ممن الرجل؟ فقلت: رجل من المسلمين. فقال: ثكلتك أمك ممن أنت؟ فقلت: من الأبناء. فقال:

ما حملك على أن دعوتني باسمي؟ قال: فخطر ببالي شيء لم يخطر ببالي قبل ذلك، فقلت: أنا أدعو الله باسمه يا الله، يا رحمن، أفلا أدعوك باسمك؟ وهذا الله سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه محمداً، وكنى أبغض الخلق إليه فقال: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾ [المسد: ١] فقال الرشيد: أخرجوه أخرجوه.

وقال له ابن السماك يوماً: يا أمير المؤمنين: إنك تموت وحدك، وتُقْبَر وحدك فاحذر المقام بين يدي الجبار، والوقوف بين الجنة والنار حين يؤخذ بالكظم وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُنال، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي.

وقال له الفضيل بن عياض - في جملة موعظته تلك الليلة بمكة -: يا صبيح الوجه إنك المسؤول عن هؤلاء كلهم، وقد قال تعالى: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ [البقرة: ١٦٦] قال حدثنا ليث عن مجاهد قال: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق.

وقال الأصمعي: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية، فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فأنشأ يقول:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور
يُسعى عليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرواح وفي البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

قال: فبكى الرشيد بكاء شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين لتُسرَّه فأحزنته؟ فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى.

ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فأنشأ يقول:

لا تأمن الموت في طرف ولا ... ولو تمتعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدّرع منها ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

قال: فخر الرشيد مغشياً عليه.

وقد حبس الرشيد مرة أبا العتاهية وأرصد عليه من يأتيه بما يقول، فكتب مرة على جدار الحبس:

أما والله إن الظلم لؤمٌ ... وما زال المسيء هو الظلومُ
إلى ديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصوم

قال: فاستدعاه واستعجله في حل ووهبه ألف دينار وأطلقه.

وقال الحسين بن الفهم: حدثنا محمد بن عباد عن سفيان بن عيينة قال: دخلت على الرشيد فقال: ما خبرك؟ فقلت:

بعين الله ما تخفى البيوت ... فقد طال التحمل والسكوت

فقال: يا فلان مائة ألف لابن عيينة تغنيه وتغني عقبه، ولا تضر الرشيد شيئاً.

وقال الأصمعي: كنت مع الرشيد في الحج فمررنا بواد فإذا على شفيره امرأة صبية حسناء بين يديها قصعة وهي تسأل فيها وتقول:

طَحْطَحَتْنا طحاطح الأعوام ... ورمتنا حوادث الأيام
فأتيناكم نعد أكفا ... لفضالاتِ زادكم والطعام
فاطلبوا الأجر والمثوبة فينا ... أيها الزائرون بيت الحرام
من رآني فقد رآني ورحلي ... فارحموا غربتي وذل مقامي

قال الأصمعي: فذهبت إلى الرشيد فأخبرته بأمرها فجاء بنفسه حتى وقف عليها فسمعها فرحمها وبكى وأمر مسروراً الخادم أن يملأ قصعتها ذهباً، فملأها حتى جعلت تفيض يميناً وشمالا.

وسمع مرة الرشيد أعرابياً يحدو إبله في طريق الحج وهو يقول:

يا أيها المجمع همّاً لا تُهِمّ
أنك إن تُقضَى لك الحُسنى تُحَمّ
كيف توفّيك وقد جفّ القلمْ
وحطّتِ الصحّةُ منك والسّقَمْ

فقال الرشيد لبعض خدمه: ما معك؟ قال: أربعمائة دينار، فقال: ادفعها إلى هذا الأعرابي. فلما قبضها ضرب رفيقه بيده على كتفه وقال متمثلا:

وكنت جليس قعقاع بن عمرو ... ولا يشقى بقعقاعٍ جليس

فأمر الرشيد بعض الخدم أن يعطي المتمثل ما معه من الذهب فإذا معه مائتا دينار.

قال أبو عبيد إن أصل هذا المثل أن معاوية بن أبي سفيان أهديت له هدية جامات من ذهب ففرّقها على جلسائه وإلى جانبه قعقاع بن عمرو، وإلى جانب القعقاع أعرابي لم يفضل له منها شيء. فأطرق الأعرابي حياء فدفع إليه القعقاع الجام الذي حصل له، فنهض الأعرابي وهو يقول:

وكنت جليس قعقاع بن عمرو ... ولا يشقى بقعقاع جليس

وخرج الرشيد يوماً من عند زبيدة وهو يضحك فقيل له: مم تضحك يا أمير المؤمنين؟ فقال: دخلت اليوم إلى هذه المرأة - يعني زوجته زبيدة - فأكلت عندها ونمت، فما استيقظت إلا بصوت ذهب يُصَبُّ، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذه ثلاثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت زبيدة: هبها لي يا ابن عم، فقلت: هي لك، ثم ما خرجت حتى عربدت عليّ وقالت: أي خير رأيت منك؟.

وقال الرشيد مرة للمفضل الضبي: ما أحسن ما قيل في الذئب، ولك هذا الخاتم، وشراؤه ألف وستمائة دينار؟ فأنشد قول الشاعر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى الرزايا فهو يقظان هاجع

فقال: ما قلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم. ثم ألقاه إليه فبعث زبيدة فاشترته منه بألف وستمائة دينار، وبعث به إلى الرشيد وقالت: إني رأيتك معجباً به. فرده إلى المفضل والدنانير، وقال: ما كنا لنهب شيئاً ونرجع فيه.

وقال الرشيد يوماً للعباس بن الأحنف: أي بيت قالت العرب أرق؟ فقال: قول جميل في بثينة:

ألا ليتني أعمى أصم تقودُني ... بثينة لا يخفى علي كلامها

فقال له الرشيد: فقولك أرقُّ من هذا حيث قلت:

طاف الهوى في عباد الله كلهم ... حتى إذا مر بي من بينهم وقفا

فقال العباس: فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذه كله:

أمـا يكفيـك أنـك تملكيـني ... وأن النـاس كلهـم عبيـدي
وأنك لـو قطعـت يـدي ورجلـي ... لقلت من الهوى أحسنت زيدي

قال: فضحك الرشيد وأعجبه ذلك.

ومن شعر الرشيد في ثلاث حظيات كنّ عنده من الخواص:

ملـك الثـلاث الآنسـاتُ عنـاني ... وحللـن مـن قلـبي بكـل مكـان
مـا لي تطـاوعني البريـة كلهـا ... وأطيعهـن وهـن في عصيـاني
مـا ذاك إلا أن سـلطان الهـوى ... وبـه قويـن أعـز مـن سـلطاني

ومن شعره فيما أورده صاحب العقد في كتابه:

تُبـدي صـدوداً وتخفـي تحتـه رِقّـةً ... فـالنفس راضيـة والطـرف غضبـانُ
يـا مَـن بذلـتُ لـه خـدّي فزلّلـهُ ... وليس فوقـي سـوى الرحمـن سـلطانُ

وذكر أبو هِفّان أنه كان في دار الرشيد من الجواري والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلف جارية، وأنهن حضرن كلهن يوماً بين يديه فغنته المطربات منهن فطرب جداً، وأمر بمال فنثر عليهن. فكان مبلغة ستة الآف ألف درهم في ذلك اليوم. رواه ابن عساكر.

وروري أنه اشترى جارية من المدينة فأعجب بها جداً فأمر بإحضار مواليها ومن يلوذ بهم ليقضي حوائجهم، فقدموا في ثمانين نفساً فأمر الحاجب - وهو الفضل بن الربيع - أن يتلقاهم ويكتب حوائجهم؛ فكان فيهم رجل أعرابي قد أقام بالمدينة وهو يهوى تلك الجارية، فقال له الحاجب: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن يجلسني أمير المؤمنين مع فلانة فأشرب ثلاثة أرطال من شراب، وتغنيني ثلاثة أصوات. فقال: أمجنون أنت؟ فقال: لا ولكن اعرض ذلك على أمير المؤمنين. فلما رجع إلى الخليفة، ذكر له ما قال ذلك الرجل فأمر بإحضاره وأن تجلس معه الجارية بحيث ينظر إليهما ولا يريانه فجلست على كرسي والخدام بين يديها، وجلس الرجل على كرسي فشرب رطلا وقال لها غنيني:

خليلـي عوجـا بـارك اللّـه فيكمـا ... وإن لم تكـن هنـد بأرضكمـا قصـدا
وقـولا لهـا ليـس الضـلال أجازنـا ... ولكنـنا جزنـا لنلقـاكم عمـدا
غـدا يكـثر البـاكون منـا ومنكـم ... وتـزداد داري مـن ديـاركم بعـدا

قال: فغنته ثم استعجله الخدم فشرب رطلا آخر، وقال: غنيني جعلت فداك:

تكلـم منـا في الوجـوه عيوننـا ... فنحـن سـكوت والهـوى يتكلـم
ونغضـب أحيانـا ونرضـى بطرفنـا ... وذلـك فيمـا بيننـا ليـس يعلـم

قال: فغنته: ثم شرب رطلا ثالثاً وقال: غنيني جعلني اللّه فداك:

أحسـن مـا كنـا تفرقنـا ... وخاننـا الدهـر ومـا خنـا
فليـت ذا الدهـر لنـا مـرة ... عـاد لنـا يومـاً كمـا كنـا

قال: ثم قام الشاب إلى درجة هناك فعلاها، ثم ألقى نفسه من أعلاها على أم رأسه فمات. فقال الرشيد: عجل الفتى، واللّه لو لم يعجل لوهبتها له.

وفضائل الرشيد ومكارمه ومآثره وأشعاره كثيرة جداً. وقد أورد الأئمة من ذلك شيئاً كثيراً فذكرنا منه أنموذجاً صالحاً وللّه الحمد.

وقد كان الفضيل بن عياض يقول: ليس موتاً من هارون أحد أعز علينا من موت الرشيد، لما أتخوف بعده من الحوادث، وإني لأدعو اللّه أن يزيد في عمره من عمري قالوا: فلما مات الرشيد وظهرت تلك الفتن والحوادث والاختلافات، والقول بخلق القرآن، فعرفنا ما كان يحمل الفضيل بن عياض على ذلك.

وقد تقدم ما رآه في منامه من ذلك وفيه تربة حمراء وقائل يقول: هذه تربة أمير المؤمنين وكانت بطوس.

وقد روى ابن عساكر أن الرشيد رأى في منامه قائلا يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله. الشعر إلى آخره.

وقد تقدم أن ذلك إنما رآه أخوه موسى الهادي. وأبوه محمد المهدي فاللّه أعلم.

وقدمنا أنه أمر بحفر قبره في حياته، وأمر بقراءة ختمة فيه، وأنه حمل حتى نظر إليه فجعل يقول: إلى هنا تصير يا ابن آدم. ويبكي، وأمر أن يوسع عند صدره وأن يمد من عند رجليه، ثم جعل يقول: ﴿ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه﴾ [الحاقة: ٢٨ - ٢٩] ويبكي.

ويقال: إن آخر ما تكلم به حين احتضر: اللّهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت ارحم من يموت.

وكان مرضه بالدم، وقيل بالسل، وكان جبريل بن بختيشوع يكتمه ما به من العلة، فأمر الرشيد رجلا أن يأخذ ماءه في قارورة ويذهب به إلى جبريل فيريه إياه، على أنه لمريض عنده. فلما رآه جبريل قال لرجل عنده: هذا مثل ماء ذلك الرجل. ففهم صاحب القارورة من عنى به، فقال له: باللّه عليك أخبرني عن حال صاحب هذا الماء. فإن لي عليه مالا، فإن كان به رجاء وإلا أخذته منه. فقال: اذهب فتخلص منه فإنه لا يعيش إلا أياماً. فلما جاء وأخبر الرشيد بعث إلى جبريل فتغيب حتى مات الرشيد. وقال قال الرشيد وهو في هذه الحال:

إنـي بطـوس مقيـم ... مـالي بطـوس حميـم
أرجـو إلهـي لمـا بـي ... فإنـه بـي رحيـم
لقـد أتـاني بطـوس ... قضـاؤه المحتـوم
وليـس إلا رضـائي ... والصـبر والتسـليم

مات بطوس يوم السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة، وقيل إنه توفي في جمادى الأولى، وقيل في ربيع الأول، وله من العمر خمس وقيل ست، وقيل سبع، وقيل ثمان وأربعون سنة. ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية عشر يوماً. وقيل ثلاثة أشهر. وصلى عليه ابنه صالح ودفن بقرية من قرى طوس يقال لها سناباذ رحمه اللّه وسامحه وأدخله الجنة.

وقال بعضهم: قرأت على خيام الرشيد بسناباذ والناس منصرفون من طوس من بعد موته.

منـازل العسـكر معمـورة ... والمنـزل الأعظـم مهجـور
خليفـة اللّـه بـدار البلـى ... تسـفي علـى أجداثـه المـور
أقبلـت العـير تبـاهي بـه ... وانصرفـت تنبـه العـير

وقد رثاه أبو الشيص فقال:

غربـت في الشـرق شمـس ... فلهـا العينـان تدمـع
مـا رأينـا قـط شمسـا ... غربـت مـن حيـث تطلـع

وقد رثاه الشعراء بقصائد.

قال أبو الفرج بن الجوزي: في المنتظم [٢٣٢/٩]: وقد ترك الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحد من الخلفاء، خلف من الجواهر والأثاث والأمتعة سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينار، وخمسة وثلاثون ألف ألف دينار.

قال ابن جرير [تاريخه: ٣٤٦/٨]: وكان في بيت المال لمصالح الناس سبعمائة ألف ألف ونيف.

ذكر زوجاته وبنيه وبناته

تزوج أم جعفر زبيدة بنت عمه جعفر بن أبي جعفر المنصور، في سنة خمس وستين ومائة في حياة أبيه المهدي، فولدت له محمداً الأمين. وماتت زبيدة في سنة ست عشرة ومائتين كما سيأتي. وتزوج أمة العزيز أم ولد كانت لأخيه موسى الهادي فولدت له علي بن الرشيد. وتزوج أم محمد بنت صالح المسكين، والعباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر فزفتا إليه في ليلة واحدة سنة سبع وثمانين ومائة بالرقة، وتزوج عزيزة بنت الغطريف، وهي بنت خاله أخي أمه الخيزران، وتزوج ابنة عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان العثمانية، ويقال لها الجرشية، لأنها ولدت بجُرش باليمن، وتوفي الرشيد عن أربع حرائر: زبيدة، وعباسة، وابنة صالح، والعثمانية هذه.

وأما الحظايا من الجواري فكثير جداً حتى.

قال بعضهم: إنه كان عنده في داره أربعة آلاف جارية سراري حسان.

وأما أولاده الذكور فمحمد الأمين بن زبيدة، وعبد الله المأمون من جارية اسمها مراجل، ومحمد أبو إسحاق المعتصم من أم ولد يقال لها ماردة، والقاسم المؤتمن من جارية يقال لها قصف. وعليّ المؤتمن أمه أمة العزيز. وصالح من جارية اسمها رشم. ومحمد أبو يعقوب. ومحمد أبو عيسى. ومحمد أبوالعباس. ومحمد أبو علي كل هؤلاء من أمهات أولاد.

وكان من الإناث سكينة من قصف. وأم حبيب من ماردة. وأروى. وأم الحسن. وأم محمد حمدونة وفاطمة وأمها غصص. وأم سلمة. وخديجة. وأم القاسم ورملة. وأم علي. وأم الغالية. وريطة كلهن من أمهات أولاد.

خلافة محمّد الأمين ابن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور

لما توفي الرشيد بطوس في جمادى الآخرة من هذه السنة ـ أعني سنة ثلاث وتسعين ومائة كتب صالح بن الرشيد إلى أخيه ولي العهد من بعد أبيه محمد بن الرشيد الملقب الأمين وهو ابن زبيدة يعلمه ببغداد بوفاة أبيه ويعزيه فيه، فلما وصل الكتاب صحبة رجاء الخادم ومعه الخاتم والقضيب والبردة، يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الآخرة، فركب الأمين من قصره بالخلد إلى قصر أبي جعفر المنصور ـ الذي يقال له: قصر الذهب ـ على شط بغداد وكان ذلك يوم جمعة النصف من جمادى، فصلى بالناس ثم صعد المنبر فخطبهم وعزاهم في الرشيد، وبسط آمال الناس ووعدهم الخير. فبايعه الخواص من قومه ووجوه الأمراء، وأمر بصرف أعطيات الجند عن ستين، نزل وأمر عمه سليمان بن أبي جعفر أن يأخذ البيعة له من بقية الناس فلما انتظم أمر الأمين ببغداد واستقام حاله فيها حسده أخوه المأمون ووقع الخلف بينهما على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

اختلاف الأمين والمأمون

وكان السبب في ذلك أن الرشيد لما كان مد وصل إلى أول بلاد خراسان ذهب جميع ما كان معه من الحواصل والدواب والسلاح لولده المأمون، وجدد له البيعة، وكان الأمين قد بعث بكر بن المعتمر بكتب في خفية ليوصلها إلى الأمراء إذا مات الرشيد، فلما توفي الرشيد نفذت الكتب إلى الأمراء وإلى صالح بن الرشيد، وفيها كتاب إلى المأمون يأمره بالسمع والطاعة، فأخذ صالح البيعة من الناس إلى الأمين، وارتحل الفضل بن الربيع الحاجب بالجيش إلى بغداد وقد بقي في نفوسهم تحرّج من البيعة التي أخذت منهم للمأمون، وكتب إليهم المأمون يدعوهم إلى بيعته فلم يجيبوه، فوقعت الوحشة بين الأخوين، ولكن تحول عامة الجيش إلى الأمين، فعند ذلك كتب المأمون إلى أخيه الأمين بالسمع والطاعة والتعظيم، وبعث إليه من هدايا خراسان وتحفها من الدواب والمسك وغير ذلك، وهو نائبه عليها، وقد أمر الأمين في صبيحة يوم السبت بعد أخذ البيعة يوم الجمعة ببناء ميدانين للصوّالجة، فقال في ذلك بعض الشعراء:

بنى أمين الله ميداناً وصير الساحة بستانا
وكانت الغزلان فيه بانا يهدى إليه فيه غزلانا

وفي هذه السنة في شعبان منها قدمت زبيدة من الرقة بالخزائن وما كان عندها من التحف والثياب، فتلقاها ولدها الأمين إلى الأنبار ومعه وجوه الناس.

وأقر الأمين أخاه المأمون على ما تحت يده من بلاد خراسان والري وغير ذلك، وأقر أخاه القاسم على الجزيرة والثغور، وأقر عمال أبيه على البلاد إلا القليل منهم.

ومات في هذه السنة

نقفور ملك الروم، قتلته البرجان، وكان ملكه سبع سنين، وأقام بعده ولده إستبراق شهرين فمات، فملكهم ميخائيل زوج أخت نقفور لعنهم الله.

وفيها تواقع هرثمة بن أعين نائب خراسان ورافع بن الليث فاستجاش رافع بالترك ثم هربوا وبقي رافع وحده فضعف أمره.

وحج بالناس في هذه السنة نائب الحجاز داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي.

وفيها توفي من الأعيان

■ **إسماعيل ابن علية:** وهو من أئمة العلماء والمحدثين الرفعاء، روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل، وقد ولي المظالم ببغداد، وكان ناظر الصدقات بالبصرة، وكان ثقة نبيلا جليلا كبير القدر، قليل التبسم وكان يتجر في البز وينفق على عياله منه ويحج منه، ويبر أصحابه من العلماء، منهم السفيانين وغيرهما، وقد ولاه الرشيد القضاء فلما بلغ عبد الله بن المبارك أنه ولي القضاء بعث إليه يعتب عليه ويلومه نظماً ونثراً، فاستعفى ابن علية الرشيد من القضاء فأعفاه.

وكانت وفاته في ذي القعدة من هذه السنة، ودفن في مقابر عبد الله بن مالك.

■ **محمد بن جعفر:** الملقب بغندر. روى عن شعبة وسعيد بن أبي عروبة وقد حدث عن خلق، وعنه جماعة من الأئمة منهم أحمد بن حنبل،

وكان ثقة جليلا حافظاً متقناً في الحديث. وقد ذكر عنه حكايات تدل على تغفيله في أمور الدنيا.

كانت وفاته بالبصرة في هذه السنة، وقيل في التي بعدها.

وقد لقب بهذا اللقب جماعة من المحدثين من المتقدمين والمتأخرين.

وممن توفي فيها:

■ **هارون الرشيد**: أمير المؤمنين، وقد تقدمت ترجمته قريباً.

■ **أبو بكر بن عياش**: أحد الأئمة، سمع أبا إسحاق السبيعي والأعمش وهشام بن عروة وجماعة.

وحدث عنه خلق من الثقات منهم أحمد بن حنبل.

وقال يزيد بن هارون: كان خيّراً فاضلا لم يضع جنبه إلى الأرض أربعين سنة.

قالوا: ومكث ستين سنة يختم القرآن في كل يوم ختمة كاملة، وصام ثمانين رمضاناً، وتوفي وله ست وتسعون سنة. ولما احتضر بكى عليه ابنه فقال: يا بني علام تبكي؟ والله ما أتى أبوك فاحشة قط.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائة

فيها خلع أهل حمص نائبهم فعزله عنهم الأمين وولى عليهم عبد الله بن سعيد الحرشي فقتل طائفة من وجوه أهلها وحرق نواحيها بالنار، فسألوه الأمان فأمنهم ثم هاجوا فضرب أعناق كثير منهم أيضاً.

وفيها عزل الأمين أخاه القاسم عن الجزيرة والثغور، وولى على ذلك خزيمة بن خازم، وأمر أخاه بالمقام عنده ببغداد.

وفيها أمر الأمين بالدعاء لولده موسى على المنابر في سائر الأمصار وبالإمرة من بعده، وسماه الناطق بالحق، ثم يدعى بعده لأخيه المأمون ثم لأخيه القاسم، ومن نية الأمين الوفاء لأخويه بما شرط لهما، فلم يزل به الفضل بن الربيع حتى غير نيته في أخويه، وحسن له خلع المأمون والقاسم، وصغر عنده شأن المأمون. وإنما حمله على ذلك خوفه من المأمون إن أفضت إليه الخلافة يوماً من الدهر، فيسعى في خلعه وزوال الولاية عنه. فوافقه الأمين على ذلك وأمر بالدعاء لولده موسى بولاية العهد من بعده، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة.

فلما بلغ ذلك المأمون قطع البريد عنه وترك ضرب اسمه على السكة والطرز، وتنكر لأخيه الأمين. وبعث رافع بن الليث إلى المأمون يسأل منه الأمان فأمنه فسار إليه بمن معه فأكرمه المأمون وعظمه، وجاء هرثمة على إثره فتلقاه المأمون ووجوه الناس وولاه الحرس، فلما بلغ الأمين أن الجنود قد التفت على أخيه المأمون ساءه ذلك وأنكره، وكتب إلى المأمون كتاباً وأرسل إليه رسلا ثلاثة من أكابر الأمراء، يسأله أن يجيبه إلى تقديم ولده موسى عليه، وأنه قد سماه الناطق بالحق، فأظهر المأمون الامتناع وشرعوا في مطايبته وملاينته، وأن يجيبهم إلى ذلك فأبى كل الإباء، فقال له العباس بن موسى بن عيسى: فقد خلع أبي نفسه فماذا كان؟ فقال المأمون: إن أباك كان امرءاً مُكْرَهاً، ثم لم يزل المأمون يعد العباس ويمنيه حتى بايعه بالخلافة، ثم لما رجع إلى بغداد كان يراسله بما كان من الأمر ببغداد ويناصحه، ولما رجع الرسل إلى الأمين أخبروه بما كان من جوابه، فعند ذلك صمم الفضل بن الربيع على الأمين في خلع المأمون فخلعه وأمر بالدعاء لولده في العراق كله وبلاد الحجاز وغيرها من البلاد وسماه الناطق بالحق، وجعلوا من يتكلم في المأمون ويذكر مساوئه، وبعثوا إلى مكة فأخذوا الكتاب الذي كتبه الرشيد وأودعه في الكعبة، فمزقه الأمين وأكدوا البيعة للناطق بالحق موسى بن الأمين على ما يليه أبوه من الأعمال، وجرت بين الأمين والمأمون مكاتبات ورسل يطول بسطها، وقد استقصاها الإمام أبو جعفر بن جرير في تاريخه [٨/٣٧٥-٣٨٥].

ثم آل بهما الأمر إلى أن احتفظ كل منهما على بلاده وحصنها وهيأ الجيوش والجنود وتألف الرعايا.

وفي هذه السنة غدت الروم على ملكهم ميخائيل فراموا خلعه وقتله فترك الملك وترهب وولوا عليهم ليون.

وحج بالناس فيها نائب الحجاز داود بن عيسى، وقيل علي بن الرشيد.

وقد توفي فيها من الأعيان

■ **سَلْم بن سالم أبو محمد البلخي**: قدم بغداد وحدث بها عن إبراهيم بن طهمان والثوري. وعنه الحسن بن عرفة.

وكان عابداً زاهداً، مكث أربعين سنة لم نَرَ له فراشاً، وصامها كلها إلا يومي العيد، ولم يرفع رأسه إلى السماء، وكان داعية إلى الإرجاء ضعيف الحديث، إلا أنه كان رأساً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان قد قدم بغداد فشنّع على الرشيد فحبسه وقيده باثني عشر قيداً، فلم يزل أبو معاوية يشفع فيه حتى تركوه في أربعة قيود، ثم كان يدعو الله أن يرده إلى أهله.

فلما توفي الرشيد أطلقته زبيدة فرجع إلى أهله وكانوا بمكة قد جاؤوا حجاجاً - فمرض بمكة. واشتهى يوماً برداً فسقط في ذلك الوقت برد حين اشتهاه فأكل منه. مات في ذي الحجة من هذه السنة.

و■ **عبد الوهاب بن عبد المجيد: الثقفي** كانت غلته في السنة قريباً من خمسين ألفاً ينفقها كلها على أهل الحديث. توفي عن أربع وثمانين سنة.

و■ **أبو النصر الجهني المصاب**: كان مقيماً بالمدينة النبوية بالصفة من المسجد في الحائط الشمالي منه، وكان يطيل السكوت، فإذا سئل أجاب بجواب حسن، ويتكلم بكلمات مفيدة تؤثر عنه وتكتب، وكان يخرج يوم الجمعة قبل الصلاة فيقف على مجامع الناس فيقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ [لقمان: ٣٣] و﴿يوم لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبلُ منها شفاعةٌ ولا يُؤخذُ منها عدلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] ثم ينتقل من جماعة إلى جماعة، حتى يدخل المسجد فيصلي فيه الجمعة ثم لا يخرج منه حتى يصلي العشاء الآخرة.

وقد وعظ مرة هارون الرشيد بكلام حسن فقال: اعلم أن الله سائلك عن أمة نبيه فاعد للذلك جواباً، وقد قال عمر بن الخطاب: لو ماتت سخلة بالعراق ضياعاً لخشيت أن يسألني الله عزّ وجلّ عنها. فقال الرشيد: إني لست كعمر، وإن دهري ليس كدهره. فقال: ما هذا بمغن عنك شيئاً. فأمر له بثلاثمائة دينار، فقال: أنا رجل من أهل الصفة فمر بها فلتقسم عليهم وأنا واحد منهم.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائة

ففي صفر منها أمر الأمين أن لا يُتعامل بالدراهم والدنانير التي عليها

اسم أخيه المأمون ونهى أن يدعى له على المنابر، وأن يقتصر على الدعاء له ثم من بعده لولده الناطق بالحقّ.

وفيها تسمى المأمون بإمام المؤمنين.

وفي ربيع الآخر منها عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان الإمارة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد، وأمره بحرب المأمون وجهز معه جيشا كثيراً، وأنفق فيهم نفقات عظيمة، وأعطاه مائتي ألف دينار، ولولده خمسين ألف دينار وألفي سيف محلى، وستة آلاف ثوب للخلع. فخرج علي بن عيسى بن ماهان من بغداد في أربعين ألف مقاتل فارس، ومعه قيد من فضة ليأتي بالمأمون فيه وخرج الأمين معه مشيعاً فسار حتى وصل إلى الري فتلقاه الأمير طاهر في أربعة آلاف، فكانت بينهم أمور آل الحال فيها إلى أن اقتتلوا، فقتل علي بن عيسى وانهزم أصحابه وحمل رأسه وجثته إلى الأمير طاهر فكتب بذلك إلى وزير المأمون ذي الرياستين، وكان الذي قتل علي بن عيسى رجل يقال له طاهر الصغير فسمي ذا اليمينين، لأنه أخذ السيف بيديه الثنتين فذبح به علي بن عيسى بن ماهان، ففرح بذلك المأمون وذووه، وانتهى الخبر إلى الأمين وهو يصيد السمك من دجلة، فقال: ويحك دعني من هذا فإن كوثراً قد صاد سمكتين. ولم أصد بعد شيئاً. وأرجف الناس ببغداد وخافوا غائلة هذا الأمر، وندم محمد الأمين على ما كان منه من نكث العهد وخلع أخيه المأمون، وما وقع من الأمر الفظيع. وكان رجوع الخبر إليه بذلك في شوال من هذه السنة.

ثم جهز عبد الرحمن بن جبلة الأبناوي في عشرين ألفاً من المقاتلة إلى همذان ليقاتلوا طاهر بن الحسين بن مصعب ومن معه من الخراسانية، فلما اقتربوا منهم تواجهوا فتقاتلوا قتالا شديداً فكثرت القتلى بينهم من الفريقين، ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن جبلة فلجؤوا إلى همذان فحاصرهم فيها طاهر حتى اضطرهم إلى أن دعوا إلى الصلح، فصالحهم وأمنهم ووفى لهم، وانصرف عبدالرحمن بن جبلة وقد بقي منهم أنهم راجعين، ثم غدروا بأصحاب طاهر وحملوا عليهم وهم غافلون فقتلوا منهم خلقاً وصبر لهم أصحاب طاهر ثم نهضوا إليهم وحملوا عليهم فهزموهم وقتل أميرهم عبد الرحمن بن جبلة، وفر أصحابه خائبين.

فلما رجعوا إلى بغداد واضطربت الأمور وكثرت الأراجيف، وكان ذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وطرد طاهر عمال محمد الأمين عن قزوين وتلك النواحي، وقوي أمر المأمون جداً بتلك البلاد.

وفي ذي الحجة من هذه السنة ظهر أمر السفياني بالشام، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، فعزل نائب الشام عنها ودعا إلى نفسه، فبعث إليه الأمين جيشاً فلم يقدموا عليه بل أقاموا بالرقة، ثم كان من أمره ما سنذكره بعدُ.

وحج بالناس في هذه السنة نائب الحجاز داود بن عيسى.

وفيها كانت وفاة جماعة من الأعيان

منهم:

■ **إسحاق بن يوسف الأزرق:** أحد أئمة الحديث. روى عنه الإمام أحمد وغيره.

■ **بكار بن عبد الله: بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير،** وكان نائب المدينة للرشيد ثنتي عشرة سنة وأشهراً، وقد أطلق الرشيد على يديه لأهلها ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار، وكان شريفاً جواداً معظماً ممدّحاً.

■ **أبو نواس الشاعر المشهور** واسمه الحسن بن هانىء بن صباح بن عبد الله بن الجراح بن وهيب بن ذوة بن غنم بن سليم بن حكم بن سعد العشيرة بن مالك بن عمرو بن الغوث بن طيىء بن أدد بن شبيب بن سبيع بن الحارث بن زيد بن علي بن عوف بن زيد بن هميسع بن عمرو بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح كذا نسبه عبدالله بن سعد الورّاق أبو علي الحكمي نسبة إلى ولاء الجراح بن عبد الله الحكمي.

ويقال له أبو نواس البصري، كان أبوه من أهل دمشق من جند مروان بن محمد، ثم صار إلى الأهواز وتزوج امرأة يقال لها جلبان، فولدت له أبا نواس هذا وابناً آخر يقال له أبا معاذ، ثم صار أبو نواس إلى البصرة فتأدب بها على أبي زيد وأبي عبيدة، وقرأ كتاب سيبويه ولزم خلفاً الأحمر، وصحب يونس بن حبيب الضبي النحوي.

وقد قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٩٥/٢]: صحب أبا أسامة والبة الحباب الكوفي، وروى الحديث عن أزهر بن سعد وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وعبد الواحد بن زياد ومعتمر بن سليمان، ويحيى القطان.

وعنه محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي. حكى عنه جماعة منهم الشافعي وأحمد بن حنبل والجاحظ وغندر ومشاهير العلماء.

ومن مشاهير حديثه ما رواه محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفي عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظنّ بالله، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنّة.

وقال محمد بن إبراهيم: دخلنا عليه وهو في الموت فقال له صالح بن علي الهاشمي: يا أبا علي! أنت اليوم في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وبينك وبين الله هنات، فتب إلى الله عز وجل من عملك. فقال: إياي تخوّف بالله فقال: أسندوني. فأسندوه فقال: حدثني حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكلّ نبيّ شفاعة وإنّي اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة» [م(٢٠١)، ت(٢٤٣٦)، ج(٤٣١٠)]. ثم قال: أفتراني لا أكون منهم.

وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن خنساء وليلى، فما ظنك بالرجال؟.

وقال يعقوب بن السكيت إذا رويت الشعر عن امرىء القيس والأعشى من أهل الجاهلية، ومن الإسلاميين لجرير والفرزدق، ومن المحدثين عن أبي نواس فحسبك.

وقد أثنى عليه غير واحد منهم الأصمعي والجاحظ والنظام.

قال أبو عمرو الشيباني: لولا أن أبا نواس أفسد شعره بما وضع فيه من الأقذار لاحتججنا به - يعني شعره الذي قاله في الخمريات والأحداث، وقد كان يميل إليهم - ونحو ذلك مما هو معروف من شعره.

وقد اجتمع طائفة من الشعراء عند المأمون فقال لهم: أيكم القائل:

فلمّا تحمّلناها وقفنا كأنّنا ... نرى قمراً في الأرض يبلغ كوكبا

قالوا: أبو نواس. قال: فأيكم القائل:

إذا نزلت دون اللّهاة من الفتى ... دعا همُّهُ عن صدره برحيل

قالوا أبو نواس. قال: فأيكم القائل:

فتمثلت في مفاصيلهم كتمثلي البُرء في السُقم

قالوا: أبو نواس. قال: فهو أشعركم.

وقال سفيان بن عيينة لابن مناذر: ما أشعر ظريفكم أبا نواس في قوله:

ياقمراً أبصرت في مأتم أبرزه المأتم لي كارها
يبكي فيذري الدُّرَّ من نرجس ويلطِمُ الورد بعُنَّاب
لازال موتاً داب أحبابه ولا تزل رؤيته دابي

قال ابن الأعرابي: أشعر الناس أبو نواس في قوله:

تغطّيت من دهري بظل جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تأل الأيام ما اسمي لما درتْ وأين مكاني ماعرفن مكاني

وقال أبو العتاهية: قلت في الزهد عشرين ألف بيت، وددت أن لي مكانها الأبيات الثلاثة التي قالها أبو نواس وهي هذه، وكانت مكتوبة على قبره:

يا نواسيَّ توقَّرْ تَعَذَّرْ وتصبَّرْ
إن يكن ساءك دهر فلما سرَّك أكثر
يا كبيرَ الذنب عفو اللّه من ذنبك أكبر

ومن شعر أبي نواس - رحمة اللّه عليه - يمدح بعض الأمراء:

أوجده اللّه فما مثله لطالبٍ ذاك ولا ناشد
وليس لله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وأنشدوا لسفيان بن عيينة قول أبي نواس:

ماهوى إلا لسبب يبتدي منه وينشعب
فتنت قلبي عجبة وجهها بالحسن متقب
خليتْ والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخب
فاكتست منه طرائفه واستزادت بعض ما تهب
فهي لو صيرت فيه لها عودة لم يثنها أرب
صار جداً ما مزحت به ربَّ جدّ جره اللّعب

فقال ابن عيينة: آمنت بالذي خلقها.

وقال ابن دريد: قال أبو حاتم: لولا أن العامة بدلت هذين البيتين لكتبتهما بماء الذهب:

ولو أني استزدتك فوق مابي من البلوى لأعوزك المزيد
ولو عرضت على الموتى حياتي بعيش مثل عيشي لم يريدوا

وقد سمع أبو نواس حديث سهيل عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: ألقلوب جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف. زخ (٣٣٣٦) من حديث عائشة، م (٢٦٣٨)، د (٤٨٣٤) من حديث أبي هريرة]. فنظم ذلك في قصيدة له يقول فيها:

إن القلوب لأجناد مجندة للّه في الأرض بالأهواء تعترف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف

ودخل يوماً أبو نواس مع جماعة من المحدثين على عبد الواحد بن زياد فقال لهم عبد الواحد: ليختر كل واحد منكم عشرة أحاديث أحدثه بها، فاختار كل واحد عشرة إلا أبا نواس، فقال له: مالك لاتختار كما اختاروا؟ فأنشأ يقول:

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب عن ثم سعد بن عباده
وعن الشعبي والشعـ بي شيخ ذو جلاده
وعن الأخيار نحكيـ ـه وعن أهل الإفاده
أن من مات محباً فله أجر شهاده

فقال له عبد الواحد: قم ماجن، لاحدثتك ولا حدثت أحداً من هؤلاء من أجلك». فبلغ ذلك مالك بن أنس وإبراهيم بن أبي يحيى فقالا: كان ينبغي أن يحدثه لعل اللّه أن يصلحه.

قلت: وهذا الذي أنشده أبو نواس في شعره قد رواه ابن عدي في كامله عن ابن عباس موقوفاًومرفوعاً من عشق فعف فكتم فمات مات شهيداً. ومعناه أن من ابتلي بالعشق من غير اختيار منه فصبر وعف عن الفاحشة ولم يفش ذلك فمات بسبب ذلك حصل له أجر كثير. فإن صح هذا كان ذلك له نوع شهادة واللّه أعلم.

وروى الخطيب البغدادي أيضاً أن شعبة لقي أبا نواس فقال له: حدّثنا من طرفك، فقال مرتجلا:

حدّثنا الخفّافُ عن وائل وخالدُ الحذّاءُ عن جابرِ
ومِسْعرٌ عن بعض أصحابه يرفَعُه الشّيخُ إلى عامرِ
قالُوا جميعاً أيما طفلةٍ عُلّقها ذو خُلُقٍ طاهرِ
فواصَلَتْهُ ثم دامَتْ له على وِصال الحافظِ الذّاكرِ
كانت له الجنةُ مفتوحةً يرتعُ في مرتَعِهَا الزّاهرِ
وأيُّ معشوق جفا عاشِقاً بعدَ وصالٍ دائمٍ ناضرِ
ففي عذابِ اللّهِ بُعْداً له نعم وسحقٍ دائمٍ داحرِ

فقال له شعبة: إنك لجميل الأخلاق، وإني لأرجو لك.

وأنشد أبو نواس أيضاً

يا ساحر المقلتين والجيد وقاتلي منك بالمواعيد
تُوعِدُني الوصلَ ثم تُخْلِفُني فوابلائي من خُلف موعودي
حدثني الأزرق المحدّث عن شَمْر وعوفٍ عن ابن مسعود
ما يُخلِفُ الوعد غيرُ كافرةٍ وكافرٍ في الجحيم مصفود

فبلغ ذلك إسحاق بن يوسف الأزرق فقال: كذب عدو اللّه عليّ وعلى التابعين وعلى أصحاب محمد ﷺ.

وعن سليم بن منصور قال: رأيت أبا نواس في مجلس أبي يبكي بكاء شديداً فقلت: إني لأرجو أن لا يعذبك اللّه بعد هذا البكاء أبداً فأنشأ يقول:

لم أبك في مجلس منصور شوقاً إلى الجنة والحور
ولا من القبر وأهواله ولا من النفخة في الصور
ولا من النار وأغلالها ولا من الخذلان والجور
لكن بكائي لبكا شادنٍ تقيه نفسي كلّ محذور

ثم قال: إنما بكيت لبكاء هذا الأمرد الذي إلى جانب أبيك - وكان

صبياً حسن الصورة يسمع الوعظ فيبكي خوفا من الله عز وجل

قال: أبو نواس: دعاني يوماً بعض الحاكة والح عليّ ليضيفني في منزله، ولم يزل بي حتى أجبته فسار إلى منزله وسرت معه فإذا منزل لا بأس به، وقد احتفل الحائك فلم يقصّر، فأكلنا وشربنا ثم قال: يا سيدي أشتهي أن تقول في جاريتي شيئاً من الشعر - وكان مغرماً بجارية له - قال: فقلت: أرنيها حتى أنظم على شكلها وحسنها، فكشف عنها الحجاب فإذا هي من أسمج خلق الله وأوحشهم سوداء شمطاء دنداية يسيل لعابها على صدرها. فقلت لسيدها: ماسمها؟ فقال تسنيم، فأنشأت أقول:

أسهر ليلي حبُّ تسنيم ... جاريةٍ في الحسن كالبوم
كأنما نكهتها كامخ ... أو حزمة من حزم الشوم
ضرطت من حبيّ لها ضرطة ... أفزعت منها ملك الروم

قال: فقام الحائك يرقص ويصفق سائر يومه ويفرح ويقول: شبهها والله بملك الروم.

ومن شعره أيضاً.

أبرمني الناس يقولون تُبْ ... بزعمهم كثرت أوزاريه
إن كنت في النار وفي جنة ... ماذا عليكم يابني الزانية

وبالجملة فقد ذكروا له أموراً كثيرة، وأشعاراً منكرة، ومجوناً كثيرة وله في الخمريات والقاذورات والتشبب بالمردان والنسوان أشياء بشعة شنيعة، فمن الناس من يفسقه ويرميه بالفاحشة، ومنهم من يرميه بالزندقة، ومنهم من يقول: إنما كان يخرب على نفسه، والأول أظهر، لما في أشعاره. فأما الزندقة فبعيدة عنه، ولكن كان فيه مجون وخلاعة كثيرة. وقد عزوا إليه في صغره وكبره أشياء منكرة الله أعلم بصحتها، والعامة تنقل عنه أشياء كثيرة لاحقيقة لها. وفي صحن جامع دمشق قبة يفور الماء من وسطها يقول الدماشقة: قبة أبي نواس، وهي مبنية بعد موته بأزيد من مائة وخمسين سنة، فما أدري لماذا تسمّى بهذا، والله أعلم.

وقال محمد بن أبي عمير: سمعت أبا نواس يقول: والله ما فتحت سراويلي لحرام قط.

وقال محمد الأمين بن هارون الرشيد لأبي نواس: أنت زنديق. فقال: يا أمير المؤمنين، كيف وأنا أقول:

أصلّي الصلاة الخمس في حين وقتها ... وأشهد بالتوحيد لله خاضعا
وأحسن غسلاً إن ركبت جنابةً ... وإن جاءني المسكين لم أك مانعا
واني وإن حانت من الكأس دعوة ... إلى بيعة الساقي أجبت مسارعا
وأشربها صرفاً على جنب ماعز ... وجدي كثير الشحم أصبح راضعا
وجوذاب حواري وجوز وسكر ... وما زال للمخمور ذلك نافعا
وأجعل تخليط الروافض كلهم ... لفقحة بختيشوع في النار طابعاً

فقال له الأمين: ويحك! وما الذي ألجأك إلى فقحة بختيشوع؟ فقال: به تمت القافية. فأمر له بجائزة.

وقال الجاحظ: لا أعرف في كلام الشعراء أرفع ولا أحسن من قول أبي نواس حيث يقول:

أيسةَ نار قدحَ القادحُ ... وأيُّ جدٍّ بلغ المازح
لله درُّ الشيب من واعظٍ ... وناصحٍ لو خطىء الناصح

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح
فاسم بعينيك إلى نسوة ... مهورهنَّ العملُ الصالح
لايجتلي العذراء من خدرها ... إلا امرؤٌ ميزانُهُ راجح
من اتقى الله فذاك الذي ... سيق إليه المتجر الرابح
فاغد فما في الدين أغلوطة ... ورح لما أنت له رائح

وقد استنشده أبو هِفّان قصيدته التي في أولها:

لا تنس ليلى ولا تطرب إلى هند

فلما فرغ منها سجد له أبو هِفّان، فقال له أبو نواس: والله لا أكلمك مدة. قال: فغمني ذلك، فلما أردت الانصراف قال: متى أراك؟ فقلت: ألم تقسم؟ فقال: الدهر أقصر من أن يكون معه هجر.

ومن مستجاد شعره قوله:

الا ربَّ وجه في التراب عتيق ... ويارب حسن في التراب رقيق
وياربَّ حزمٍ في التراب ونجدةٍ ... وياربَّ رأيٍ في التراب وثيق
أرى كل حي هالكاً وابن هالك ... وفا حب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك ظاعن ... إلى سفر نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقوله:

لاتشرهن فإن الذلَّ في الشره ... والعزُّ في الحلم لا في الطيش والسَّفهِ
وقل لمغتبط في التيه من حمق ... لو كنت تعلم مافي التيه لم تته
التيه مفسدةٌ للدين منقصة ... للعقل مهلكة للعرض فانتبه

وجلس أبو العتاهية القاسم بن إسماعيل في دكان وراق فكتب على ظهر دفتر.

أيا عجباً كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ

ثم جاء أبو نواس فقرأها ثم قال: أحسن، قاتله والله. والله لوددت أنها لي بجميع شيء قلته، لمن هذه؟ قيل له: لأبي العتاهية، فأخذ الدفتر فكتب إلى جانبها:

سبحان من خلق الخلـ ... ـق من ضعيف مهين
يسوقه من قرار ... إلى قرار مكين
يَحورُ شيئاً فشيئاً ... في الحجب دون العيون
حتى بدت حركاتٌ ... مخلوقةٌ من سكون

ومن شعر أبي نواس المستجاد قوله:

انقضت شرتي فعفت الملاهي ... إذ رمى الشيب مفرقي بالدواهي
ونهتني النهى فَمِلتُ إلى العدل ... وأشفقت من مقالة ناهِ
أيها الغافل المقر على السهو ... ولا عذر في المعاد لساهِ
لا بأعمالنا نطيق خلاصاً ... يوم تبدو السماتُ فوق الجباه
غير أنّا على الإساءة والتفـ ... ـريط نرجو من حسن عفو الإله

وقوله:

نموت ونبلى غير أن ذنوبنا ... إذا نحن متنا لاتموت ولا تبلى
الا ربَّ ذي عينين لاتنفعانه ... وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

وقوله:

لو أنَّ عيناً وهَمتها نفسها ... يوم الحساب ممثلا لم تطرف
سبحان ذي الملكوت أية ليلة ... خِضتْ صبيحتها بيوم الموقف
كتب الفناء على البريَّة ربها ... فالناس بين مقدَّم ومخلَّف

وذكر أن أبا نواس لما أراد الإحرام بالحج قال:

إلهَنا ما أعدَلَكْ ... مليكُ كُلُّ مَن ملَكْ
لبَّيكَ قد لبَّيتُ لكْ ... لبَّيك إن الحمد لك
والملكَ لا شريكَ لكْ ... ما خابَ عبدٌ سألكْ
لبيك إنَّ الحمدَ لكْ ... والملكَ لاشريكَ لكْ
أنتَ له حيثُ سلَكْ ... لولاكَ يا ربِّي هلَكْ
لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ ... والملكَ لا شريكَ لكْ
والليلُ لمَّا أن حلَكْ ... والسابحاتُ في الفَلَكْ
على مجاري المَنسلَكْ ... كلُّ نبيٍّ وملَكْ
وكلُّ مَن أهلَّ لكْ ... سبَّحَ أو صلَّى فَلَكْ
لبَّيك إنَّ الحمدَ لكْ ... والملكَ لا شريكَ لكْ
ياخطأً ما أغفَلَكْ ... عجِّلْ وبادِرْ أمَلَكْ
واختِمْ بخيرٍ عمَلَكْ ... لبيكَ إنَّ الحمدَ لكْ
والملكَ لا شريكَ لكْ

وقال المعافى بن زكريا الجريري: حدثنا محمد بن العباس بن الوليد سمعت أحمد بن يحيى - ثعلباً - يقول: دخلت على أحمد بن حنبل فرأيت رجلا تهمه نفسه لا يحب أن يكثر عليه كأن النيران قد سعرت بين يديه، فما زلت أترفق به وتوسلت إليه بأني من موالي شيبان حتى قال: في أي شيء نظرت من العلوم؟ فقلت: في اللغة والشعر. فقال: مررت بالبصرة وجماعة يكتبون عن رجل الشعر، قيل لي: هذا أبو نواس. فتخللت الناس ورائي فلما جلست أملى علينا:

إذا ماخلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قُل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ اللّه يغفل ساعة ... ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر اللّه حتى تتابعت ... ذنوب على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن اللّه يغفر مامضى ... ويأذن في توباتنا فتتوب

وزاد بعضهم في رواية عن أبي نواس بعد هذه الأبيات:

أقول إذا ضاقت عليَّ مذاهبي ... وحلَّ بقلبي للهموم نُدوب
لطول جنايات وعظم خطيئتي ... هلكت ومالي في المتاب نصيب
وأغرق في بحر المخافة آيساً ... وترجع نفسي تارة فتتوب
ويُذكر عفو للكريم عن الورى ... فأحيا وأرجو عفوه فأتوب
فأخضع في قولي وأرغب سائلا ... عسى كاشف البلوى عليَّ يتوب

قال ابن طرارا الجريري: وقد رويت هذه الأبيات: لمن؟ قيل: لأبي نواس وهي في زهدياته. وقد استشهد بها النحاة في أماكن كثيرة قد ذكرناها.

قال حسن بن الدناية: دخلت على أبي نواس وهو في مرض الموت فقلت: عظني فأنشأ يقول:

تكثَّر ماستطعت من الخطايا ... فإنك لاقيٌّ رباً غفورا
ستبصر إذ وردت عليه عفواً ... وتلقى سيداً ملكاً قديراً
تعض ندامةً كفيك مما ... تركت مخافة النار السُّرورا

فقلت: ويلك، في مثل هذه الحال تعظني بهذه الموعظة؟ فقال: اسكت حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال النبي ﷺ: أدخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي. وقد تقدم له بهذا الإسناد: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه.

وقال الربيع وغيره عن الشافعي قال: دخلنا على أبي نواس في اليوم الذي مات فيه وهو يجود بنفسه فقلنا: ما أعددت لهذا اليوم؟ فأنشأ يقول:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منةً وتكرُّما
ولولاك لم يُغوَ بإبليس عابد ... وكيف وقد أغوى صفيك آدما

رواه الحافظ ابن عساكر.

وروي أنهم وجدوا عند رأسه رقعة مكتوباً فيها بخطه:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلمُ

وقال يوسف بن الدناية: دخلت عليه وهو في السياق فقلت: كيف تجدك؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال:

دبَّ فيَّ الفناء سفلا وعلوا ... وأراني أموت عضواً فعضوا
ليس تأتي من ساعة بي إلا ... نقصتني بمرها في جزواً
ذهبت جدتي بلذة عيشي ... وتذكرت طاعة اللّه بغضواً
قد أساءت كلُّ الإساءة فالله ... هم صفحاً عنا وغفرا وعفواً

ثم مات من ساعته سامحه اللّه.

وقد كان نقش خاتمه لا إله إلا اللّه مخلصاً، فأوصى أن يجعل في فمه إذا غسلوه ففعلوا به ذلك.

ولما مات لم يجدوا له من المال سوى ثلاثمائة درهم وثيابه وأثاثه، وقد كانت وفاته في هذه السنة ببغداد ودفن في مقابر الشونيزية في تل اليهود. وله خمسون سنة. وقيل ستون سنة، وقيل تسع وخمسون سنة. وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما فعل المليك
عيون من لُجَيْنٍ فاخرات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن اللّه ليس له شريك

وفي رواية عنه أنه قال: غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي فجاؤوا فوجدوها في رقعة بخطه، وهي هذه الأبيات:

يـا رب إن عظمـت ذنوبـي كـثـرةً فلقـد علمـت بـأنّ عفـوك أعظـم

الأبيات. وقد تقدمت.

وفي رواية لابن عساكر قال بعضهم: رأيته في المنام في هيئة حسنة ونعمة عظيمة فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قلت: بماذا وقد كنت مخلطاً على نفسك؟ فقال: جاء ذات ليلة رجل صالح إلى المقابر فبسط رداءه وصلى ركعتين قرأ فيهما ألفي مرة ﴿قل هو الله أحد﴾ ثم أهدى ثواب ذلك لأهل تلك المقابر فدخلت أنا في جملتهم، فغفر الله لي.

وقال ابن خلكان: لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب قدم به بغداد، فكان أول شعر قاله أبو نواس:

حـامل الهوى تعـب يستخفه الطـرب
إن بكـى يحـقّ لـه ليس مـا بـه لعـب
تضحكـين لاهيـة والمحـبُّ يتحـب
تعجبـين مـن سـقمي صحـتي هـي العجـب

وقال المأمون: ما أحسن قوله:

وما النـاس إلا هـالك وابـن هـالك وذو نسـب في الهـالكين عريـق
إذا امتحـن الدنيـا لبيـب تكشـفت لـه عـن عـدوٍّ في ثيـاب صديـق

قال القاضي ابن خلكان: وما أشد رجاءه بربه حيث يقول:

تكـثّر ماسـتطعت مـن الخطايـا فـإنّك بـالغ ربـاً غفـوراً
سـتبصر إن وردتَ عليـه عفـواً وتلقـى سـيداً ملكـاً كبـيرا
تعـضُّ ندامـة كفّيـك مما تركـت مخافـة النـار السـرورا

وفيها توفي

■ **أبو معاوية الضرير، محمد بن خازم**، أحد مشايخ الحديث الثقات المشهورين.

و■ **الوليد بن مسلم الدمشقي** تلميذ الأوزاعي.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومئة

فيها حبس محمد بن الأمين أسد بن يزيد بن مزيد لأجل أنه نقم على الأمين لعبه وتهاونه في أمر الرعية، وارتكابه اللعب والصيد في هذا الوقت.

وفيها وجه الأمين أحمد بن مزيد وعبد الله بن حميد بن قحطبة في أربعين ألفاً مع كل واحد منهما عشرون ألفاً إلى حلوان لقتال طاهر بن الحسين أمير الحرب من جهة المأمون، فلما وصلوا إلى قريب من حلوان خندق طاهر على جيشه خندقاً وجعل يعمل الحيلة في إيقاع الفتنة بين الأميرين، فاختلفا فرجعا ولم يقاتلاه، ودخل طاهر إلى حلوان وجاءه كتاب المأمون بتسليم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين، وأن يتوجه هو إلى الأهواز. ففعل ذلك.

وفيها رفع المأمون منزلة الفضل بن سهل وولاه أعمالا كباراً وسماه ذا الرياستين.

وفيها ولى الأمين نيابة الشام لعبد الملك بن صالح بن علي ـ وقد كان أخرجه من سجن الرشيد ـ وأمره أن يبعث له رجالا وجنوداً لقتال طاهر وهرثمة، فلما وصل عبد الملك بن صالح إلى الرقة أقام بها وكتب إلى رؤساء الشام يتألفهم ويدعوهم إلى الطاعة، فقدم عليه منهم خلق كثير، ثم وقعت حروب كان مبدؤها من أهل حمص، وتفاقم الأمر وطال القتال بين الناس، ومات عبد الملك بن صالح هنالك فرجع الجيش إلى بغداد صحبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان، فتلقاه أهل بغداد بالإكرام والاحترام، وذلك في شهر رجب من هذه السنة. فلما وصل إليها جاءه رسول الأمين يطلبه فقال: والله ما أنا بمسامر ولا مضحك، ولا وليت له عملا ولا جاء له على يدي مال، فلأي شيء يريدني في هذه الليلة؟

سبب خلع محمد الأمين وكيف أفضت الخلافة إلى أخيه عبد الله المأمون

لما أصبح الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ولم يذهب إلى الأمين لما طلبه، وذلك بعد مقدمه بالجيش من الرقة، قام في الناس خطيباً ألبهم على الأمين، وذكر لعبه وما يتعاطاه من اللهو وغير ذلك من المعاصي، وأنه لا تصلح الخلافة لمن هذا حاله، وأنه يريد أن يوقع البأس بين الناس، ثم حثهم على القيام عليه والنهوض إليه، وندبهم لذلك، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير، وبعث محمد الأمين إليه خيلا فاقتتلوا ملياً من النهار، فأمر الحسين أصحابه أن يترجّلوا إلى الأرض وأن يقاتلوا بالسيف والرماح، فانهزم جيش الأمين وخلع محمدٌ الأمين، وذلك يوم الأحد الحادي عشر من شهر رجب من هذه السنة، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون ولما كان يوم الثلاثاء نقل الأمين من قصره إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، وضيق عليه وقيده واضطهده، وأمر العباس بن موسى بن عيسى أمه زبيدة أن تنتقل إلى هناك فامتنعت فقنّعها بالسوط وقهرها على الانتقال فانتقلت مع أولادها.

فلما أصبح الناس يوم الأربعاء طلبوا من الحسين بن علي أعطياتهم واختلفوا عليه وصار أهل بغداد فرقتين، فرقة مع الخليفة وفرقة عليه. فاقتتلوا قتالا شديداً فغلب حزب الخليفة أولئك، وأسروا الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان وقيدوه ودخلوا به على الخليفة ففكوا عنه قيوده وأجلسوه على السرير، فعند ذلك أمر الخليفة من لم يكن معه سلاح من العامة أن يعطى سلاحاً من الخزائن، فانتهب الناس خزائن السلاح بسبب ذلك، وأمر الأمين وأُتي الأمين بالحسين بن علي بن عيسى فلامه على ما صدر منه فاعتذر إليه بأن عفو الخليفة حمله على ذلك. فعفا عنه وخلع عليه واستوزره وأعطاه الخاتم وولاه ما وراء بابه، وولاه الحرب وسيره إلى حلوان، فلما وصل إلى الجسر هرب في حاشيته وخدمه فبعث إليه الأمين من يرده، فركبت الخيول وراءه فأدركوه فقاتلهم وقاتلوه فقتلوه لمتصف رجب، وجاؤوا برأسه إلى الأمين، وجدد الناس البيعة للأمين يوم الجمعة.

ولما قتل الحسين بن علي بن عيسى هرب الفضل بن الربيع الحاجب واستحوذ طاهر بن الحسين نائب المأمون على أكثر البلاد واستناب بها النواب، من جهة المأمون وخلع أكثر أهل الأقاليم الأمين وبايعوا المأمون، وتدنّى طاهر إلى المدائن فأخذها مع واسط وأعمالها، واستناب من جهته على الحجاز واليمن والجزيرة والموصل وغير ذلك ولم يبق مع الأمين من البلاد إلا القليل.

وفي شعبان منها عقد محمد الأمين لأربعمائة لواء مع كل لواء أمير، وبعثهم لقتال هرثمة بن أعين، فالتقوا في شهر رمضان فكسرهم هرثمة وأسر مقدمهم علي بن محمد بن عيسى بن نهيك، وبعث به إلى المأمون، وهرب جماعة من جند طاهر نحو من خمسة آلاف فساروا إلى الأمين فأعطاهم أموالا كثيرة، وأكرمهم وغلف لحاهم بالغالية فسموا جيش

الغالية. ثم ندبهم الأمين وأرسل معهم جيشاً كثيفاً لقتال طاهر فهزمهم وفرق شملهم، وأخذ ما كان معهم، واقترب طاهر من بغداد فحاصرها وبعث القصاد والجواسيس يلقون الفتنة بين الجند حتى تفرقوا شيعاً، ثم وقع بين الجيش وسعت الأصاغر على الأكابر واختلفوا على الأمين في سادس ذي الحجة فقال بعض البغاددة:

قل لأمين اللّه في نفسه ... ما شتت الجند سوى الغاليه
وطاهر؛ نفسي تقي طاهراً ... برسله والعدة الكافيه
أضحى زمام الملك في كفه ... مقاتلا للفئة الباغيه
يا ناكثاً أسلمه نكثه ... عيوبه في جيشه فاشيه
قد جاءك الليث بشداته ... مستكلباً في أسد ضاريه
فاهرب ولا مهرب من مثله ... إلا إلى النار أو الهاويه

فتفرق على الأمين شمله، وحار في أمره، وجاء طاهر بن الحسين بجيوشه فنزل على باب الأنبار يوم الثلاثاء لثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، واشتد الحال على أهل البلد وأخذت الدعار والشطار أهل الصلاح، وخربت الديار، وثارت الفتنة بين الناس، حتى قاتل الأخ أخاه للأهواء المختلفة، والابن أباه. وجرت شرور عظيمة، واختلفت الأهواء وكثر الفساد والقتل داخل البلد.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي الهاشمي من قبل طاهر، ودعا للمأمون بالخلافة بمكة والمدينة النبوية، وهو أول موسم دعي فيه للمأمون بالخلافة.

وفيها توفي

■ بقية بن الوليد الحمصي إمام أهل حمص وفقيهها ومحدثها.

■ حفص بن غياث القاضي: عاش فوق التسعين ولما احتضر بكى بعض أصحابه فقال له: لا تبك! واللّه ما حللت سراويلي على حرام قط، ولا جلس بين يديّ خصمان فباليت على من وقع الحكم منهما، قريباً كان أو بعيداً، ملكاً أو سوقة.

■ عبد اللّه بن مرزوق أبو محمد الزاهد، كان وزيراً للرشيد فترك ذلك كله وتزهد وأوصى عند موته أن يطرح قبل موته على مزبلة لعل اللّه يرحمه.

■ أبو شيص: الشاعر محمد بن رزين بن سليمان، كان إنشاد الشعراء، وإنشاؤه ونظمه أسهل عليه من شرب الماء، كذا قال ابن خلكان وغيره.

وكان هو مسلم بن الوليد ـ الملقب صريع الغواني ـ وأبو نواس ودعبل يجتمعون ويتناشدون. وقد عمي أبو الشيص في آخر عمره، ومن جيد شعره قوله:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذةً ... حباً لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً ... ما من يهون عليك ممن يكرم

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائة

استهلت هذه السنة وقد ألح طاهر بن الحسين بن مصعب وهرثمة بن أعين ومن معهما من الجنود في حصار بغداد والتضييق على محمد الأمين، وهرب القاسم بن الرشيد وعمه منصور بن المهدي إلى المأمون فأكرمهما، وولى أخاه القاسم جرجان، واشتد حصار بغداد ونصب عليها المجانيق والعرّادات. وضاق الأمين بهم ذرعاً، ولم يبق معه ما ينفق في الجند، فاضطر إلى ضرب آنية الفضة والذهب دراهم ودنانير، وهرب كثير من جنده إلى طاهر، وقتل من أهل البلد خلق كثير، وأخذت أموال كثيرة من التجار، وبعث محمد الأمين إلى قصور كثيرة ودور شهيرة مزخرفة وأماكن ومحال كثيرة فحرقها بالنار لما رأى في ذلك من المصلحة، فعل كل هذا فراراً من الموت ولتدوم الخلافة له فلم تدم، وقُتل وخربت دياره كما سيأتي قريباً، وفعل طاهر مثل ما فعل الأمين حتى كادت بغداد تخرب بكمالها، فقال بعضهم في ذلك:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زماناً قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم باليين فافترقوا ... ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع اللّه قوماً ما ذكرتهم ... إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

وقد أكثر الشعراء في ذلك.

وقد أورد ابن جرير [تاريخه: ٤٤٨/٨-٤٥٤] من ذلك طرفاً صالحاً، وأورد في ذلك قصيدة طويلة جداً لبعض أهل ذلك الزمان، فيها بسط ما وقع، وهي هول من الأهوال اقتصرناها بالكلية.

واستحوذ طاهر على ما كان في الضياع من الغلات والحواصل للأمراء وغيرهم، ودعاهم إلى الأمان وخلع الأمين والبيعة للمأمون فاستجاب له جماعة منهم عبد اللّه بن حميد بن قحطبة، ويحيى بن علي بن ماهان، ومحمد بن أبي العباس الطوسي، وكاتبه خلق من الهاشميين والأمراء، وصارت قلوبهم معه، واتفق في بعض الأيام أن ظفر أصحاب الأمين ببعض أصحاب طاهر فقتلوا منهم طائفة عند قصر صالح، فلما جرى ذلك بطر الأمين وأقبل على اللّهو والشرب واللعب، ووكل الأمور وتدبيرها إلى محمد بن عيسى بن نهيك، ثم قويت شوكة أصحاب طاهر وضعف جانب الأمين جداً، وانحاز الناس إلى جيش طاهر ـ وكان جانبه آمناً جداً لا يخاف أحد فيه من سرقة ولانهب ولاغير ذلك ـ وقد احتاز طاهر أكثر محال بغداد وأرباضها، ومنع الملاحين أن يحملوا طعاماً إلى من خالفه، ليضيق عليهم فغلت الأسعار جداً، وندم من لم يكن خرج من بغداد قبل ذلك، ومنعت التجار من القدوم إلى بغداد بشيء من البضائع أو الدقيق، وصرفت السفن إلى البصرة وغيرها، وجرت بين الفريقين حروب كثيرة، فمن ذلك وقعة درب الحجارة كانت لأصحاب الأمين، قتل فيها خلق من أصحاب طاهر كان الرجل من العيارين والحرافشة من البغاددة يأتي عرياناً ومعه بارية مقيرة، وتحت كتفه مخلاة فيها حجارة، فإذا ضربه الفارس من بعيد بالسهم اتقاه بباريته فلا يؤذيه، وإذا اقترب منه رماه بحجر في المقلاع فأصابه، فهزموهم بذلك.

ووقعة الشماسية أسر فيها هرثمة بن أعين، فشق ذلك على طاهر وأمر

بعقد جسر على دجلة فوق الشماسية، وعبر طاهر بنفسه ومن معه إلى الجانب الآخر فقاتلهم بنفسه أشد القتال حتى أزالهم عن مواضعهم، واسترد منهم هرثمة وجماعة ممن كانوا أسروهم من أصحابه، فشق ذلك على محمد الأمين وقال في ذلك:

منيت بأشجع الثقلين قلباً ... إذا ما طال ليس كما يطول
له مع كل ذي بدن رقيب ... يشاهده ويعلم ما يقول
فليس بمغفل أمراً عناداً ... إذا ما الأمرُ ضيّعهُ الغفولُ

وضعف أمر محمد الأمين ابن زبيدة جداً ولم يبق عنده مال ينفقه على جنده ولا على نفسه، وتفرق أكثر أصحابه عنه، وبقي مضطهداً ذليلا.

وانقضت هذه السنة بكمالها والناس ببغداد في قلاقل وزلازل وهيشهات، وقتال وحصار وحرق وغرق وسرق، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج بالناس فيها العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي ودعا للمأمون.

وفيها توفي من السادة الأعيان

■ شعيب بن حرب أحد الزهاد.

و■ عبد الله بن وهب إمام أهل الديار المصرية.

و■ عبد الرحمن بن مسهر قاضي جَبُّل، أخو علي بن مسهر.

و■ عثمان أبو سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين الرواة عن نافع بن أبي نعيم.

و■ وكيع بن الجراح الرؤاسي أحد أعلام المحدثين. مات عن ست وستين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين ومائة

فيها خامر خزيمة بن خازم على محمد الأمين وأخذ الأمان من طاهر. ودخل هرثمة بن أعين من الجانب الشرقي. وفي يوم الأربعاء لثمان خلون من المحرم وثب خزيمة بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى على جسر بغداد فقطعاه ونصبا رايتهما عليه. ودعوا إلى بيعة عبد الله المأمون وخلع محمد الأمين، ودخل طاهر يوم الخميس إلى الجانب الشرقي فباشر القتال بنفسه، ونادى بالأمان لمن لزم منزله، وجرت عند دار الرقيق والكرخ وغيرهما وقعات، وأحاط بمدينة أبي جعفر والخلد وقصر زبيدة، ونصب المجانيق حول السور وحذاء قصر زبيدة، ورماه بالمنجنيق، فخرج الأمين بأمه وولده إلى مدينة أبي جعفر، وتفرق عنه عامة أصحابه في الطريق، لا يلوي أحد على أحد، ودخل قصر الأمين أبي جعفر وانتقل من الخلد لكثرة ما يأتيه فيه من رمي المنجنيق، وأمر بتحريق ما كان فيه من الأثاث والبسط والأمتعة وغير ذلك، فحُصر فيه حصراً شديداً. ومع هذه الشدة والضيق وإشرافه على الهلاك خرج ذات ليلة في ضوء القمر إلى شاطئ دجلة واستدعى بنبيذ وجارية فغنته فلم ينطلق لسانها إلا بالفراقيات وذكر الموت وهو يقول لها: غيِّري هذا، وتذكر نظيره حتى غنته آخر ما غنته أن قالت:

أما وربِّ السكون والحركِ ... إنَّ المنايا كثيرةُ الشركِ
ما اختلفَ الليلُ والنهارُ ولا ... دارت نجومُ السماءِ في الفلكِ
إلا لنقلِ السلطانِ من ملكٍ ... غاوٍ يحبُّ الدنيا إلى ملكِ
وملكُ ذي العرشِ دائمٌ أبداً ... ليسَ بفانٍ ولا بمشتركِ

قال: فسبها وأقامها من حضرته فعثرت في قدح كان له من بلور فكسرته فتطير بذلك. ولما ذهبت الجارية سمع صارخاً يقول ﴿قُضِيَ الأَمرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] فقال لجليسه: ويحك ألا تسمع، فتسمع فلم يسمع شيئاً، ثم عاد الصوت بذلك فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل في رابع صفر يوم الأحد، وقد حصل له من الجهد والضيق في حصره شيئاً كثيراً بحيث إنه لم يبق عنده طعام ولا شراب فجاع ليلة فما أُتي برغيف ودجاجة إلا بعد كُلفة كبيرة، ثم طلب ماء فلم يوجد له فبات عطشاناً فلما أصبح قتل قبل أن يشرب ماءً.

ذكر كيفية مقتله

لما اشتد به الأمر اجتمع عنده من بقي معه من الأمراء والخدم والجند، فشاورهم في أمره فقالت طائفة: تذهب بمن بقي معك إلى الجزيرة أو الشام فتقوى بالأموال وتستخدم الرجال. وقال بعضهم: تخرج إلى طاهر وتأخذ منه أماناً وتبايع لأخيك، فإذا فعلت ذلك فإن أخاك سيأمر لك بما يكفيك ويكفي أهلك من أمر الدنيا، وغاية مرادك الدعة والراحة، وذلك يحصل لك. وقال بعضهم: بل هرثمة أولى بأن يأخذ لك منه الأمان فإنه مولاكم أحنى عليكم. فمال إلى ذلك.

فلما كانت ليلة الأحد الرابع من صفر بعد عشاء الآخر واعد هرثمة أن يخرج إليه، ثم لبس ثياب الخلافة وطيلساناً واستدعى بولديه فشمهما وضمهما إليه وقال: أستودعكما الله، ومسح دموعه بطرف كمه، ثم ركب على فرس سوداء وبين يديه شمعة، فلما انتهى إلى هرثمة أكرمه وعظمه وركبا في حراقة في دجلة، وبلغ ذلك طاهراً فغضب من ذلك وقال: أنا الذي فعلت هذا كله ويذهب إلى غيري، وينسب هذا كله إلى هرثمة فلحقهما وهما في الحراقة فأمالها أصحابه فغرقت في الماء، فغرق من فيها، غير أن محمداً الأمين سبح إلى الجانب الآخر وأسره بعض الجند. وجاء فأعلم طاهراً بذلك فبعث إليه جنداً من العجم فجاؤوا إلى البيت الذي هو فيه وعنده بعض أصحابه وهو يقول له: ادن مني فإني أجد وحشة شديدة، وجعل يلتف في ثيابه شديداً وقلبه يخفق خفقاناً عظيماً، كاد يخرج من صدره. فلما دخل عليه أولئك قال: إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم دنا منه أحدهم فضربه بالسيف على مفرق رأسه فجعل يقول: ويحكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ، أنا ابن هارون، أنا أخو المأمون، الله الله في دمي. فلم يلتفتوا إلى شيء من ذلك بل تكاثروا عليه وذبحوه من قفاه وهو مكبوب على وجهه وذهبوا برأسه إلى طاهر وتركوا جثته، ثم جاؤا بكرة إليها فلفوها في جل فرس وذهبوا بها. وكان ذلك في ليلة الأحد لأربع ليال خلت من صفر من هذه السنة. أعني سنة ثمان وتسعين ومائة.

وهذا شيء من ترجمة الأمين

هو محمد أمير المؤمنين

■ الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن المنصور أبو عبد الله ويقال أبو موسى الهاشمي العباسي البغدادي، وأمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور.

كان مولده بالرصافة سنة سبعين ومائة.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدّثنا عياش بن هشام عن أبيه قال: ولد محمد الأمين بن هارون الرشيد في شوال سنة سبعين ومائة. وأتته الخلافة بمدينة السلام بغداد لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وقُتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم، يعني سنة ثمان وتسعين ومائة، قتله قريش الدنداني، وحمل رأسه إلى طاهر بن الحسين فنصبه على رمح وتلا هذه الآية ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران ٢٦] وكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام، وكان طويلا سميناً أبيض أقنى الأنف صغير العينين، عظيم الكراديس بعيداً ما بين المنكبين. وقد رماه بعضهم بكثرة اللعب والشرب وقلة الصلاة.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٩٨/٨] طرفاً من سيرته في إكثاره من اقتناء السودان والخصيان، وإعطائهم الأموال والجواهر، وأمره بإحضار الملاهي والمغنين من سائر البلاد، وأنه أمر بعمل خمس حراقات على صورة الفيل والأسد والعقاب والحية والفرس، وأنفق على ذلك أموالا جزيلةً جداً، وقد امتدحه أبو نواس على ذلك بشعر أقبح في معناه من صنيع الأمين فإنه قال في أوله:

سخرَ اللّه للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحبِ المحرابِ

فإذا ما ركابهُ سرنَ بَراً ... سار في الماءِ راكباً ليث غاب

ثم وصف كلا من تلك الحراقات.

واعتنى الأمين ببنايات هائلة للنزهة وغير ذلك، وأنفق في ذلك أموالا كثيرة جداً. فكثر النكير عليه بسبب ذلك.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٥١٢/٨] أنه جلس يوماً في مجلس أنفق عليه مالا جزيلا في الخلد، وقد فرش له بأنواع الحرير، ونضد بآنية الذهب والفضة، وأحضر ندماءه وأمر القهرمانة أن تهيىء له مائة جارية حسناء وأمرها أن تبعثهن إليه عشراً بعد عشر يغنينه، فلما جاءت العشر الأول اندفعن يغنين بصوت واحد:

همُ قتلوهُ كي يكونوا مكانَه ... كما غَدَرتْ يوماً بكسرى مَرازبهْ

فغضب من ذلك وتبرم وضرب رأسها بالكأس، وأمر بها أن تلقى إلى الأسد فأكلها. ثم استدعى بعشرة فاندفعن يغنين:

منْ كانَ مسروراً بمقتلِ مالكٍ ... فليأتنا نسوتنا بوجوهٍ نهارِ

يجدِ النساءَ حواسراً يندبنهُ ... يلطمنَ قبلَ تبلجِ الأسحارِ

فطردهن واستدعى بعشر غيرهن، فلما حضرن اندفعن يغنين بصوت واحد:

كليبٌ لعمري كان أكثر ناصراً ... وأيسرَ ذنباً منكَ ضرجَ بالدمِ

فطردهن وقام من فوره وأمر بتخريب ذلك المجلس وتحريق ما فيه.

وذكر أنه كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ويحبُّه ويعطي عليه الجوائز الكثيرة، وكان شاعره أبا نواس، وقد قال فيه أبو نواس مدائح حساناً، وقد وجده مسجوناً في حبس الرشيد مع الزنادقة فأحضره وأطلقه وأطلق له مالا وجعله من ندمائه، ثم حبسه مرة أخرى في شرب الخمر وأطال حبسه ثم أطلقه وأخذ عليه العهد أن لا يشرب الخمر ولا يأتي الذُكران من العالمين فامتثل ذلك، وكان لا يفعل شيئا من ذلك بعد ما استتابه الأمين، وقد تأدب على الكسائي وقرأ عليه القرآن.

وروى الخطيب [تاريخ بغداد: ٣٣٨/٣] من طريقه حديثاً أورده عنه لما عُزّي في غلام له توفي بمكة فقال: حدّثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبدالله عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من مات محرماً حشر ملبياً".

وقد قدمنا ما وقع بينه وبين أخيه من الاختلاف والفرقة، حتى أفضى ذلك إلى خلعه وعزله، ثم إلى التضييق عليه وقتله، رحمه الله وسامحه، وأنه حصر في آخر أمره حتى احتاج إلى مصانعة هرثمة، فخرج إليه ليجتمع به، فأُلقي من الحرّاقة، فسبح إلى الشط الآخر من دجلة فدخل داراً لبعض العامة وهو في غاية الخوف والدهش والجوع والعُري، فجعل الرجل يلقنه الصبر والاستغفار، فاشتغل بذلك ساعة من الليل، ثم جاء الطلب وراءه من جهة طاهر بن الحسين بن مصعب، فدخلوا عليه وكان الباب ضيقاً فدخلوا يتدافعون وقام إليهم فجعل يدافعهم عن نفسه بمخدة كانت في يده، فما وصلوا إليه حتى عرقبوه وضربوا رأسه وخاصرته بالسيوف، ثم ذبحوه وأخذوا رأسه وجثته فأتوا بهما إلى طاهر بن الحسين ففرح بذلك فرحاً شديداً، وأمر بنصب الرأس فوق رمح هناك حتى أصبح الناس فنظروا إليه فوق الرمح عند باب الأنبار، وكثر عدد الناس ينظرون إليه. ثم بعث طاهر برأس الأمين مع ابن عمه محمد بن مصعب، وبعث معه بالبردة والقضيب والمصلّى - وكان من خوص مبطن - فسلمه إلى ذي الرياستين، فدخل به على المأمون على ترس، فلما رآه سجد وأمر لمن جاء به بألف ألف درهم.

وقد قال ذو الرياستين حين قدم الرأس يؤلب على طاهر: أمرناه بأن يأتي به أسيراً فأرسل به عقيراً. فقال المأمون: قد مضى ما مضى. وكتب طاهر إلى المأمون كتاباً ذكر فيه صورة ما وقع من القتال حتى آل الحال إلى ما آل إليه.

ولما قتل الأمين هدأت الفتن وخمدت الشرور، وأمن الناس، وطابت النفس، ودخل طاهر بن الحسين إلى بغداد يوم الجمعة فصلّى بالناس الجمعة وخطبهم خطبة بليغة ذكر فيها آيات كثيرة من القرآن، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأمرهم فيها بالجماعة والسمع والطاعة ثم خرج إلى معسكره فأقام به وأمر بتحويل زبيدة من قصر أبي جعفر إلى قصر الخلد، فخرجت يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة، وبعث بموسى وعبد الله ابني الأمين إلى عمهما المأمون بخراسان، وكان ذلك رأياً سديداً.

وقد وثب طائفة من الجند بطاهر بعد خمسة أيام من مقتل الأمين وطلبوا منه أرزاقهم فلم يكن عنده إذ ذاك مال، فتحزبوا واجتمعوا ونهبوا بعض متاعه وناديوا: يا موسى يا منصور، واعتقدوا أن موسى بن الأمين الملقب بالناطق بالحقّ هناك، وإذا هو قد سيره طاهر إلى عمه المأمون وانحاز طاهر بمن معه من القواد ناحية وعزم على قتالهم ومناجزتهم بمن معه، ثم رجعوا إليه واعتذروا وندموا على ما كانوا فعلوا، فأمر لهم برزق أربعة أشهر بعشرين ألف دينار اقترضها من بعض الناس، فطابت الخواطر واتسق الحال وصلح أمر بغداد.

وكان إبراهيم بن المهدي قد أسف على قتل محمد الأمين بن زبيدة ورثاه بأبيات، فبلغ ذلك المأمون فبعث إليه يعنفه ويلومه على ذلك.

وقد ذكر ابن جرير [تاريخه: ٤٩٩/٨] مراثي كثيرة للناس في الأمين، وذكر من أشعار الذين هجوه طرفا، وذكر من شعر طاهر بن الحسين حين قتله قوله:

ملكتُ الناسَ قسْراً واقتداراً ... وقتلتُ الجبابرةَ الكبارا
ووجّهتُ الخلافةَ نحو مروٍ ... إلى المأمون تُبتدرُ ابتدارا

خلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد

لما قتل أخوه محمد بن هارون الرشيد ببغداد في رابع صفر من سنة ثمان وتسعين ومائة وقيل في آخر المحرم، استوسقت البيعة شرقاً وغرباً للمأمون [عبدالله بن الرشيد]: فولى الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والأهواز والكوفة والبصرة والحجاز واليمن، وبعث نوابه إلى هذه الأقاليم، وكتب إلى طاهر بن الحسين وهو ببغداد أن ينصرف إلى الرقة لحرب نصر بن شبث، وولاه نيابة الجزيرة والشام والموصل والمغرب. وكتب إلى هرثمة بن أعين بنيابة خراسان.

وحج بالناس في هذه السنة العباس بن موسى بن عيسى الهاشمي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ سفيان بن عيينة. وعبد الرحمن بن مهدي. ويحيى القطان بن سعيد. فهؤلاء الثلاثة سادة العلماء في زمانهم في الحديث وأسماء الرجال.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة

فيها قدم الحسن بن سهل بغداد نائباً عليها من جهة المأمون، ووجه نوابه إلى بقية أعماله، وتوجه طاهر إلى نيابة الجزيرة والشام ومصر وبلاد المغرب. وسار هرثمة إلى نيابة خراسان.

وكان قد خرج في أواخر السنة الماضية في ذي الحجة منها، الحسن الهرش يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ، فجبى الأموال وانتهب الأنعام وعاث في البلاد فساداً فبعث إليه المأمون جيشاً فقتلوه في المحرم من هذه السنة.

وفي هذه السنة خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة، يدعو إلى الرضى من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وهو الذي يقال له ابن طباطبا، وكان القائم بأمره وتدبير الحرب بين يديه أبو السرايا السري بن منصور الشيباني، وقد أصفقَ أهل الكوفة على وفاقه واجتمعوا عليه من كل فج عميق، ووفدت إليه الأعراب من ضواحي الكوفة، وكان النائب عليها من جهة الحسن بن سهل سليمان بن أبي جعفر المنصور، فبعث الحسن بن سهل إلى سليمان يلومه ويؤنبه على ذلك، وأرسل إليه بعشرة آلاف فارس صحبة بن زهير بن المسيب، فتقاتلوا خارج الكوفة فهزموا زهيراً واستباحوا جيشه ونهبوا ما كان معه، وذلك يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة، فلما كان الغد من الوقعة توفي ابن طباطبا أمير الشيعة فجأة، يقال إن أبا السرايا سمه وأقام مكانه غلاماً أمرد يقال له محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وانعزل زهير بمن بقي معه من أصحابه إلى قصر ابن هبيرة، وأرسل الحسن بن سهل مع عبدوس بن محمد أربعة آلاف فارس، مدداً لزهير فالتقوا وأبو السرايا فهزمهم أبو السرايا ولم يفلت من أصحاب عبدوس أحد، وانتشر الطالبيون في تلك البلاد، وضرب أبو السرايا الدراهم والدنانير في الكوفة، ونقش عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الآية [الصف ٤].

ثم بعث أبو السرايا جيوشه إلى البصرة وواسط والمدائن فهزموا من فيها ودخلوها قهراً، وقويت شوكتهم، فاهتمَّ لذلك الحسن بن سهل وكتب إلى هرثمة من خراسان يستدعيه لحرب أبي السرايا فتمنع ثم قدم عليه فخرج إلى أبي السرايا فهزم أبا السرايا غير مرة وطرده حتى رده إلى الكوفة ووثب الطالبيون على دور بني العباس بالكوفة فنهبوها وخربوا ضياعهم، وفعلوا أفعالا قبيحة.

وبعث أبو السرايا إلى أهل المدينة فاستجابوا له، وبعث إلى أهل مكة حسين بن حسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ليقيم لهم الموسم فتهيّب أن يدخلها جهرة، ولما سمع نائب مكة - وهو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بقدومه هرب من مكة طالباً أرض العراق، وبقي الناس بلا إمام فسئل مؤذنها أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي أن يصلّي بهم فأبى، فقيل لقاضيها محمد بن عبد الرحمن المخزومي فامتنع، وقال: لمن أدعو وقد هرب نواب البلاد. فقدم الناس رجلا من عُرْضهم فصلى بهم الظهر والعصر، وبلغ الخبر إلى حسين بن حسن الأفطس فدخل مكة في عشرة رهط قبل الغروب فطاف بالبيت، ثم وقف بعرفة ليلا وصلّى بالناس الفجر بمزدلفة ودفع بهم وأقام بقية المناسك في أيام منى، فدفع الناس من عرفة بغير إمام.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إسحاق بن سليمان. وابن نمير. وابن شابور. وعمرو العنقزي. وأبو مطيع البلخي. ويونس بن بكير.

ثم دخلت سنة مائتين من الهجرة النبوية

في أول يوم من هذه السنة جلس حسين بن حسن الأفطس على طنفسة مثلثة خلف المقام وأمر بتجريد الكعبة مما عليها من كساوى بني العباس، وقال: نطهرها من كساويهم. وكساها ملاءتين صفراوين عليهما اسم أبي السرايا، ثم أخذ ما في كنز الكعبة من الأموال، وتتبع ودائع بني العباس فأخذها، حتى إنه ليأخذ مال ذي المال ويلزمه بإقرار للمسودة فيأخذه. وهرب منه الناس إلى الجبال، وحكّ ما على رؤوس الأساطين من الذهب، وكان ينزل من السارية مقدار يسير بعد جهد جهيد، وقلعوا ما في المسجد الحرام من الشبابيك وباعوها بالاثمان البخسة، وأساؤوا السيرة جداً. فلما بلغه مقتل أبي السرايا كتم ذلك وأمرّ رجلا من الطالبيين شيخاً كبيراً، واستمر على سوء السيرة.

وفي سادس عشر المحرم منها، قهر هرثمة بن أعين أبا السرايا وهزم جيشه وأخرجه ومن معه من الطالبيين من الكوفة، ودخلها هرثمة ومنصور بن المهدي فأمنوا أهلها ولم يتعرضوا لأحد. وسار أبو السرايا بمن معه إلى القادسية، ثم سار منها فاعترضهم بعض جيوش المأمون فهزموهم أيضاً وجرح أبو السرايا جراحة منكرة جداً، وهربوا يريدون الجزيرة إلى منزل أبي السرايا برأس العين، فاعترضهم بعض الجيوش أيضاً فأسروهم وأتوا بهم الحسن بن سهل وهو بالنهروان حين طردته الحربية، فأمر بضرب عنق أبي السرايا فجزع من ذلك جزعاً شديداً جداً وطيف برأسه وأمر بجسده أن يقطع باثنين وينصب على جسر بغداد، فكان بين خروجه وقتله عشرة

أشهر. فبعث الحسن سهل محمد بن محمد إلى المأمون مع رأس ابي السرايا. وقد قال بعض الشعراء:

ألم تر ضربة الحسن بن سهل بسيفك يا أمير المؤمنينا
أدارت مرو رأس أبي السرايا وأبقت عبرة للعابرين

وكان الذي في يده البصرة من الطالبيين زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، ويقال له الجزّار لكثرة من قتل من أهل اليمن، وأخذ من أموالهم. وقد كان مقيماً بمكة، فلما بلغه خبر أبي السرايا وظهوره بأرض الكوفة، طمع فسار إلى أهل اليمن، فلما بلغ نائبها قدومه ترك له وسار إلى خراسان إلى أمير المؤمنين واجتاز بمكة وأخذ أمه منها. واستحوذ إبراهيم بن موسى على بلاد اليمن وجرت حروب كثيرة وخطوب كبيرة يطول ذكرها، ورجع محمد بن جعفر العلوي لذي ادّعى الخلافة بمكة عما كان يزعمه، وقال: كنت أظن أن المأمون قد مات كما سُمع ذلك وقد تحققت حياته، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما كنت ادعيت من ذلك، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين. وهزم أبو السرايا وأصحابه ومحمد بن محمد الذي تأمّر بالكوفة وادّعى الخلافة، وتفرّق أصحابهما على يدي هرثمة بن أعين، فوشى بعض الناس إلى المأمون أن هرثمة لو شاء ما ظهر أبو السرايا وأصحابه فاستدعى به إلى مرو فأمر به فضرب بين يديه ووطئ بطنه ثم رفع إلى الحبس ثم قتل بعد ذلك بأيام، وانطوى خبره بالكلية.

ولما وصل خبر قتله إلى بغداد سعت العامة والحربية بالحسن بن سهل نائب العراق وغيرها وقالوا: لا نرضى به ولا بعماله ببلادنا، وأقاموا إسحاق بن موسى بن المهدي نائباً، واجتمع أهل الجانبين على ذلك، والتفت على الحسن بن سهل جماعة من الأمراء والأجناد، وراسل من وافق العامة على ذلك من الأمراء يحرضهم على القتال، وجرت الحروب بينهم ثلاثة أيام في شعبان من هذه السنة. ثم اتفق الحال على أن يعطيهم شيئاً من أرزاقهم ينفقونها في شهر رمضان، فما زال يطلهم إلى ذي القعدة حتى يدرك الزرع، فخرج في ذي العقده زيد بن موسى بن جعفر الذي يقال له زيد النار، وهو أخو ابي السرايا، وقد كان خروجه هذه المرة بناحية الأنبار، فبعث إليه علي بن هشام نائب بغداد عن الحسن بن سهل والحسن بالمدائن إذ ذاك فأخذ وأتي به إلى علي بن هشام، واطفأ الله ناثرته.

وبعث المأمون في هذه السنة يطلب جماعة من العباسيين، وأحصى كم العباسيون فبلغوا ثلاثة وثلاثين ألفاً، ما بين ذكور وأناث.

وفيها قتلت الروم ملكهم إليون، وقد ملكهم سبع سنين، وملكوا عليهم ميخائيل نائبه.

وفيها قتل المأمون يحيى بن عامر بن إسماعيل، لأنه قال للمأمون: يا أمير الكافرين. فقتل صبراً بين يديه.

وفيها حج بالناس أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد.

وفيها توفي من الأعيان

■ أسباط بن محمد. وأبو ضمرة أنس بن عياض. وسلم بن قتيبة. وعمر بن عبد الواحد. وابن أبي فديك. ومبشر بن إسماعيل. ومحمد بن حمير. ومعاذ بن هشام.

ثم دخلت سنة إحدى ومائتين

فيها راود أهل بغداد منصور بن المهدي على الخلافة فامتنع من ذلك، فراوده على أن يكون نائباً للمأمون يدعو له في الخطبة فأجابهم إلى ذلك، وذلك بعد إخراج أهل بغداد علي بن هشام نائب الحسن بن سهل من بين أظهرهم بعد أن جرت حروب كثيرة بسبب ذلك.

وفيها عم البلاء بالعيارين والشطار والفساق ببغداد وما حولها من القرى، كانوا يأتون الرجل يسألونه ما لا يقرضهم أو يصلهم به فيمتنعوا عليهم فيأخذون جميع ما في منزله، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان، ويأتون أهل القرية فيستاقون ما فيها من الأنعام والمواشي ويأخذون ما شاؤوا من الغلمان والنسوان، ونهبوا أهل قطربل ولم يدعوا لهم شيئاً أصلا، فانتدب رجل يقال له خالد الدريوش، وآخر يقال له سهل بن سلامة أبو حاتم الأنصاري من أهل خراسان. والتف عليهما جماعة من العامة فكفوا شرهم وقاتلوهم ومنعوهم من العيث في الأرض فساداً، واستقرت الأمور كما كانت، وذلك في شعبان ورمضان و لله الحمد والمنة.

وفي شوال منها رجع الحسن بن سهل إلى بغداد وصالح الجند، وانفصل منصور بن المهدي ومن وافقه من الأمراء.

وفي هذه السنة بايع المأمون لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب أن يكون ولي العهد من بعده، وسماه الرضى من آل محمد، وطرح لبس السواد وأمر بلبس الخضرة، وألزم جنده بذلك، وكتب بذلك إلى الآفاق الأقاليم، وكانت مبايعته له يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة إحدى ومائتين، وذلك أن المأمون رأى أن علياً الرضى خير أهل البيت وليس في بني العباس مثله في علمه ودينه، فجعله ولي عهده من بعده.

ذكر بيعة أهل بغداد لإبراهيم بن المهدي

لما جاء الخبر إلى بغداد أن المأمون بايع لعلي بن موسى الرضى بالولاية من بعده اختلفوا فيما بينهم، فمن مجيب مبايع، ومن آب مانع، وجمهور العباسيين على الامتناع، وقام في ذلك ابنا المهدي إبراهيم ومنصور، فلما كان يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة أظهر العباسيون البيعة لإبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك - وكان أسود اللون - ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وخلعوا المأمون. فلما كان يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة أرادوا أن يدعوا للمأمون ثم من بعده لإبراهيم فقالت العامة: لا نرضى إلا بإبراهيم فقط، واختلف الناس واضطربوا فيما بينهم، ولم يصلوا الجمعة، وصلّى الناس فرادى أربع ركعات.

وفي هذه السنة افتتح نائب طبرستان جبالها وبلاد اللارز والشيزر.

وذكر ابن جرير [تاريخه: ٨/٥٥٦] أن سلماً الخاسر قال في ذلك شعراً. وقد ذكر ابن الجوزي [المنتظم: ٩/١٢٠] وغيره أن سلماً توفي قبل ذلك بسنين فالله أعلم.

وفيها أصاب أهل خراسان والري وأصبهان مجاعة شديدة وعزّ الطعام جداً.

وفي هذه السنة تحرك بابك الخرميّ واتبعه طوائف من السفلة والجهلة

وكان يقول بالتناسخ قبحه الله ولعنه. وسيأتي ما آل أمره إليه.

وفيها حج بالناس إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس.

وفيها توفي من الأعيان

■ **أبو أسامة حماد بن أسامة. وحماد بن مسعدة وحرمي بن عمارة. وعلي بن عاصم.**

■ **محمد بن محمد صاحب أبي السرايا** الذي قد كان بايعه أهل الكوفة بعد ابن طباطبا.

ثم دخلت سنة ثنتين ومائتين

في أول يوم منها بويع لإبراهيم بن المهدي بالخلافة ببغداد وخلع المأمون، فلما كان يوم الجمعة خامس المحرم صعد إبراهيم بن المهدي المنبر فبايعه الناس ولقب بالمبارك، وغلب على الكوفة وأرض السواد، وطلب منه الجند أرزاقهم فماطلهم ثم أعطاهم مائتي درهم لكل واحد، وكتب لهم بتعويض من أرض السواد، فخرجوا لا يمرون بشيء إلا انتهبوه، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان، واستناب إبراهيمُ على الجانب الشرقي العباس بن موسى الهادي، وعلى الجانب الغربي إسحاق بن موسى الهادي.

وفيها خرج خارجي يقال له مهدي بن علوان، فبعث إليهم إبراهيم جيشاً عليهم أبو إسحاق المعتصم بن الرشيد في جماعة من الأمراء فكسره ورد كيده و لله الحمد.

وفيها خرج أخو أبي السرايا فبيض بالكوفة فأرسل إليه إبراهيم بن المهدي من قاتله فقتل أخو أبي السرايا وأرسل برأسه إلى إبراهيم، ولما كان ليلة أربع عشرة من ربيع الآخر من هذه السنة ظهرت في السماء حمرة ثم ذهبت وبقي بعدها عمودان أحمران في السماء إلى آخر الليل، وجرت بالكوفة حروب بين أصحاب إبراهيم وأصحاب المأمون، واقتتلوا قتالا شديداً. وعلى أصحاب إبراهيم السواد، وعلى أصحاب المأمون الخضرة واستمر القتال بينهم إلى أواخر رجب.

وفي هذه السنة ظفر إبراهيم بن المهدي بسهل بن سلامة المطوعي فسجنه، وذلك أنه التف عليه جماعة من الناس يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن كانوا قد جاوزوا الحد وأنكروا على السلطان ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة، وصار باب داره كأنه باب السلطان، عليه السلاح والرجال وغير ذلك من أبهة الملك، فقاتله الجند فكسروا أصحابه فألقى السلاح وصار بين النساء والنظارة ثم اختفى في بعض الدروب، فأخذ وجيء به إلى إبراهيم فسجنه سنة كاملة.

وفيها أقبل المأمون من خراسان قاصداً العراق، وذلك أن علي بن موسى بن جعفر العلوي أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتن والاختلاف بأرض العراق، وبأن الهاشميين قد أنهوا إلى الناس بأن المأمون مسحور ومجنون، وأنهم قد نقموا عليك ببيعتك لعلي بن موسى، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل وبين إبراهيم بن المهدي. فاستدعى المأمون بجماعة من أمرائه وأقربائه فسألهم عن ذلك فصدقوا علياً فيما قال، بعد أخذهم الأمان منه، وقالوا له: إن الفضل بن سهل حسن لك قتل هرثمة، وقد كان ناصحاً لك. فعاجله فقتله، وإن طاهر بن الحسين مهد لك الأمور حتى قاد إليك الخلافة بزمامها فطردته إلى الرقة فقعد لاعمل له ولا تستنهضه في أمر، وإن الأرض قد تفتقت بالشرور والفتن من أقطارها.

فلما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد، وقد فطن الفضل بن سهل بما تمالأ عليه أولئك الناصحون للمأمون، فضرب قوماً ونتف لحى بعضهم.

وسار المأمون فلما كان بسرخس عدا قوم على الفضل بن سهل وزير المأمون وهو في الحمام فقتلوه بالسيوف، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان وله ستون سنة، فبعث المأمون في آثارهم فجيء بهم وهم أربعة من المماليك فقتلهم، وكتب إلى أخيه الحسن بن سهل يعزيه فيه، وولاه الوزارة مكانه، وارتحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر نحو العراق وإبراهيم بن المهدي بالمدائن، وفي مقابلته جيش يقاتلونه من جهة المأمون.

وفي هذه السنة تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل، وزوج علي بن موسى الرضى بابنته أم حبيب وزوج ابنه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بابنته الأخرى أم الفضل.

وحج بالناس في هذه السنة إبراهيم بن موسى بن جعفر أخو علي الرضى، ودعا لأخيه بعد المأمون، ثم انصرف بعد الحج إلى اليمن، وقد كان تغلب عليها حمدويه بن علي بن موسى بن ماهان.

وفيها توفي من الأعيان

■ **أيوب بن سويد. وضمرة. وعمر بن حبيب. والفضل بن سهل الوزير. وأبو يحيى الحماني.**

ثم دخلت سنة ثلاث ومائتين

فيها وصل المأمون - في سيرة خراسان إلى العراق - إلى مدينة طوس، فنزل بها وأقام عند قبر أبيه أياماً من شهر صفر، فلما كان في آخر الشهر أكل علي بن موسى الرضى عنباً فمات فجأة فصلى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد، وأسف عليه أسفاً كثيراً فيما ظهر، والله أعلم.

وكتب إلى الحسن بن سهل يعزيه في علي الرضا ويخبره بما حصل له من الحزن عليه، وكتب إلى بني العباس ببغداد يقول لهم: إنكم إنما نقمتم علي بسبب توليتي العهد من بعدي لعلي بن موسى الرضى، وها هو قد مات فارجعوا إلى السمع والطاعة. فأجابوه بأغلظ جواب كتب به إلى أحد.

وفي هذه السنة غلبت السوداءُ على الحسن بن سهل حتى قيد بالحديد وأودع في بيت، فكتب الأمراء بذلك إلى المأمون، فكتب إليهم: إني واصل على إثر كتابي هذا. ثم جرت حروب كثيرة بين إبراهيم وأهل بغداد، وتنكروا عليه وأبغضوه. وظهرت الفتن والشطار والفساق ببغداد وتفاقم الأمر، وصلوا يوم الجمعة ظهراً، أمهم المؤذنون فيها من غير خطبة، صلوا أربع ركعات، واشتد الأمر واختلف الناس فيما بينهم في إبراهيم والمأمون، ثم غلبت المأمونية عليهم

ذكر خلع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي ودعائهم للمأمون

لما كان يوم الجمعة المقبلة دعا الناس للمأمون وخلعوا إبراهيم، وأقبل

حميد بن عبد الحميد في جيش من جهة المأمون فحاصر بغداد. وطمع جندها في العطاء إذا قدم فطاوعوه على السمع والطاعة للمأمون. وقد قاتل عيسى بن محمد بن أبي خالد في جماعة من جهة إبراهيم بن المهدي، ثم احتال عيسى حتى صار في أيدي المأمونية أسيراً، ثم آل الحال إلى اختفاء إبراهيم بن المهدي في آخر هذه السنة. وكانت أيامه سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً. وقد وصل المأمون في هذا الوقت إلى همذان وجيوشه قد استعادوا بغداد إلى طاعته.

وحج بالناس في هذه السنة سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **علي بن موسى: بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القرشي الهاشمي العلوي الملقب بالرضى**، كان المأمون قد هم أن ينزل له عن الخلافة فأبى عليه ذلك، فجعله ولي العهد من بعده كما قدمنا ذلك. فتوفي في صفر من هذه السنة بطوس.

وقد روى الحديث عن أبيه وغيره، وعنه جماعة منهم المأمون وأبو الصلت الهروي وأبو عثمان المازني النحوي، وقال سمعته يقول: الله أعدل من أن يكلف العباد ما لا يطيقون، وهم أعجز من أن يفعلوا ما يريدون. ومن شعره:

كلنا يأمل مداً في الأجل ... والمنايا هنّ آفاتُ الأمل
لا تغرنك أباطيلُ المنى ... والزم القصدَ ودعْ عنك العلل
إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ ... حلّ فيه راكبٌ ثم ارتحل

ثم دخلت سنة أربع ومائتين

فيها كان قدوم المأمون أرض العراق، وذلك أنه مر بجرجان فأقام بها شهراً، ثم سار منها وكان ينزل في المنزل يوماً أو يومين، ثم جاء إلى النهروان فأقام بها ثمانية أيام، وقد كتب إلى طاهر بن الحسين وهو بالرقة أن يوافيه إلى النهروان فوافاه بها وتلقاه رؤوس أهل بيته والقواد وجمهور الجيش، فلما كان يوم السبت الآخر دخل بغداد ارتفاعَ النهار لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر، في أبهة عظيمة وجيش عظيم، وعليه وعلى جميع أصحابه، وقبابهم وجميع لباسهم الخضرة فلبس أهل بغداد وجميع بني هاشم الخضرة، ونزل المأمون بالرصافة ثم تحول إلى قصره على دجلة، وجعل الأمراء ووجوه الدولة يترددون إلى منزله على العادة، وقد تحول لباس البغادده إلى الخضرة، وجعلوا يحرقون كل ما يجدونه من السواد، فمكثوا بذلك ثمانية أيام. ثم استعرض حوائج طاهر بن الحسين فكان أول حاجة سألها أن يرجع إلى لباس السواد، فإنه لباس آبائه من دولة ورثة الأنبياء. فلما كان السبت الآخر وهو الثالث والعشرون من صفر جلس المأمون للناس وعليه الخضرة، ثم إنه أمر بخلعة سوداء فألبسها طاهر بن الحسين، ثم ألبس بعده جماعة من الأمراء السواد، فلبس الناس السواد وعادوا إلى ذلك، بعدما علم منهم الطاعة والموافقة، وقيل إنه مكث يلبس الخضرة بعد قدومه بغداد سبعاً وعشرين يوماً، فالله أعلم.

ولما جاء إليه عمه إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه ست سنين وشهوراً قال له المأمون: أنت الخليفة الأسود، فأخذ في الاعتذار والاستغفار، ثم قال للمأمون: أنا الذي مننتَ عليه يا أمير المؤمنين بالعفو، وأنشد المأمونَ عند ذلك:

ليسَ يزري السوادُ بالرجلِ الشهمِ ... ولا بالفتى الأديبِ الأريبِ
إن يكن للسوادِ منكَ نصيبٌ ... فبياضُ الأخلاقِ منكَ نصيبي

قال القاضي ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٤١/١]: وقد نظم هذا المعنى بعض المتأخرين وهو نصر الله بن قلاقس الإسكندري فقال:

ربَّ سوداءَ وهي بيضاءُ فعلٍ ... حسدَ المسكَ عندها الكافورُ
مثلُ حبِّ العيونِ يحسبهُ الناسُ ... سواداً وإنما هو نورُ

وكان المأمون قد شاور في قتل عمه إبراهيم بن المهدي بعض أصحابه فقال له أحمد بن خالد الوزير الأحول: يا أمير المؤمنين إن قتلته فلك نظراء في ذلك، وإن عفوت عنه فما لك نظير.

ثم شرع المأمون في بناء قصور على دجلة إلى جانب قصره بها، وسكنت الفتن وانزاحت الشرور، وأمر بمقاسمة أهل السواد على الخمسين، وكانوا يقاسمون على النصف. واتخذ القفيز الملجم وهو عشرة مكاكي بالمكوك الهاروني ووضع شيئاً كثيراً من خراجات بلاد شتى، ورفق بالناس في مواضع كثيرة.

وولّى أخاه أبا عيسى بن الرشيد الكوفة، وولّى أخاه صالحا البصرة، وولى عبيد الله بن الحسن بن عبدالله بن العباس بن علي بن أبي طالب نيابة الحرمين، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة. وفيها واقع يحيى بن معاذ بابك الخرّمي فلم يظفر به.

وفيها توفي جماعة من الأعيان منهم:

أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

وقد أفردنا له ترجمة مطولة في أول كتابنا طبقات الشافعيين، ولنذكر ههنا ملخصاً من ذلك وبالله المستعان.

هو الإمام العالم أبوعبدالله

■ **محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد** بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، القرشي المطلبي، والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر، وابنه شافع بن السائب من صغار الصحابة، وأمه أزدية. وقد رأت حين حملت به كأن المشتري خرج من فرجها حتى انقض بمصر، ثم وقع في كل بلد منه شظية. وقد ولد الشافعي بغزة، وقيل بعسقلان، وقيل باليمن سنة خمسين ومائة، ومات أبوه وهو صغير فحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين لئلا يضيع نسبه، فنشأ بها وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة. وقيل ابن ثماني عشرة سنة، أذن له شيخه مسلم بن خالد الزنجي، وعني باللغة والشعر، وأقام في هذيل نحواً من عشر سنين، وقيل عشرين سنة، فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها، وسمع الحديث الكثير على جماعة من المشايخ والأئمة، وقرأ بنفسه الموطأ على مالك من حفظه فأعجبته قراءته وهمته، وأخذ عنه علم الحجازيين بعد أخذه عن مسلم بن خالد الزنجي.

وروى عنه خلق كثير قد ذكرنا أسماءهم مرتبين على حروف المعجم، وقرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد

عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ عن جبريل عن الله عز وجل.

وأخذ الشافعي الفقه عن مسلم بن خالد الزنجي عن ابن جريج عطاء عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما عن جماعة من الصحابة، منهم عمر وعلي وبن مسعود، وزيد بن ثابت، وغيرهم. كلهم عن رسول الله ﷺ.وتفقه أيضاً على مالك عن مشائخه، وتفقه به جماعة قد ذكرناهم ومن بعدهم إلى زماننا في تصنيف مفرد ولله الحمد والمنة.

وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي بشر الدولابي عن محمد بن إدريس وراق الحميدي عن الحميدي عن الشافعي أنه ولي الحكم بنجران من أرض اليمن، ثم تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد - هارون - أنه يروم الخلافة، فحمل على بغل في قيد إلى بغداد فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة وعمره ثلاثون سنة، فاجتمع بالرشيد فتناظر هو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن، وتبين للرشيد براءته مما نسب إليه، وأنزله محمد بن الحسن عنده.

وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنة، وقيل بسنتين، وأكرمه محمد بن الحسن وكتب عنه الشافعي وقَرَ بعير، ثم أطلق له الرشيد ألفي دينار وقيل خمسة آلاف دينار. وعاد الشافعي إلى مكة ففرق عامة ما حصل له في أهله وذوي رحمه من بني عمه، ثم عاد الشافعي إلى بغداد في سنة خمس وتسعين ومائة، فاجتمع به جماعة من العلماء هذه المرة منهم أحمد بن حنبل وأبو ثور والحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن سُريج النَّقَّال، وأبو عبد الرحمن الشافعي، والزعفراني، وغيرهم. ثم رجع إلى مكة ورجع إلى بغداد أيضاً سنة ثمان وتسعين ومائة، ثم انتقل منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات في هذه السنة، سنة أربع ومائتين، كما سيأتي. وصنف بها كتابه «الأم» وهو من كتبه الجديدة لأنها من رواية الربيع بن سليمان، وهو مصري. وقد زعم إمام الحرمين وغيره أنها من القديم، وهذا بعيد وعجيب من مثله والله أعلم.

وقد أثنى على الشافعي غير واحد من كبار الأئمة منهم عبد الرحمن بن مهدي وسأله أن يكتب له كتاباً في الأصول فكتب له «الرسالة»، وكان يدعو له في الصلاة دائماً، وشيخه مالك بن أنس.

وقتيبة بن سعيد. وقال: هو إمام.

وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وكان يدعو له أيضاً في صلاته.

وأبو عبيد، وقال: ما رأيت أفصح ولا أعقل ولا أورع من الشافعي.

ويحيى بن أكثم القاضي، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن الحسن، وغير واحد ممن يطول ذكرهم وشرح أقوالهم.

وكان أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته نحواً من أربعين سنة، وكان أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود [٤٢٩١] من طريق عبد الله بن وهب عن سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد عن أبي علقمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها».

قال: فعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، والشافعي على رأس المائة الثانية.

وقال أبو داود الطيالسي [مسنده (٣٠٩)]: حدّثنا جعفر بن سليمان عن النضر بن معبد الكندي - أو العبدي - عن الجارود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً، اللّهم إنك أذقت أولها عذاباً أو وبالا فأذق آخرها نوالا».

وهذا غريب من هذا الوجه.

وقد رواه الحاكم في مستدركه [مناقب الشافعي للبيهقي (٢٧/١) عن الحاكم] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه.

قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الإسفرايني: لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي. حكاه الخطيب [تاريخ بغداد: ٦١/٢].

وقال يحيى بن معين عن الشافعي: هو صدوق لا بأس به. وقال مرة: لو كان الكذب له مباحاً مطلقاً لكانت مروءته تمنعه أن يكذب.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: الشافعي فقيه البدن، صدوق اللسان.

وحكى بعضهم عن أبي زرعة أنه قال: ما عند الشافعي حديث غلط فيه.

وحُكي عن أبي دواد نحوه.

وقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة - وقد سئل: هل سنة لم تبلغ الشافعي؟ - فقال: لا.

ومعنى هذا أنها تارة تبلغه بسندها، وتارة مرسلة، وتارة منقطعة كما هو الموجود في كتبه والله أعلم.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: سميت ببغداد ناصر السنة.

وقال أبو ثور: ما رأينا مثل الشافعي ولا رأى هو مثل نفسه.

وكذا قال الزعفراني وغيره.

وقال داود بن علي الظاهري في كتاب جمعه في فضائل الشافعي: للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه، وصحة دينه ومعتقده، وسخاوة نفسه، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه، وحفظه الكتاب والسنة وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف، وجودة الأصحاب والتلامذة، مثل أحمد بن حنبل في زهده وورعه، وإقامته على السنة. ثم سرد أعيان أصحابه من البغادة والمصريين، وكذا عد أبو داود من جملة تلاميذه في الفقه أحمد بن حنبل.

وقد كان - رحمه الله - من أعلم الناس بمعاني القرآن والسنة، وأشد الناس انتزاعاً للدلائل منهما، وكان من أحسن الناس قصداً وإخلاصاً، كان يقول: وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولا ينسب إلى شيء منه أبداً فأؤجر عليه ولا يحمدوني.

وقد قال غير واحد عنه: إذا صح عندكم الحديث عن رسول الله ﷺ فقولوا به ودعوا قولي، فإني أقول به، وإن لم تسمعوه مني.

وفي رواية فلا تقلدوني.

وفي رواية: فلا تلتفتوا إلى قولي.

وفي رواية: فاضربوا بقولي عرض الحائط، فلا قول لي مع رسول الله ﷺ.

وقال: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء.

وفي رواية: خير له من أن يلقاه بعلم الكلام.

وقال: لو علم الناس ما في علم الكلام من الأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد.

وقال أيضاً: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في القبائل وينادي عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم

الكلام.

وقال البويطي: سمعت الشافعي يقول: عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صواباً.

وكان يقول: إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، جزاهم الله خيراً، حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل.

ومن شعره في هذا المعنى قوله:

كلُّ العلومِ سوى القرآن مشغلةٌ إلا الحديثَ وإلا الفقهَ في الدينِ
العلمُ ما كانَ فيهِ قالَ حدثنا وما سوى ذاكَ وسواسُ الشياطينِ

وكان يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق فهو كافر.

وقد روي عن الربيع وغير واحد من رؤوس أصحابه ما يدل على أنه كان يُجرِّ آياتِ الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف، على طريقة السلف.

وقال ابن خزيمة: أنشدني المزني وقال أنشدنا الشافعي لنفسه:

ما شئتَ كانَ وإنْ لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكنْ
خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ففي العلمِ يجري الفتى والمسنّ
فمنهم شقي ومنهم سعيدٌ ومنهم قبيح ومنهم حسنْ
على ذا منتَ وهذا خذلتَ وهذا أعنتَ وذا لم تعنْ

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبوبكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي.

وعن الربيع قال: أنشدني الشافعي:

قد عوجَ الناسُ حتى أحدثوا بِدَعاً في الدينِ بالرأي لم تبعثْ بها الرسُلُ
حتى استخفَّ بحقِّ اللهِ أكثرهم وفي الذي حملوا من حقهِ شغلُ

وقد ذكرنا من شعره في السُّنة وكلامه فيها وفي الحكم والمواعظ طرفاً صالحاً في الذي كتبناه في أول «طبقات الشافعية».

وقد كانت وفاته بمصر يوم الخميس، وقيل يوم الجمعة، في آخر يوم من رجب سنة أربع ومائتين، وعن أربع وخمسين سنة، وكان أبيض جميلا طويلا مهيباً يخضب بالحناء مخالفاً للشيعة رحمه الله وأكرم مثواه وجعل الجنة مأواه.

وممن توفي فيها أيضاً من الأعيان

■ إسحاق بن الفرات. وأشهب بن عبد العزيز المصري المالكي. والحسن بن زياد اللؤلؤي الكوفي الحنفي. وأبو داود سليمان بن داود الطيالسي صاحب المسند، أحد الحفاظ. وأبو بدر شجاع بن الوليد. وأبو بكر الحنفي. عبد الكبير. وعبد الوهاب بن عطاء الخفاف. والنضر بن شميل أحد أئمة اللغة. وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أحد علماء التاريخ.

ثم دخلت سنة خمس ومائتين

فيها ولّى المأمون طاهر بن الحسين بن مصعب نيابة بغداد والعراق وخراسان إلى أقصى عمل المشرق، ورضي عنه ورفع منزلته جداً، وذلك لمرض الحسن بن سهل بالسواد. وولّى المأمون مكان طاهر على الرقة والجزيرة يحيى بن معاذ. وقدم عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى بغداد في هذه السنة، وكان أبوه قد استخلفه على الرقة وأمره بمقاتلة نصر بن شبث. وولّى المأمون عيسى بن يزيد الجلودي مقاتلة الزط. وولّى عيسى بن محمد بن أبي خالد أذربيجان وإرمينية، وأمره بمحاربة بابك الخرّمي. ومات نائب مصر السري بن الحكم بها.

ونائب السند داود بن يزيد، فولى مكانه بشر بن داود على أن يحمل إليه في كل سنة ألف ألف درهم.

وحج بالناس فيها عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين الشريفين.

وفيها توفي من الأعيان

إسحاق بن منصور السلولي. وبشر بن بكر الدمشقي. وأبو عامر العقدي. ومحمد بن عبيد الطنافسي. ويعقوب الحضري.

و■ أبو سليمان الداراني عبدالرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، وقيل عبد الرحمن بن عسكر أبو سليمان الداراني، أحد أئمة العلماء العاملين، أصله من واسط، وسكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا.

وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة.

وأسند الحافظ ابن عساكر من طريقه قال: سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيع الزاهد يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: سمعت ابن عجلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "من صلى قبل الظهر أربعاً غُفرت ذنوبه يومه ذلك".

وقال أبو القاسم القشيري: حكي عن أبي سليمان الداراني قال: اختلفت إلى مجلس قاصٍّ فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء، فعدت ثانية فأثر كلامه في قلبي بعدما قمت وفي الطريق، ثم عدت ثالثة فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي، فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق، فحكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيّاً - يعني بالعصفور القاص وبالكركي أبا سليمان الداراني.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه من في الأثر، فإذا سمعه من الأثر عمل به وحمد الله حين وافق ما في قلبه فكان نوراً على نور.

وقال الجنيد قال أبو سليمان الداراني: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة. قال: وقال أبو سليمان: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

وقال: لكل شيء علم وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله.

وقال: لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن.

وقال: كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم.

وقال: كنت ليلة في المحراب أدعو وبداي ممدودتان فغلبني البرد فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها، وغلبتني عيني فنمت فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت

الأخرى لوضعنا فيها.

قال: فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان، حراً كان أو برداً.

وقال أبو سليمان: نمت ليلة عن وردي فإذا أنا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أربي لك في الخدور منذ خمسمائة عام؟.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إن في الجنة أنهاراً على شاطئها خيام فيهن الحور، ينشئ الله خلق إحداهنّ إنشاء فإذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهن الخيام، جالسة على كرسي من ذهب ميل في ميل، قد خرجت عجيزتها من جانب الكرسي، فيجيء أهل الجنة من قصورهم يتنزهون على شاطئ تلك الأنهار ما شاؤوا ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن. قال أبو سليمان: كيف يكون في الدنيا حال من يريد افتضاض الأبكار على شاطئ تلك الأنهار في الجنة؟

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد إلاّ الفاتحة بآية واحدة أتفكر في معانيها، ولربما جاءت الآية من القرآن فيطير العقل، فسبحان من يرده بعد!

وسمعته يقول: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

وقال لي يوماً: يا أحمد جوع جوِّع قلبك، وذلّ قلبك، وعَرِّ قلبك، وفقِّر قلبك وصبِّر قلبك، وقد انقضت عنك أيام الدنيا.

وقال أحمد: اشتهى أبو سليمان رغيفاً حاراً بملح فجئته به فعض منه عضة ثم طرحه وأقبل يبكي ويقول: يا رب عجلت لي شهوتي، لقد أطلت جهدي وشقوتي وأنا تائب، فاقبل توبتي فلم يذق الملح حتى لحق بالله عز وجل.

قال: وسمعته يقول: ما رضيت عن نفسي طرفة عين، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يضعوني كأتضاعي عند نفسي ما أحسنوا.

وسمعته يقول: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

وسمعته يقول: إذا تكلّف المتعبُدون أن لا يتكلموا إلا بالإعراب، ذهب الخشوع.

وسمعته يقول: من حسّن ظنه بالله ثم لا يخاف فهو مخدوع.

وقال: ينبغي للخوف أن يكون على العبد أغلب الرجاء، فإذا غلب من الرجاء على الخوف فسد القلب.

وقال لي يوماً: هل فوق الصبر منزلة؟ فقلت: نعم - يعني الرضا - فصرخ صرخة غشي عليه ثم أفاق فقال: إذا كان الصابرون يوفون أجرهم بغير حساب، فما ظنك بالآخرين وهم الذين رضي عنهم.

وقال بعضهم: سمعت أبا سليمان يقول: ما يسرني أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقه في وجوه البر، وأني أغفل عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان: قال زاهد لزاهد: أوصني، فقال: لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، فقال: زدني. فقال: ما عندي زيادة.

وقال أيضاً: من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له.

وقال: إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة، وقال: إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزحمها الآخرة، أن والآخرة كريمة، والدنيا لئيمة.

وقال أحمد بن أبي الحواري: بت ليلة عند أبي سليمان فسمعته يقول: وعزتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنك بعفوك، ولئن طالبتني ببخلي لأطالبنك بسخائك ولئن أمرت بي إلى النار لأخبرن أهل النار أني أحبك.

وكان أبو سليمان يقول: لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي.

وكان يقول: ما خلق الله خلقا أهون عليّ من إبليس، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً، ولو تبدى لي ما لطمت إلا صفحة وجهه.

وقال: إن اللص لا يجيء إلى خربة ينقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أي مكان شاء، وإنما يجيء إلى بيت المعمور، كذلك إبليس لا يجيء إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله عن شيء.

وقال: إذا أخلص العبد انقطع عنه كثرة الوسواس والرياء الوساوس والرؤيا.

وقال: الرؤيا - يعني الجنابة.

وقال: مكثت عشرين سنة لم أحتلم فدخلت سمكه ففاتتني صلاة العشاء في جماعة فاحتلمت تلك الليلة.

وقال: إن من خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف تشتغلون بالدنيا عنه؟.

وقال: الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة فما الزهد فيها، وإنما الزهد في الجنان والحور العين، حتى لا يرى الله في قلبك غيره.

وقال الجنيد: شيء يروى عن أبي سليمان أنا استحسنته كثيراً قوله: من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس.

وقال: خير السخاء ما وافق الحاجة.

وقال أبو سليمان: من طلب الدنيا حالا واستعفافاً عن المسألة واستغناء عن الناس لقي الله يوم يلقاه ووجهه كالقمر ليلة البدر، ومن طلب الدنيا حلالا مفاخراً ومكاثراً لقي الله - عز وجل - يوم يلقاه وهو عليه غضبان. وقد روي نحو هذا مرفوعاً. وقال أبو سليمان: إن قوماً طلبوا الغنى فحسبوا أنه في جمع المال، ألا وإنما الغنى في القناعة، وطلبوا الراحة في الكثرة وإنما الراحة في القلة، وطلبوا الكرامة من الخلق وإنما هي في التقوى، وطلبوا النعمة في اللباس الرقيق اللين، وفي طعام طيب، والنعمة في الإسلام والستر والعافية. وقال: لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في الدنيا وما أحب البقاء في الدنيا لتشقق الأنهار ولا لغرس الأشجار. وإنما أحبها لصيام الهواجر وقيام الليل.

وقال: أهل الطاعة في ليلهم ألذ من أهل اللّهو في لهوهم. وقال: ربما استقبلني الفرح في جوف الليل، وربما رأيت القلب يضحك ضحكاً.

وقال: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم فإذا أنا بها - يعني الحوراء - قد ركضتني برجلها فقالت: حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم؟ بؤساً لعين أثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضاً، فما هذا الرقاد؟! حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أُربيّ لك في الخدور منذ كذا وكذا؟ فوثبت فزعاً وقد عرقت استحياءً من

توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي.

وقال أحمد بن أبي الحواري: دخلت على أبي سليمان فإذا هو يبكي فقلت: ما لك؟ فقال: زجرت البارحة في منامي. قلت: ما الذي حلّ بك؟ قال: بينا أنا قد غفوت في محرابي إذ وقفت على جارية تفوق الدنيا حسناً، وبيدها ورقة وهي تقول: أتنام يا شيخ؟ فقلت: من غلبته عيناه نام قالت: كلا إن طالب الجنة لا ينام، ثم قالت: أتقرأ؟ قلت: نعم، فأخذت الورقة من يدها فإذا فيها مكتوب:

لمثلِ بكَ لذةٌ عنْ حسنِ عيشٍ ... معَ الخيراتِ في غرفِ الجنانِ
تعيشُ مخلداً لا موتَ فيها ... وتنعمُ في الجنانِ معَ الحسانِ
تيقَّظ من منامك إنَّ خيراً ... منَ النومِ التهجدُ بالقرآنِ

وقال أبو سليمان: أما يستحي أحدهم أن يلبس عباءة بثلاثة دراهم وفي قلبه شهوة بخمسة دراهم؟.

وقال أيضاً: لا يجوز لأحد أن يظهر للناس الزهد والشهوات في قلبه، فإذا لم يبق في قلبه شيء من شهوات الدنيا جاز له أن يظهر للناس الزهد بلبس العباء، فإنها علم من أعلام الزهاد، ولو لبس ثوبين أبيضين ليستر بهما أبصار الناس عنه وعن زهده كان أسلم لزهده من لبس العباء.

وقال: إذا رأيت الصوفي يتنوق في لبس الصوف فليس بصوفي. وخيار هذه الأمة أصحاب القطن، أبو بكر الصديق وأصحابه.

وقال غيره: إذا رأيت ضوء الفقير في لباسه فاغسل يديك من فلاحه.

وقال أبو سليمان: إنما الأخ الذي يعظك برؤيته قبل كلامه، وقد كنت أنظر إلى الأخ من أصحابي بالعراق فأنتفع برؤيته شهراً.

وقال أبو سليمان: قال الله تعالى: عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت زلاتك من أم الكتاب ولم أناقشك في الحساب يوم القيامة.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سألت أبا سليمان عن الصبر فقال: والله إنك لا تقدر عليه في الذي تحب فكيف فيما تكره؟.

وقال أحمد: تنهدت عنده يوما فقال: إنك مسؤول عنها يوم القيامة، فإن كانت على ذنب سلف فطوبى لك، وإن كانت على الدنيا فويل لك.

وقال إنما رجع من رجع من الطريق قبل الوصول، ولو وصلوا إلى الله ما رجعوا.

وقال إنما عصى الله من عصاه لهوانهم عليه. ولو كُروا عليه وكرموا لحجزهم عن معاصيه وحال بينهم وبينها.

وقال: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيهم خصالا الكرم والحلم والعلم والحكمة والرقة والرحمة والفضل والصفح والإحسان والبر والعفو واللطف.

وذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «محن المشايخ» أن أبا سليمان الداراني أخرج من دمشق وقالوا: إنه يزعم أنه يرى الملائكة ويكلمونه، فخرج إلى بعض الثغور فرأى بعض أهل دمشق أنه إن لم يرجع إليهم هلكوا. فخرجوا في طلبه وتشفعوا إليه حتى ردوه.

وقد اختلف في وفاته على أقوال فقيل: سنة أربع ومائتين، وقيل سنة خمس ومائتين، وقيل خمس عشرة ومائتين، وقيل: سنة خمس وثلاثين ومائتين فالله أعلم.

وقد قال مروان الطاطري يوم مات أبو سليمان: لقد أصيب به أهل الإسلام كلهم.

قلت: وقد دفن في قرية داريا في قبلتها، وقبره بها مشهور وعليه بناء، وقبلته مسجد بناه الأمير ناهض الدين عمر المهراني، ووقف على المقيمين عنده وقفاً يدخل عليهم منه غلة، وقد جدد مزاره في زماننا هذا ولم أر الحافظ ابن عساكر تعرض لموضع دفنه بالكلية، وهذا منه عجيب.

وروى ابن عساكر عن أحمد بن أبي الحواري قال: كنت أشتهي أن أرى أبا سليمان في المنام فرأيته بعد سنة فقلت: ما فعل الله بك يا معلم؟ فقال: يا أحمد دخلت يوماً من باب الصغير فرأيت جمل شيخ فأخذت منه عوداً فما أدري تخللت به أو رميته، فأنا في حسابه إلى الآن.

وقد توفي ابنه سليمان بعده بنحو من ستين رحمهما الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست ومائتين

فيها ولى المأمون داود بن ماسجور بلاد البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين، وأمره بمحاربة الزط.

وفيها جاء مد كثير فغرّق بلاد أرض السواد وأهلك للناس شيئاً كثيراً.

وفيها ولّى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين الرقة وأمره بمحاربة نصر بن شبث، وذلك أن نائبها يحيى بن معاذ مات وقد كان استخلف مكانه ابنه أحمد فلم يمض ذلك المأمون، واستناب عليها عبد الله بن طاهر لشهامته وبصره بالأمور، وحثه على قتال نصر بن شبث، وقد كتب إليه أبوه من خراسان بكتاب فيه الأمر له بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع الكتاب والسنة، وقد ذكره ابن جرير [تاريخه: ٨/٥٨٢-٥٩١] بطوله، وقد تداوله الناس بينهم واستحسنوه وتهادوه بينهم، حتى بلغ أمره إلى المأمون فأمر فقرىء بين يديه فاستجاده جداً، وأمر أن يكتب به نسخ إلى سائر العمال في الأقاليم.

وحج بالناس في هذه السنة عبيد الله بن الحسن نائب الحرمين.

وفيها توفي من الأعيان

■ إسحاق بن بشر الكاهلي أبو حليفة صاحب كتاب المبتدأ. وحجاج بن محمد الأعور. وداود بن المحبر الذي وضع كتاب العقل. وشبابة بن سوار ومحاضر بن المورّع. وقطرب صاحب «المثلث» في اللغة. ووهب بن جرير. ويزيد بن هارون شيخ الإمام أحمد.

ثم دخلت سنة سبع ومائتين

فيها خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عكّ في اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ﷺ، وذلك لما أن العمّال باليمن أساؤوا السيرة إلى الرعايا، فلما ظهر عبد الرحمن هذا بايعه الناس فلما بلغ أمره إلى المأمون بعث إليه دينار بن عبد الله في جيش كثيف ومعه كتاب أمان لعبد الرحمن هذا إن هو سمع وأطاع! فحضروا الموسم فلما انتهوا إلى عبد الرحمن بعث دينار بكتاب الأمان فقبله وسمع وأطاع، وجاء حتى وضع يده في يد دينار، فسار معه إلى بغداد ولبس السواد فيها.

وفيها توفي

■ طاهر بن الحسين بن مصعب نائب العراق بكمالها، وخراسان

بكمالها وجد في فراشه ميتاً بعد ما صلّى العشاء الآخرة والتف في الفراش، فاستبطأ أهله خروجه لصلاة الفجر فدخل عليه أخوه وعمه فوجداه ميتاً، فلما بلغ موته المأمون قال: لليدين والفم الحمد لله قدمه وأخرنا. وذلك أنه بلغه أن طاهراً خطب يوماً ولم يدع للمأمون فوق المنبر، ومع هذا ولّى ولده عبدالله مكانه مع إضافة أرض الجزيرة والشام إلى نيابته فاستخلف عبد الله على خراسان أخاه طلحة بن طاهر سبع سنين. ثم توفي طلحة فاستقل عبد الله بجميع تلك البلاد، وكان نائبه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وكان طاهر بن الحسين هو الذي انتزع بغداد والعراق من يد الأمين وقتله أيضاً، واستوسق الأمر للمأمون، كما ذكرنا في سنة خمس وتسعين، وقد دخل طاهر يوماً على المأمون فسأله حاجة فقضاها له. ثم نظر إليه المأمون واغرورقت عيناه فقال له طاهر ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ فلم يخبره، فأعطى طاهر حسيناً الخادم مائتي ألف درهم حتى استعلم له مما بكى أمير المؤمنين فقال له: لاتخبر به أحداً [وإلا] أقتلك، ذكرت مقتل أخي وما ناله من الإهانة على يدي طاهر، ووالله لاتفوته مني. فلما تحقق طاهر ذلك سعى في النقلة من بين يديه، ولم يزل حتى ولاه المأمون خراسان وأطلق له خادماً من خدامه، وعهد المأمون إلى الخادم إن رأى منه شيئاً يريبه أن يسمه، ودفع إليه سمّاً لا يطاق. فلما خطب يوم الجمعة طاهر ولم يدع للمأمون سمّه الخادم في كامخ فمات من ليلته.

وقد كان طاهر بن الحسين هذا يقال له ذو اليمينين، وكان بفرد عين. فقال فيه عمرو بن بانة:

يا ذا اليمينين وعين واحده ... نقصان عين وعين زائده

واختلف في معنى كونه ذا اليمينين فقيل لأنه ضرب رجلا بشماله فقده نصفين، ويحتمل أنه لُقب بذلك لأنه ولّي العراق وخراسان.

وقد كان كريماً ممدحاً يحب الشعر ويجزي عليه، ركب يوماً في حرّاقة فقال فيه شاعر:

عجبت لحرّاقة ابن الحسين ... لاغرقت كيف لا تغرق

وبحران من فوقها واحد ... وآخر من تحتها مطبق

وأعجب من ذلك أعوادها ... وقد مسّها كيف لا تورق

فأجازه بثلاثة آلاف دينار. وقال إن زدتنا زدناك.

قال ابن خلكان: وما أحسن ما قاله بعض الشعراء في بعض الرؤساء وقد ركب البحر:

ولما امتطى البحر ابتهلت تضرعاً ... إلى الله يا مجري الرياح بلطفه

جعلت الندى من كفه مثل موجه ... فسلمه واجعل موجه مثل كفه

وقال القاضي ابن خلكان: مات طاهر بن الحسين هذا يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخرة سنة سبع ومائتين، وكان مولده سنة تسع وخمسين ومائة، وكان الذي سار إلى ولده عبد الله بن طاهر وهو بأرض الرقة يعزيه في أبيه ويهنيه بولاية تلك البلاد، القاضي يحيى بن أكثم عن أمر المأمون.

وفي هذه السنة غلا السعر ببغداد والكوفة والبصرة، حتى بلغ سعر القفيز من الحنطة أربعين درهماً.

وفيها حج بالناس في هذه السنة أبو علي بن الرشيد أخو المأمون.

وفيها توفي من الأعيان

■ **بشر بن عمر الزهراني، وجعفر بن عون، وعبد الصمد بن عبد الوارث، وقراد أبو نوح، وكثير بن هشام، ومحمد بن كناسة، ومحمد بن عمر الواقدي** قاضي بغداد وصاحب السير والمغازي، **وأبو النضر هاشم بن القاسم، والهيثم بن عدي** صاحب التصانيف.

■ **يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور:** أبو زكريا الكوفي نزيل بغداد مولى بني سعد المشهور بالفراء شيخ النحاة واللغويين والقراء، كان يقال له أمير المؤمنين في النحو.

وروى الحديث عن خازم بن الحسين البصري عن مالك بن دينار عن أنس بن مالك. قال: «قرأ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان ﴿مالك يوم الدين﴾ بالألف» رواه الخطيب [تاريخ بغداد: ١٤/١٤٩] قال: وكان ثقة إماماً.

وذكر أن المأمون أمره بوضع كتاب في النحو فأملاه وكتبه الناس عنه، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، وأنه كان يؤدب ولديه ولي العهد، فقام يوماً فابتدراه أيهما يقدم نعليه، فتنازعا في ذلك ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما نعلا، فأطلق لهما أبوهما عشرين ألف دينار، وللفراء عشرة آلاف درهم. وقال له: لا أعز منك إذ يقدم نعليك ولي العهد.

وروى أن بشراً المريسي أو محمد بن الحسن سأل الفراء عن رجل سها في سجدتي السهو فقال: لا شيء عليه، قال: ولم؟ قال: لأن أصحابنا قالوا المصغّر لا يصغّر. فقال: ما ظننت أن امرأة تلد مثلك.

والمشهور أن محمداً هو الذي سأله عن ذلك وكان ابن خالة الفراء.

وقال أبو بكر بن محمد بن يحيى الصولي: توفي الفراء سنة سبع ومائتين.

قال الخطيب: كانت وفاته ببغداد، وقيل بطريق مكة، وقد امتدحوه وأثنوا عليه في مصنفاته.

ثم دخلت سنة ثمان ومائتين

فيها ذهب الحسن بن الحسين بن مصعب أخو طاهر فاراً من خراسان إلى كرمان فعصى بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد فحاصره حتى نزل قهراً، فذهب به إلى المأمون فعفا عنه فاستحسن ذلك منه.

وفيها استعفى محمد بن سماعة من القضاء فأعفاه المأمون وولّى مكانه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة.

وفيها ولّى المأمون محمد بن عبد الرحمن المخزومي القضاء بعسكر المهدي في شهر المحرم، ثم عزله عن قريب وولّى مكانه بشر بن الوليد الكندي في شهر ربيع الأول منها. فقال المخزومي في ذلك:

ألا أيها الملك الموحّد ربّه ... قاضيك بشرُ بن الوليد حمارُ

ينفي شهادة من يدين بما به ... نطق الكتابُ وجاءت الأخبارُ

ويعدّ عدلا من يقولُ بأنه ... شيخٌ يحيطُ بجسمه الأقطارُ

وفيها حج بالناس صالح بن هارون الرشيد عن أمر أخيه المأمون.

وفيها توفي من الأعيان

■ **الأسود بن عامر. وسعيد بن عامر. وعبد الله بن بكر** أحد مشايخ

الحديث. والفضل بن الربيع الحاجب. ومحمد بن مصعب. وموسى بن محمد الأمين الذي كان قد ولاه العهد من بعده ولقبه بالناطق بالحقّ فلم يتم له أمره حتى قتل أبوه وكان ما كان كما تقدم. ويحيى بن أبي بكر.، ويحيى بن حسان.، ويعقوب بن إبراهيم الزهري. ويونس بن محمد المؤدب.

وفاة السيدة

■ نفيسة:

وهي بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، القرشية الهاشمية، كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين، ثم غضب عليه أبو جعفر المنصور فعزله عنها وأخذ منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها، وأودعه السجن ببغداد. فلم يزل به حتى توفي المنصور فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان وستين ومائة. فلما كان بالحاجر توفي الحسن بن زيد عن خمس وثمانين سنة.

وقد روى له النسائي [كبرى (٣٢١٥)] حديثه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرم.

وقد ضعفه ابن معين وابن عدي، ووثقه ابن حبان. وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته.

والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار المصرية مع زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر الصادق، فأقامت بها وكانت ذات مال وإحسان إلى الناس والجذمى والزمنى والمرضى وعموم الناس، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير.

ولما ورد الشافعي الديار المصرية كانت تحسن إليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان. وحين توفي أمرت بجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت عليه. ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فمنعه أهل مصر من ذلك وسألوه أن يتركها عندهم، فدفنت في المنزل الذي كان تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب السباع بين مصر والقاهرة اليوم، وقد بادت تلك المحلة فلم يبق سوى قبرها وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان [وفيات الأعيان: ٥/٤٢٤].

قال: ولأهل مصر فيها اعتقاد.

قلت: وإلى الآن وقد بالغ العامة أمرها كثيراً جداً، ولا سيما عوام مصر فإنهم يطلقون فيها عبارات بشعة فيها مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك، وألفاظاً كثيرة ينبغي ان يعرفوا أنها لا يجوز إطلاقها في مثل أمرها . وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته. والذي ينبغي أن يعتقد فيها من الصلاح ما يليق بمثلها من النساء الصالحات، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام. ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك. رحمها الله وأكرمها وجعل الجنة منزلها.

■ الفضل بن الربيع: بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كيسان مولى عثمان بن عفان، الذي كان زوال دولة البرامكة على يديه، وقد وزر مرة للرشيد كان الفضل هذا متمكنا من الرشيد، وكان شديد التشبه بالبرامكة، وكانوا يستهينون به، فلم يزل يعمل جهده فيهم حتى هلكو كما تقدم.

وذكر ابن خلكان أن الفضل هذا دخل يوماً على يحيى بن خالد وابنه جعفر يوقع بين يديه، ومع الفضل عشر قصص فلم يقض له منها واحدة بل يتعلل عليه في كل واحدة منها، فجمعهن الفضل بن الربيع وقال: ارجعن خائبات خاسئات ثم نهض وهو يقول:

عسى وعَسى يَثني الزمانُ عِنانه بتصريفِ حالٍ والزمانُ عثورُ
فتُقضى لبانات وتشفى حسائف وتحدث من بعد الأمور أمور

فسمعه الوزير يحيى بن خالد فقال له: أقسمت عليك لما رجعت، فأخذ منه القصص فوقع عليها. ثم لم يزل يحفر خلفهم حتى تمكن منهم وتولى الوزارة بعدهم، وفي ذلك يقول أبو نواس:

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهراً لم يرعُ عهداً ليحيى غير راع ذمام آل الربيع

ثم وزر من بعد الرشيد لابنه الأمين فلما دخل المأمون بغداد اختفى فأرسل له المأمون أماناً فخرج فجاء فدخل على المأمون بعد اختفاء مدة فأمنه، ولم يزل خاملا حتى مات في هذه السنة، وله ثمان وستون سنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة تسع ومائتين

فيها حصر عبد الله بن طاهر نصر بن شبث بعدما حاربه خمس سنين فلما حصره في هذه السنة وضيق عليه جداً حتى ألجأه إلى أن طلب منه الأمان، فكتب ابن طاهر إلى المأمون يعلمه بذلك، فأرسل إليه أن يكتب له أماناً عن أمير المؤمنين، فكتب له كتاب أمان فنزل فأمر عبد الله بتخريب المدينة التي كان متحصناً بها، وذهب شره.

وفيها جرت حروب مع بابك الخرمي فأسر بابك بعض أمراء الإسلام وأحد مقدمي العساكر، فاشتد ذلك على المسلمين.

وفيها حج بالناس صالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو والي مكة.

وفيها توفي ملك الروم

■ ميخائيل بن جرجس وكان له عليهم تسع سنين، فملكوا عليهم ابنه توفيل بن ميخائيل.

وفيها توفي من مشايخ الحديث

■ الحسن بن موسى الأشيب، وأبو علي الحنفي، وحفص بن عبد الله قاضي نيسابور. وعثمان بن عمر بن فارس. ويعلى بن عبيد الطنافسي.

ثم دخلت سنة عشر ومائتين

في صفر منها دخل نصر بن شبث إلى بغداد، بعثه عبد الله بن طاهر من الرقة فدخلها ولم يتلقّه أحد من الجند بل دخلها وحده، فأنزل في مدينة أبي جعفر ثم حول إلى موضع آخر.

وفي هذا الشهر ظفر المأمون بجماعة من كبراء من كان بايع إبراهيم بن المهدي فعاقبهم وحبسهم في المطبق.

ظهور إبراهيم بن المهدي بعد اختفائه

ولما كان ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر اجتاز إبراهيم بن المهدي - وكان مختفياً مدة ست سنين وشهوراً متنقباً في زي امرأة ومعه امرأتان - في بعض دروب بغداد في أثناء الليل، فقام الحارس فقال: إلى أين هذه الساعة؟ ومن أين؟ ثم أراد أن يمسكهن فأعطاه إبراهيم خاتماً كان في يده من ياقوت، فلما نظر إليه الحارس استراب وقال: إنما هذا خاتم رجل كبير الشأن، فذهب بهن إلى متولي الليل فأمرهن أن يسفرن عن وجوههن، فتمنع إبراهيم فكشفوا عن وجهه فإذا هو هو، فعرفه فذهب به إلى صاحب الحرس فسلمه إليه فرفعه الآخر إلى باب المأمون، فأصبح في دار الخلافة ونقابه على رأسه والملحفة في صدره ليراه الناس، وليعلموا كيف أخذ. فأمر المأمون بالاحتفاظ به والاحتراس عليه مدة، ثم أطلقه ورضي عنه. هذا وقد صلب جماعة ممن كان سجنهم بسببه لكونهم أرادوا الفتك بالموكلين بالسجن، فصلب منهم أربعة.

وقد ذكروا أن إبراهيم بن المهدي لما وقف بين يدي المأمون شرع في تأنيبه فترقق له عمه إبراهيم كثيراً، وقال: يا أمير المؤمنين إن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك. فقال: بل أعفو يا إبراهيم إن القدرة تذهب الحفيظة، والندم توبة وبينهما عفو الله عز وجل، وهو أكبر مما تسأله، فكبر إبراهيم وسجد شكراً لله عز وجل.

وقد امتدح إبراهيم بن المهدي ابن أخيه المأمون بقصيدة بالغ فيها، فلما سمعها المأمون قال: أقول كما قال يوسف لأخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وذكر ابن عساكر أن المأمون لما عفا عن عمه إبراهيم أمره أن يغنيه شيئاً فقال: إني تركته. فأمره فأخذ العود في حجره وقال:

هذا مقامُ مسوّدٍ خربت منازلُهُ ودوره ... نَمت عليه عداته كذباً فعاقبه أميرُه

ثم عاد فقال:

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبت عني ... لوى الدهر بي عنها وولّى بها عني

فإن أبك نفسي أبك نفساً عزيزةً ... وإن أحتقرها أحتقرها على ضنّي

وإني وإن كنتُ المسيءَ بعينه ... بربي تعالى جدُّه حسن الظنّ

عدوت على نفسي فعاد بعفوه ... عليَّ فعاد العفو مَنّاً على منّ

فقال المأمون: أحسنت يا أمير المؤمنين حقّاً، فرمى العود من حجره ووثب قائماً فزعاً من هذا الكلام، فقال له المأمون: اقعد واسكن مرحباً بك، لم يكن ذلك لشيء تتوهمه، ووالله لا رأيت طول أيامي شيئاً تكرهه وتغتمّ به. ثم أمر له برد جميع ما كان له من الأموال والضياع والدور فردت إليه، وأمر له بعشرة الآف دينار وخلع عليه، وخرج من عنده مكرماً معظماً.

عرس بوران

وفي رمضان منها بنى المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل، وقيل إنه خرج من بغداد في رمضان إلى معسكر الحسن بن سهل بفم الصلح، وكان الحسن قد عوفي من مرضه ذلك، فنزل المأمون عنده بمن معه من وجوه الأمراء والرؤساء وأكابر بني هاشم، فدخل ببوران في شوّال من هذه السنة في ليلة عظيمة وقد أشعلت بين يديه شموع العنبر، ونثر على رأسه الدر والجوهر، فوق حصر منسوجة بالذهب الأحمر. وكان عدد الجوهر منه ألف درة، فأمر به فجمع في صينية من ذهب كان الجوهر فيها فقالوا: يا أمير المؤمنين إنما نثرناه لتلتقطه الجواري، فقال: لا أنا أعوضهن خيراً من ذلك. فجمع ذلك كله، فلما جاءت العروس ومعها جدتها وزبيدة أم أخيه الأمين - من جملة من جاء معها - فأجلست إلى جانبه فصب في حجرها ذلك الجوهر وقال لها: هذه نحلة مني إليك وسلي حاجتك، فأطرقت حياء فقالت جدتها: كلمي سيدك وسليه حاجتك فقد أمرك. فقالت: يا أمير المؤمنين أسألك أن ترضى عن عمك إبراهيم بن المهدي، وأن ترده إلى منزلته التي كان فيها قبل ذلك، فقال: نعم! فقالت: وأم جعفر - تعني زبيدة - تأذن لها في الحج، قال نعم! فخلعت عليها زبيدة بذلتها الأموية وأطلقت له قرية مقورة.

وأما والد العروس الحسن بن سهل فإنه كتب أسماء قراه وضياعه وأملاكه في رقاع ونثرها على الأمراء ووجوه الناس، فمن وقعت في يده منها رقعة بعث إلى القرية التي فيها نوابه فسلموها إليه ملكاً خالصاً. وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش في مدة إقامته عنده سبعة عشر يوما ما يعادل خمسين ألف ألف درهم. ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة آلاف ألف درهم، وأقطعه البلده الذي هو نازل بها، وهو إقليم فم الصلح مضافاً إلى ما بيده من الإقطاعات.

ورجع المأمون إلى بغداد في أواخر شوال من هذه السنة.

وفي هذه السنة ركب عبد الله بن طاهر إلى الديار المصرية فاستنقذها بأمر المأمون من يد عبيد الله بن السري بن الحكم المتغلب عليها، واستعادها منه بعد حروب يطول ذكرها.

وفيها توفي من الأعيان

أبو عمرو الشيباني اللغوي واسمه إسحاق بن مرار. ومروان بن محمد الطاطري. ويحيى بن إسحاق والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة ومائتين

وفيها توفي من الأعيان

■ أبو الجواب. وطلق بن غنام. وعبد الرزاق بن همام الصنعاني صاحب المصنف والمسند. وعبد الله بن صالح العجلي.

■ أبو العتاهية الشاعر المشهور: واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أصله من الحجاز، وسكن بغداد، وكان يبيع الجرار أولاً، ثم حظي عند الخلفاء، لا سيما المهدي وقد كان يعشق جارية للمهدي اسمها عتبة. وقد طلبها من الخليفة غير مرة فإذا سمح له بها لا تريده الجارية، وتقول للخليفة: أتعطيني لرجل دميم الخلق كان يبيع الجرار؟ فكان يكثر التغزل فيها، وشاع أمره واشتهر بها، وكان المهدي يفهم ذلك منه. وقد اتفق في بعض الأحيان أن المهدي استدعى الشعراء إلى مجلسه فاجتمعوا، وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد الأعمى، فسمع صوت أبي العتاهية. فقال بشار لجليسه: أثم ههنا أبو العتاهية؟ قال: نعم، فوَجَم لها بشار، ثم استنشد المهدي أبا العتاهية فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها:

ألا ما لسيدتي ما لها ... أدلت فباحل إدلالها

فقال بشار لجليسه: ما رأيت أجسر من هذا. حتى انتهى أبو العتاهية إلى قوله:

أتته الخلافة منقادة ... إليه تجر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ... ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب ... لما قبل الله أعمالها

فقال بشار لجليسه: انظر ويحك أطار الخليفة عن فراشه أم لا؟ قال: فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره.

قال ابن خلكان: اجتمع أبو العتاهية بأبي نواس - وكان في طبقته وطبقة بشار فقال أبو العتاهية لأبي نواس: كم تعمل في اليوم من الشعر؟ قال: بيتاً أو بيتين. فقال: لكني أعمل المائة والمائتين. فقال أبو نواس: لأنك تعمل مثل قولك:

يا عُتْبُ ما لي ولك ... يا ليتني لم أرك

ولو أردت أنا مثل هذا الألف والألفين لقدرت عليه وأنا أعمل مثل قولي:

من كفّ ذات حر في زيّ ذي ذكرَ ... لها محبّان لوطيّ وزُنّاءُ

ولو أردت مثل هذا لأعجزك الدهر.

قال ابن خلكان: ومن لطيف شعر أبي العتاهية:

ولقد صبّوت إليك حتى ... صرت من فرط التصابي

يجد الجليس إذا دنا ... ريح التصابي في ثيابي

قال ابن خلكان: وأشعاره كثيرة وكان مولده سنة ثلاثين ومائة. وتوفي يوم الاثنين ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة وقيل ثلاث عشرة ومائتين، وأوصى أن يكتب على قبره ببغداد:

إن عيشاً يكون آخره الموت لعيش معجل التنغيص

ثم دخلت سنة اثنتي عشرة ومائتين

فيها وجه المأمون محمد بن حميد الطوسي على طريق الموصل لمحاربة بابك الخرمي في أرض أذربيجان، فأخذ جماعة من المتغلبين فيها، فبعث بهم إلى المأمون أسراء إلى بغداد.

وفي ربيع الأول أظهر المأمون في الناس بدعتين فظيعتين إحداهما أطم من الأخرى، وهي القول بخلق القرآن، والثانية تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله ﷺ وقد أخطأ في كل من هذين المذهبين خطأ كبيراً فاحشاً، وأثم إثما عظيماً ومن العلماء من يقول بخلق القرآن، كما سيأتي ذلك في موضعه.

وفيها حج بالناس عبد الله بن عبيد الله بن العباس العباسي.

وفيها توفي

■ **أسد بن موسى** الذي يقال له أسد السنة، والحسين بن جعفر. **وأبو عاصم النبيل** واسمه الضحاك بن مخلد. **وأبو المغيرة** عبد القدوس بن الحجاج الشامي الدمشقي. **ومحمد بن يونس الفريابي** شيخ البخاري.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين

فيها ثار رجلان بمصر، وهما عبد السلام وابن جليس فخلعا المأمون واستحوذا على الديار المصرية، وبايعهما طائفة من القيسية واليمانية، فولى المأمون أخاه أبا إسحاق نيابة الشام، وولى ابنه العباس نيابة الجزيرة والثغور والعواصم، وأطلق لكل منهما ولعبد الله بن طاهر ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار. فلم ير يوماً أكثر إطلاقاً منه، أطلق فيه لهؤلاء الأمراء الثلاثة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار.

وفيها ولى المأمون السند غسان بن عباد.

وحج بالناس فيها أمير السنة الماضية رضي الله عنه.

وفيها توفي من الأعيان

■ **عبد الله بن داود الخُريبي.** وعبد الله بن يزيد المقرئ البصري. **وعبد الله بن موسى العبسي. وعمرو بن أبي سلمة** الدمشقي.

وحكى ابن خلكان في «الوفيات» [٤٣/١] عن بعضهم أن في هذه السنة توفي

إبراهيم بن ماهان الموصلي النديم. **وأبو العتاهية. وأبو عمرو الشيباني** النحوي في يوم واحد ببغداد. ولكنه صحح أن إبراهيم النديم توفي سنة ثمان وثمانين ومائة.

قال السهيلي: في هذه السنة توفي

■ **عبد الملك بن هشام** راوي السيرة عن ابن إسحاق حكاه ابن خلكان عنه، والصحيح أنه توفي في سنة ثماني عشرة ومائتين كما نص عليه أبو سعيد بن يونس في تاريخ مصر.

■ **العكوك الشاعر:** أبو الحسن بن علي بن جبلة بن المسلم بن عبد الرحمن الخراساني ويلقب بالعكوك، لقصره وسمنه وكان من الموالي وولد أعمى وقيل بل أصابه جدري وهو ابن سبع سنين فعمي، وكان أسود أبرص، وكان شاعراً مطبقاً فصيحاً بليغاً، وقد أثنى عليه في شعره الجاحظ فمن بعده.

قال الجاحظ: ما رأيت بدوياً ولا حضرياً أحسن إنشاداً منه. فمن ذلك قوله:

بأبي من زارني مكتتماً ... خائفاً من كل شيء جَزِعَا

زائر ثمّ عليه حسنه ... كيف يخفي الليلُ بدراً طَلَعَا

رصدَ الغفلة حتى أمكنت ... ورعى السامرَ حتى هَجَعَا

رَكِبَ الأهوالَ في زَوْرَتِهِ ... ثم ما سَلِمَ حتى وَدَّعَا

وهو القائل في أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي يمتدحه:

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ ... بين مغزاه ومحتضرهْ

فإذا ولّى أبو دلفٍ ... ولت الدنيا على أثرهْ

كلّ من في الأرض من عَرَبٍ ... بين باديه إلى حضرهْ

مستعيرٌ منك مكرمةً ... يلبسها يوم مُفتخرهْ

ولما بلغ المأمون هذه الأبيات - وهي في قصيدة طويلة - عارض فيها

أبا نواس الحسن بن هانئ فتطلبه المأمون فهرب منه ثم أحضر بين يديه فقال له: ويحك فضلت القاسم بن عيسى علينا. فقال: يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت اصطفاكم الله من بين عباده، وآتاكم ملكاً عظيماً، وإنما فضلته على أشكاله وأقرانه. فقال: والله ما أبقيت أحداً ولقد أدخلتنا في الكلّ حيث تقول:

كلّ من في الأرض من عرب

البيتين ومع هذا فلا أستحل قتلك بهذا، ولكن بشركك وكفرك حيث تقول في عبد ذليل:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال

ذاك الله يفعله، أخرجوا لسانه من قفاه، فأخرجوا لسانه من قفاه، فمات في هذه السنة سامحه الله.

وقد امتدح حميد بن عبد الحميد الطوسي:

إنما الدنيا حميد ... وأياديه الجسام
فإذا ولى حميد ... فعلى الدنيا السلام

وقوله:

تكفّلَ ساكني الدنيا حميدٌ ... فقد أضحوا له فيها عيالا
كأنّ أباه آدم كان أوصى ... إليه أن يَعُولَهم فَعَالا

ولما مات حميد هذا في سنة عشر مع المأمون بفم الصلح، قال العَكّوك - يرثيه قصيدة؛ منها قوله:

فأدّبنا ما أدّب الناسَ قبلنا ... ولكنه لم يبقَ للصبر موضعُ

وقال أبو العتاهية يرثي حميداً هذا:

أبا غانم أما ذراك فواسع ... وقبرك معمور الجوانب عكم
وما ينفع المقبور عمران قبره ... إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقد أورد ابن خلكان لعكوك هذا أشعاراً جيدة تركناها اختصاراً

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائتين

في يوم السبت لخمس بقين من ربيع الأول منها التقى محمد بن حميد وبابك الخرمي لعنه الله، فقتل الخرمي خلقاً كثيراً من جيشه، وقتله أيضاً وانهزم بقية أصحاب ابن حميد، فإنّا لله وانا إليه راجعون فبعث المأمون إسحاق بن إبراهيم ويحيى بن أكثم إلى عبد الله بن طاهر يخيرانه بين خراسان، ونيابة الجبال وأذربيجان وأرمينية ولمحاربة بابك الخرميّ، فاختار المقام بخراسان لكثرة احتياجها إلى الضبط، وللخوف من ظهور الخوارج بها.

وفيها دخل أبو إسحاق بن الرشيد الديار المصرية ففتحها واستعادها إلى السمع والطاعة، وظفر بعبد السلام وابن جليس وقتلهما.

وفيها خرج رجل يقال له بلال الضبابي الشاري فبعث إليه المأمون ابنه العباس في جماعة من الأمراء فقتلوا بلالا وعادوا سالمين.

وفيها ولّى المأمون علي بن هشام الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان.

وفيها حج بالناس إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

وفيها توفي من الأعيان

أحمد بن خالد الوهبي وحسن بن محمد المروزي شيخ الإمام أحمد. وعبد الله بن الحكم المصري. ومعاوية بن عمرو.

■ أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح: أبو جعفر الكاتب ولي ديوان الرسائل للمأمون. ترجمه ابن عساكر وأورد من شعره قوله:

قد يرزق المرء لا من حسن حيلته ... ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الدّاهي
ما مسّني من غنى يوماً ولا عدم ... إلا وقولي عليه الحمد للّه

وله أيضاً:

إذا قلت في شيء نعم فأتمه ... فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل لا؛ تسترحْ وتُرحْ بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب

وله:

إذا المرء أفشى سره بلسانه ... فلام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه ... فصدر الذي استودعَه السر أضيقُ

أبو محمد

■ عبد الله بن أعين بن ليث بن رافع المصري: أحد من قرأ الموطأ على الإمام مالك وتفقه بمذهبه. وكان معظما ببلاد مصر، وله بها ثروة وأموال وافرة. وحين قدم الشافعي مصر أعطاه ألف دينار، وجمع له من أصحابه ألفي دينار، أخرى.

وهو والد محمد بن عبد الله بن الحكم الذي صحب الشافعي. ولما توفي في هذه السنة دفن إلى جانب قبر الشافعي. ولما توفي ابنه عبد الرحمن دفن إلى جانب أبيه من القبلة.

قال ابن خلكان فهي ثلاثة أقبر الشافعي شاميها. وهما قبلته. رحمهم الله.

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين

في أواخر المحرم منها ركب المأمون في العساكر من بغداد قاصداً بلاد الروم لغزوهم. واستخلف على بغداد وأعمالها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فلما كان بتكريت تلقاه محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من المدينة النبوية. فأذن له المأمون في الدخول على ابنته أم الفضل بنت المأمون. وكان معقود العقد عليها في حياة أبيه علي بن موسى، فدخل بها، وأخذها معه إلى بلاد الحجاز. وتلقاه أخوه أبو إسحاق بن الرشيد من الديار المصرية قبل وصوله إلى الموصل. وسار المأمون في جحافل كثيرة إلى بلاد طرسوس فدخلها في جمادى الأولى، وفتح حصناً هناك عنوة وأمر بهدمه، ثم رجع المأمون من بلاد الروم إلى دمشق فنزلها وعمر دير مران بسفح قاسيون، وأقام بدمشق مدة.

وحج بالناس فيها عبد الله بن عبيدالله بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي.

وفيها توفي من الأعيان

■ أبو زيد الأنصاري وأبو سليمان الداراني ومحمد بن عبد الله الأنصاري. ومحمد بن المبارك الصوري. وقبيصة بن عقبة. وعلي بن الحسن بن شقيق. ومكي بن إبراهيم.

فأما

■ أبو زيد الأنصاري: فهو سعيد بن أوس بن ثابت البصري اللغوي أحد الثقات الاثبات ويقال إنه كان يرى القدر.

قال أبو عثمان المازني: رأيت الأصمعي جاء إلى مجلس أبي زيد الأنصاري فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال: أنت رئيسنا وسيدنا منذ خمسين سنة.

قال ابن خلكان: وله مصنفات كثيرة، منها «خلق الإنسان»، و«كتاب الإبل»، وكتاب «المياه»، وكتاب «القوس» و «الترس»، وغير ذلك.

توفي في هذه السنة، وقيل في التي قبلها أو التي بعدها، وقد جاوز التسعين، وقيل إنه قارب المائة.

وأما أبو سليمان فقد قدمنا ترجمته.

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائتين

في هذه السنة عدا ملك الروم وهو توفيل بن ميخائيل فقتل جماعة من المسلمين في أرض طرسوس نحواً من ألف وستمائة إنسان ويقال إنه أيضاً كتب إلى المأمون فبدأ بنفسه، فلما قرأ المأمون كتابه نهض من فوره فركب في الجيوش إلى بلاد الروم عوداً على بدء وصحبته أخوه أبو إسحاق بن الرشيد نائب الشام ومصر، ففتح بلداناً كثيرة صلحاً وعنوة، وافتتح أخوه ثلاثين حصناً، وبعث المأمون يحيى بن أكثم في سرية إلى طوانة ففتح بلاداً كثيرة وأسر خلقاً من الذراري وغيرهم، وقتل خلقاً من الروم وحرق حصوناً عدة، ثم عاد سالماً مؤيداً إلى العسكر. وأقام المأمون ببلاد الروم من نصف جمادى الآخرة إلى نصف شعبان، ثم عاد إلى دمشق وقد وثب رجل يقال له عبدوس الفهري في شعبان من هذه السنة ببلاد مصر، فتغلب على نواب أبي إسحاق بن الرشيد وقويت شوكته واتبعه خلق كثير، فركب المأمون من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة إلى الديار المصرية، فكان من أمره ما سنذكره.

وفيها كتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد وما والاها من البلاد يأمره أن يأمر الناس بالتكبير عقيب الصلوات الخمس، فكان أول ما بدىء به في جامع المدينة والرصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان من هذه السنة، وذلك أنهم كانوا إذا قضوا الصلاة قام الناس قياماً فكّبروا ثلاث تكبيرات، ثم استمروا على ذلك في بقية الصلوات. وهذه بدعة أحدثها المأمون أيضاً بلا مستند ولا دليل ولا معتمد، فإن هذا لم يفعله قبله أحد، ولكن ثبت في الصحيح [خ (٨٤١)، م (٥٨٣)] عن ابن عباس أن رفع الصوت بالذكر كان على عهد رسول الله ﷺ ليعلم حين ينصرف الناس من المكتوبة، وقد استحب هذا طائفة من العلماء كابن حزم وغيره.

وقال ابن بطال [مسلم بشرح النووي: ٨٤/٥، فتح الباري: ٣٢٥/٢، ٣٢٦]: المذاهب الأربعة وغيرهم على عدم استحبابه.

قال النووي [مسلم بشرح النووي: ٨٤/٥]: وقد رُوي عن الشافعي أنه قال: إنما كان ذلك ليعلم الناس أن الذكر بعد الصلوات مشروع، فلما علم ذلك لم يبق للجهر معنىً.

وهذا كما روي عن ابن عباس [خ (١٣٣٥)، د (٣١٩٨)، ت(١٠٢٧)] أنه كان يجهر بالفاتحة في صلاة الجنازة ليعلم الناس أنها سنة، ولهذا نظائر والله أعلم.

وأما هذه البدعة التي أمر بها المأمون فإنها بدعة محدثة لم يعمل بها أحد من السلف.

وفيها وقع برد شديد جداً.

وفيها حج بالناس الذي حج بهم في العام الماضي، وقيل غيره والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

حبان بن هلال. وعبد الملك بن قريب الأصمعي صاحب اللغة والنحو والشعر وغير ذلك. ومحمد بن بكار بن بلال. وهوذة بن خليفة.

زبيدة امرأة هارون الرشيد وابنة عمه

■ (زبيدة امرأة هارون)

وهي ابنة جعفر أمّه العزيز الملقبة بزبيدة بنت جعفر بن المنصور القرشية الهاشمية العباسية، امرأة هارون الرشيد وأحب الناس إليه في زمانها، مع ما كان معها من الحظايا والزوجات كما ذكرنا ذلك في ترجمته، وإنما لقبت زبيدة لأن جدها أبا جعفر المنصور كان يلاعبها ويرقصها وهي صغيرة ويقول: إنما أنت زبيدة، لبياضها، فغلب ذلك عليها فلا تعرف إلا به، وأصل اسمها أمة العزيز.

كانت من الجمال والمال والخير والديانة على جانب، ولها من الصدقات والأوقاف ووجوه القربات شيء كثير.

وروى الخطيب البغدادي أنها حجت فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم، وأنها لما هنأت المأمون بالخلافة حين دخل بغداد قالت له: لقد هنأت نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنت فقدت ابنا خليفة لقد عوضت ابنا خليفة لم ألده، وما خسر من اعتاض مثلك، ولا ثكلت أم ملأت يدها منك، وأنا أسأل الله أجراً على ما أخذ، وإمتاعاً بما عوض. وذكر أنها توفيت ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين.

ثم قال الخطيب: حدثني الحسين بن محمد الخلال لفظاً قال: وجد بخط أبي الفتح القواس قال حدثنا صدقة بن هبيرة الموصلي حدثنا محمد بن عبد الله الواسطي قال: قال عبد الله بن المبارك الزَّمِن: رأيت زبيدة في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة. قلت: فما هذه الصفرة في وجهك؟ قالت: دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسي زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدي فهذه الصفرة من تلك الزفرة.

وذكر القاضي ابن خلكان أنه كان لها مائة جارية كلهن يحفظن القرآن العظيم، غير من قرأ منه ما قدر له وغير من لم يقرأ، وكان يسمع لهن في القصر دوي كدوي النحل، وكان ورد كل واحدة عشر القرآن، وورد أنها رئيت في المنام فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات وما عملته في طريق الحج فقالت: ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعهن في السحر.

وفيها جرت حوادث وأمور يطول ذكرها.

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين

في المحرم منها دخل المأمون الديار المصرية وظفر بعبدوس الفهري فأمر فضربت عنقه، ثم كر راجعاً إلى الشام.

وفيها ركب المأمون إلى بلاد الروم أيضاً فحاصر لؤلؤة مائة يوم، ثم ارتحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً فخدعته الروم فأسروه فأقام في أيديهم ثمانية أيام، ثم انفلت من أيديهم واستمر محاصراً لهم، فجاء ملك الروم بنفسه فأحاط بجيشه من ورائه، فبلغ المأمون فسار إليه، فلما أحس توفيل بقدومه انصرف هارباً من وجهه وبعث إليه الوزير الذي يقال له: الصُّغل فسأله الأمان والمصالحة والمهادنة، ولكنه بدأ بنفسه في كتابة إلى المأمون المأمون فرد عليه المأمون كتاباً بليغاً مضمونه التقريع والتوبيخ، وإنما أقبل منك الدخول في الحنيفية وإلا فالسيف والقتل والسلام على من اتبع الهدى.

وفيها حج بالناس سليمان بن عبد الله بن سليمان بن علي.

وفيها توفي من الأعيان

■ حجاج بن منهال، وسُريج بن النعمان. وموسى بن داود الضبي والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان عشرة ومائتين

في أول يوم من جمادى منها وجه المأمون ابنه العباس إلى بلاد الروم لبناء الطوانة وتجديد عمارتها. وبعث إلى سائر الأقاليم والآفاق في تجهيز الفعلة من كل بلد إليها، من مصر والشام والعراق، فاجتمع عليها خلق كثير لا يعلمهم إلاّ الله عز وجل، وأمره أن يجعلها ميلا في ميل، وأن يجعل سورها ثلاث فراسخ، وأن يجعل لها ثلاثة أبواب عند كل باب حصن.

ذكر أول المحنة والفتنة

في هذه السنة كتب المأمون إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم، وكتب إليه يستحثه في كتاب مطول وكتب غيره قد سردها ابن جرير [تاريخه: ٦٣١/٨]، ومضمونها الاحتجاج على أن القرآن محدث وليس بقديم، وعنده أنّ كل محدث فهو مخلوق، وهذا أمر لا يوافقه عليه كثير من المتكلمين ولا المحدثين، فإن القائلين بأن الله تعالى تقوم به الأفعال الاختيارية لا يقولون بأن فعله تعالى القائم بذاته المقدسة بعد أنْ لم يكن مخلوق، بل يقولون هو محدث وليس بمخلوق، بل هو كلام الله القائم بذاته المقدسة، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً، وقد قال الله تعالى ﴿ما يَأتِيهِم مِن ذِكرٍ مِن رَبِّهِم مُحدَثٍ﴾ [الأنبياء ٢] وقال تعالى ﴿ولقد خَلَقْنَاكُم ثمّ صَوَّرْنَاكم ثُمّ قلنا للملائكةِ اسْجُدُوا لآدم﴾ [الأعراف: ١١] فالأمر بالسجود صدر منه تعالى بعد خلق آدم، فالكلام القائم بالذات ليس مخلوقاً، وهذا له موضع آخر.

وقد صنف البخاري - رحمه الله - كتاباً في هذا المعنى سماه «خلق أفعال العباد».

والمقصود أن كتاب المأمون لما ورد بغداد قرئ على الناس، وقد عين المأمون جماعة من المحدثين ليحضرهم إليه، وهم محمد بن سعد كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستملي يزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن إبراهيم الدورقي. فبعث بهم إلى المأمون إلى الرقة فامتحنهم بخلق القرآن فأجابوه إلى ذلك وأظهروا موافقته وهم كارهون، فردهم إلى بغداد وأمر بإشهار أمرهم بين الفقهاء، ففعل إسحاق بن إبراهيم ذلك. وأحضر خلقاً من مشايخ الحديث والفقهاء والقضاء وأئمة المساجد وغيرهم، فدعاهم إلى ذلك عن أمر المأمون، وذكر لهم موافقة أولئك المحدثين له على ذلك، فأجابوا بمثل جواب أولئك موافقة لهم، ووقعت بين الناس فتنة عظيمة فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم كتب المأمون كتاباً ثانياً إلى إسحاق بن إبراهيم يستدل فيه على القول بخلق القرآن بشبه من الدلائل لا تحقيق تحتها ولا حاصل لها، بل هي من المتشابهات وأورد من القرآن آيات هي حجة عليه. لا له، وقد أورده ابن جرير بطوله - وأمره أن يقرأ ذلك على الناس وأن يدعوهم إليه وإلى القول بخلق القرآن، فأحضر إسحاق ابن إبراهيم جماعة من الأئمة وهم أحمد بن حنبل. وقتيبة. وأبو حسان الزيادي. وبشر بن الوليد الكندي. وعلي بن أبي مقاتل. وسعدويه الواسطي. وعلي بن الجعد. وإسحاق بن أبي إسرائيل، وابن الهرش، وابن علية الأكبر، ويحيى بن عبد الحميد العمري. وشيخ آخر من سلالة عمر كان قاضياً على الرقة، وأبونصر التمار، وأبو معمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون، ومحمد بن نوح الجنديسابوري المضروب، وابن الفرخان، والنضر بن شميل. وابن علي بن عاصم، وأبو العوام البزاز، وأبو شجاع، وعبد الرحمن بن إسحاق وجماعة.

فلما دخلوا على إسحاق بن إبراهيم قرأ عليهم كتاب المأمون. فلما فهموه قال لبشر بن الوليد: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله. قال: ليس عن هذا أسألك. وإنما أسألك أهو مخلوق؟ قال: ليس بخالق. قال: ولا عن هذا أسألك. فقال: ما أحسن غير هذا، وصمم على ذلك. فقال: تشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه؟ قال: نعم! فقال للكاتب: اكتب بما قال. فكتب.

ثم امتحنهم رجلا رجلا فأكثرهم امتنع من القول بخلق القرآن، فكان إذا امتنع الرجل منهم يمتحنه بما في الرقعة التي وافق عليها بشر بن الوليد الكندي، من أنه تعالى لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه فيقول: نعم: كما قال بشر.

ولما انتهت النوبة إلى امتحان أحمد بن حنبل قال له: أتقول: إن القرآن مخلوق؟ فقال: القرآن كلام الله لا أزيد على هذا. فقال له: ما تقول في هذه الرقعة؟ فقال: أقول: ﴿لَيسَ كَمِثْلِه شَيءٌ وهو السميعُ البصيرُ﴾ [الشورى: ١١] فقال رجل من المعتزلة: إنه يقول: سميع بأذن بصير بعين. فقال له إسحاق: ما أردت بقولك: سميع بصير؟ فقال: أردت منها ما أراده الله منها وهو كما وصف نفسه ولا أزيد على ذلك. فكتب جوابات القوم رجلا رجلا وبعث بها إلى المأمون.

فصل: قد تقدَّم أنّ إسحاقَ بنَ إبراهيم نائب بغداد لما امتحن الجماعة في القول بخلق القرآن، ونفي التشبيه، فأجابوا كلُّهم إلى نفي المماثلة، وأما القولُ بخلق القرآن فامتنعوا من ذلك، وقالوا كلُّهم: القرآن كلامُ اللّه. قال الإمامُ أحمد: ولا أزيدُ على هذا حرفاً أبداً. وقرأ في نفي المماثلة قوله تعالى: ﴿لَيسَ كَمِثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البصير﴾ [الشورى: ١١]. فقالوا ما أردت

بقولك: السميع البصير؟ فقال: أردتُ منها ما أراد اللّهُ منها. كان من الحاضرين من أجاب إلى القول بخلق القرآن مصانعة مكرهاً لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه، وإن كان له رزق على بيت المال قطع، وإن كان مفتياً منع من الإفتاء، وإن كان شيخ حديث ردع عن الإسماع والأداء. ووقعت فتنة صماء ومحنة شنعاء وداهية دهياء فلا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم العزيز الحكيم.

فصل:

وأمر النائب إسحاق بن إبراهيم الكاتب، فكتب عن كل واحد منهم جوابه بعينه، وبعث به إلى المأمون، فجاء الجواب بمدح النائب على ما فعل، والرد على كل فرد فرد ما قال في كتاب أرسله. وأمر نائبه أن يمتحنهم أيضاً فمن أجاب منهم شهر أمره في الناس، ومن لم يجب منهم إلى القول بخلق القرآن فابعث به إلى عسكر أمير المؤمنين مقيداً محتفظاً به حتى يصل إلى أمير المؤمنين فيرى فيه رأيه. ومن مذهبه أن يضرب عنق من لم يقل بقوله. فعند ذلك عقد النائب ببغداد مجلساً آخر وأحضر أولئك وفيهم إبراهيم بن المهدي، وكان صاحباً لبشر بن الوليد الكندي، وقد نص المأمون على قتلهما إن لم يجيبا على الفور، فلما امتحنهم إسحاق بن إبراهيم ثانياً بعد قراءة كتاب الخليفة أجابوا كلهم مكرهين متأولين قوله تعالى ﴿إلا مَن أُكْرِهَ وقلبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾ [النحل: ١٠٦] الآية. إلا أربعة وهم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والحسن بن حماد سجّادة، وعبيد اللّه بن عمر القواريري. فقيدهم وأرصدهم ليبعث بهم إلى المأمون، ثم استدعى بهم في اليوم الثاني فامتحنهم فأجاب سجّادة إلى القول بخلق القرآن فأطلق قيده وأطلقه. ثم امتحنهم في اليوم الثالث فأجاب القواريري إلى ذلك فأطلق قيده أيضاً وأطلقه. وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري على الامتناع من ذلك، فأكد قيودهما وجمعهما في الحديد وبعث بهما إلى الخليفة وهو بطرسوس، وكتب معهما كتاباً بإرسالهما إليه. فسارا مقيدين في محارة على جمل متعادلين رضي اللّه عنهما. وجعل الإمام أحمد يدعو اللّه عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون، وأن لا يرياه ولا يراهما.

وجاء كتاب المأمون إلى نائبه أنه قد بلغني أن القوم إنما أجابوا مكرهين متأولين قوله تعالى: ﴿إلا من أُكْرِهَ وقلبه مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾ [النحل ١٠٦]. وقد أخطؤوا في ذلك خطأ كبيراً، فأرسلهم كلهم إلى أمير المؤمنين. فاستدعاهم إسحاق وألزمهم بالمسير إلى طرسوس فساروا إليها، فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة، ثم أذن لهم في الرجوع إلى بغداد. وكان أحمد بن حنبل وابن نوح قد سبقا الناس، ولكن لم يجتمعا به. حتى مات واستجاب اللّه سبحانه دعاء عبده ووليه الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه، فلم يجتمعوا بالمأمون وردوا إلى بغداد. وسيأتي تمام ما وقع لهم من الأمر الفظيع في أول ولاية المعتصم بن الرشيد، وتمام الكلام على ذلك في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل عند ذكر وفاته في سنة إحدى وأربعين ومائتين وباللّه المستعان.

وهذه ترجمة المأمون

هو عبد اللّه

■ المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن العباس القرشي الهاشمي العباسي أبو جعفر أمير المؤمنين، وأمه أم ولد يقال لها مراجل الباذغيسية، وكان مولده في ربيع الأول سنة سبعين ومائة ليلة توفي عمه الهادي، وولي أبوه هارون الرشيد، وكان ذلك ليلة الجمعة كما تقدم.

قال ابن عساكر: روى الحديث عن أبيه وهشيم بن بشير، وأبي معاوية الضرير، ويوسف بن عطية، وعباد بن العوام، وإسماعيل بن علية، وحجاج بن محمد الأعور.

وروى عنه أبو حنيفة إسحاق بن بشر - وهو أسن منه - ويحيى بن أكثم القاضي وابنه الفضل بن المأمون ومعمر بن شبيب وأبو يوسف القاضي وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي وأحمد بن الحارث الشيعي - والزيدي - وعمرو بن مسعدة وعبد اللّه بن طاهر بن الحسين، ومحمد بن إبراهيم السلمي ودعبل بن علي الخزاعي.

قال: وقدم دمشق دفعات وأقام بها مدة.

ثم روى ابن عساكر من طريق أبي القاسم البغوي حدثنا أحمد بن إبراهيم الموصلي قال: سمعت المأمون في الشماسية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكثم: أما ترى كثرة الناس؟ ثم قال: حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال: الخلق كلهم عيال اللّه فأحبهم إليه أنفعهم لعياله.

ومن حديث أبي بكر الميانجي عن الحسين بن أحمد المالكي عن يحيى بن أكثم القاضي عن المأمون عن هشيم عن منصور عن الحسن عن أبي بكرة أن رسول اللّه ﷺ قال: الحياء من الإيمان [خ (٦١١٨)، م (٣٦)]. ومن حديث جعفر بن أبي عثمان الطيالسي أنه صلى العصر يوم عرفة خلف المأمون بالرصافة فلما سلم كبر الناس فجعل يقول: لا يا غوغاء لا يا غوغاء، عدا سنة أبي القاسم ﷺ. فلما كان الغد صعد المنبر فكبر ثم قال: أنبأ هشيم بن بشير حدثنا ابن شبرمة عن الشعبي عن البراء بن عازب عن أبي بردة بن نيار. قال: قال رسول اللّه ﷺ: من ذبح قبل أن يصلي فإنما هو لحم قدمه لأهله، ومن ذبح بعد أن يصلي الغداة فقد أصاب السنة». اللّه أكبر كبيراً والحمد للّه كثيراً وسبحان اللّه بكرة وأصيلا، اللّهم أصلحني واستصلحني وأصلح على يدي.

وكان مولد المأمون ليلة مات عمه الهادي وولي أبوه الرشيد وذلك ليلة الجمعة للنصف من ربيع الأول سنة تسعين ومائة.

تولى المأمون الخلافة في المحرم لخمس بقين منه بعد مقتل أخيه سنة ثمان وتسعين ومائة، واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر. وقد كان فيه تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة، وقد بايع في سنة إحدى ومائتين بولاية العهد من بعده لعلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، وخلع السواد ولبس الخضرة كما قدمنا، فأعظم ذلك العباسيون من البغاددة وغيرهم، وخلعوا المأمون وولوا عليهم إبراهيم بن المهدي كما تقدم، ثم ظفر المأمون بهم واستقام أمره في الخلافة، وذلك بعد موت علي الرضا بطوس، وعفا عن عمه إبراهيم بن المهدي، كما تقدم بسطُ ذلك في موضعه.

أما كونه على مذهب الاعتزال فإنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسي فخدعوه وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، وكان يحب العلم ولم يكن له بصيرة نافذة فيه، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل، وراج عنده الباطل. ودعا إليه وحمل الناس عليه قهراً. وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته.

وقال ابن أبي الدنيا: كان المأمون أبيض ربعة حسن الوجه قد وخطه الشيب تعلوه صفرة أعين طويل اللحية رقيقها ضيق الجبين، على خده خال. أمه أم ولد يقال لها مراجل.

وروى الخطيب البغدادي عن القاسم بن محمد بن عباد قال: لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء غير عثمان بن عفان والمأمون.

وهذا غريب جداً لا يوافق عليه، فقد كان يحفظ القرآن عدة من الخلفاء.

قالوا: كان يتلو في شهر رمضان ثلاثاً وثلاثين ختمة.

وجلس يوماً لإملاء الحديث فاجتمع حوله القاضي يحيى بن أكثم وجماعة فأملى عليهم من حفظه ثلاثين حديثاً. وكانت له بصيرة بعلوم متعددة، من فقه وطب وشعر وفرائض وكلام ونحو وعربية وغريب حديث، وعلم النجوم. وإليه ينسب الزيج المأموني. وقد اختبر مقدار الدرجة في وطأة سنجار فاختلف عمله وعمل الأوائل من الفقهاء.

وروى ابن عساكر أن المأمون جلس يوماً للناس وفي مجلسه الأمراء والعلماء، فجاءت امرأة تتظلم إليه فذكرت أن أخاها توفي وترك ستمائة دينار، فلم يحصل لها سوى دينار واحد. فقال لها المأمون على البديهة: قد وصل إليك حقك، كان أخاك قد ترك بنتين وأماً وزوجة واثنى عشر أخاً وأختاً واحدة وهي أنت، قالت: نعم يا أمير المؤمنين. فقال: للبنتين الثلثان أربعمائة دينار، وللأم السدس مائة دينار، وللزوجة الثمن خمسة وسبعون ديناراً، يبقى خمسة وعشرون ديناراً لكل أخ ديناران، ولك دينار واحد. فعجب العلماء من فطنته وحدة ذهنه وسرعة جوابه. وقد رويت هذه الحكاية عن علي بن أبي طالب ﷺ.

ودخل بعض الشعراء على المأمون وقد قال فيه بيتاً من الشعر يراه عظيماً، فلما أنشده إياه لم يقع منه موقعاً طائلا، فخرج من عنده محروماً، فلقيه شاعر آخر فقال له: ألا أعجبك! أنشدت المأمون هذا البيت فلم يرفع به رأساً. فقال: وما هو؟ قال قلت فيه:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً ... بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال له ذلك الشاعر الآخر: ما زدت على أن جعلته عجوزاً في محرابها. فهلا قلت كما قال جرير في عبد العزيز بن مروان:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ... ولا عرض الدنيا عن الدين شاغِلُه

وقال المأمون يوماً لبعض جلسائه: بيتان اثنان لاثنين ما لحقهما أحد، قول أبي نواس:

إذا اختَبَرَ الدنيا لبيب تكشّفت ... له عن عدوٍ في ثياب صديق

وقول شريح:

تهون على الدنيا الملامة إنه ... حريصٌ على استصلاحها من يلومُها

قال المأمون: وقد الجأني الزحام يوماً وأنا في الموكب حتى خالطت السوقة فرأيت رجلا في دكان عليه أثواب خلقة، فنظر إلي نظر من يرحمني أو من يتعجب من أمري فقال:

أرى كلّ مغرورٍ تمنيه نفسه ... إذا ما مَضَى عامٌ سلامة قابل

وقال يحيى بن أكثم: سمعت المأمون يوم عيد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على الرسول ﷺ ثم قال: عباد الله! عظم أمر الداريين وارتفع جزاء العاملين، وطالت مدة الفريقين، فوالله إنه للجد لا اللعب، وإنه للحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والصراط ثم العقاب والثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز. ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار.

وروى ابن عساكر من طريق النضر بن شميل قال: دخلت على المأمون فقال: كيف أصبحت يا نضر؟ فقلت: بخير يا أمير المؤمنين. فقال: ما الإرجاء؟ فقلت: دين يوافق الملوك يصيبون به من دنياهم وينقصون من دينهم. قال: صدقت. ثم قال: يا نضر أتدري ما قلت في صيحة هذا اليوم؟ قلت: أنّى لي بعلم الغيب. فقال: قلت:

أصبّح ديني الذي أدينُ به ... ولست منه الغداة معتذرا
حُبُّ عليّ بعدَ النبي ولا ... أشتم صديقنا ولا عُمرا
ثم ابن عفان في الجنان مع ... الأبرار ذاك القتيل مصطبرا
لا لا ولا أشتم الزبير ولا ... طلحة إن قال قائل غدرا
وعائش الأم لست أشتمها ... من يفتريها فنحن منه برا

وهذا المذهب ثاني مراتب التشيُّع وفيه تفضيل عليّ على عثمان.

وقد قال بعضُ السلف والدارقطني: من فضل علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار - يعني في اجتهادهم ثلاثة أيام ثم اتفقوا على عثمان على عليّ بعد مقتل عمر رضي الله عنهم - وبعد ذلك ست عشرة مرتبة في التشيع، على ما ذكره صاحب كتاب «البلاغ الأكبر، والناموس الأعظم»، تنتهي إلى أكفر الكفر.

وقد روينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: لا أوتَى بأحد فضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري.

وتواتر عنه أنه قال: خير الناس بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان.

فقد خالف المأمون بن الرشيد في مذهبه الصحابة كلهم حتى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقد أضاف المأمون إلى بدعته هذه التي أزرى فيها على المهاجرين والأنصار، وخالفهم في ذلك، البدعة الأخرى والطامة العظمى وهي القول بخلق القرآن مع ما فيه من الانهماك على تعاطي المسكر وغير ذلك من الأفعال فعال التي تعدد فيها المنكر، ولكن كان فيه شهامة عظيمة وقوة جسيمة وله همة في القتال وحصار الأعداء ومصابرة الروم وحصرهم في بلدانهم، وقتل رجالهم وسبي نسائهم. وكان يقول: كان معاوية بعَمْرة، وعبد الملك بحجّاجه وأنا بنفسي.

وكان يقصد العدل ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل، جاءته امرأة ضعيفة فتظلّمت على ابنه العباس وهو قائم على رأسه، فأمر الحاجب فأخذه بيده فأجلسه معها بين يديه، فادعت عليه بأنه أخذ ضيعة لها واستحوذ عليها، فتناظرا ساعة فجعل صوتها يعلو على صوته، فزجرها بعض الحاضرين فقال له المأمون: اسكت فإن الحق أنطقها والباطل أسكته، ثم حكم لها بحقها وأغرم لها ولده بعشرة عشرة آلاف درهم.

وكتب إليّ بعض الأمراء: ليس من المروءة أن يكون آنيتك من ذهب وفضة وغريمك عار، وجارك طاو والفقير جائع.

ووقف رجل بين يديه فقال له المأمون: والله لأ قتلنك. فقال: يا أمير المؤمنين تأن علي فإن الرفق نصف العفو، فقال: ويلك - ويحك! قد حلفت لأقتلنك، فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن تلق اللّه عزّ وجّل حانثاً خير من أن تلقاه قاتلا، فعفا عنه.

وكان يقول: ليت أهل الجرائم يعرفون أن مذهبي العفو حتى يذهب

الخوف عنهم ويدخل السرور إلى قلوبهم.

وركب يوماً في حراقة فسمع ملاحاً يقول لأصحابه: ترون هذا المأمون ينبل في عيني وقد قتل أخاه الأمين ـ يقول ذلك وهو لا يشعر بمكان المأمون ـ فجعل المأمون يتبسّم ويقول: كيف ترون الحيلة حتى أنبل في عين هذا الرجل الجليل؟.

وحضر عند المأمون هدبة بن خالد ليتغدى عنده فلما رفعت المائدة جعل هدبة يلتقط ما تناثر منها من اللباب وغيره، فقال له المأمون: أما شبعت يا شيخ؟ فقال: بلى، ولكن حدّثني حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: "من أكل ما تحت مائدته أمن من الفقر". قال فأمر له المأمون بألف دينار.

وروى ابن عساكر أن المأمون قال يوماً لمحمد بن عبّاد بن عبّاد بن المهلب: يا أبا عبد الله قد أعطيتك ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف وأنا عليك دَيناً؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن منع الموجود سوء ظن بالمعبود. فقال: أحسنت يا أبا عبد الله! أعطوه ألف ألف وألف ألف.

ولما أراد المأمون أن يدخل بيوران بنت الحسن بن سهل جعل الناس يهدون لأبيها الأشياء النفيسة، وكان من جملة من يعتز به رجل من الأدباء. فأهدى إليه مزوداً فيه ملح طيب، ومزوداً فيه أشنان جيد. وكتب إليه: إني كرهت أن تطوى صحيفة أهل البر ولا أذكر فيها، فوجهت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته، وبالمختوم به لطيبه ونظافته. وكتب إليه:

بِضَاعَتِي تقصُر عن هِمَّتِي ... وهمتي تقصرُ عن مالي

فالملحُ والأشنانُ يا سيدي ... أحسنُ ما يهديه أمثالي

قال: فدخل بهما الحسن بن سهل على المأمون فأعجبه ذلك وأمر بالمزودين ففرغا وملئا دنانير وبعث بهما إلى ذلك الأديب.

وولد للمأمون ابنه جعفر فدخل عليه الناس يهنئونه بصنوف التهاني، ودخل عليه لشعراء فقال يهنيه بولده:

مدّ لك اللّه الحياة مدًّا ... حتى ترى ابنك هذا جدًّا

ثم يُفدّي مثل ما تفدّى ... كأنه أنت إذا تَبدّى

أشبه منك قامة وقدا ... موزّرا بمجده مُردّا

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم.

وقدم عليه وهو بدمشق مال جزيل بعد ما كان قد أفلس وشكى إلى أخيه المعتصم ذلك، فوردت عليه خزائن من خراسان وبها ثلاثون ألف ألف درهم، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال، ومعه يحيى بن أكثم القاضي، فلما دخلت البلد قال: ليس من المروءة أن نحوز نحن هذا كله والناس ينظرون. ثم فرق منه أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله في الركاب لم ينزل عن فرسه.

ومن لطيف شعره:

لساني كتومٌ لأسراركم ... ودمعي نمومٌ لسرّي مذيع

فلولا دموعي كتمت الهوى ... ولولا الهوى لم تكن لي دموع

وقد بعث خادماً ليلة من الليالي ليأتيه بجارية فأطال الخادم عندها المكث، وتمنعت الجارية من المجيء إليه حتى يأتي إليها المأمون بنفسه، فأنشأ المأمون يقول:

بعثتك مشتاقاً ففزت بنظرة ... وأغفلتني حتى أسأت بك الظنّا

وناجيتَ من أهوى وكنت مقرّباً ... فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى

وردّدت طرفاً في محاسن وجهها ... ومتّعت باستماع نغمتها أُذنا

أرى أثراً في صحن خدّك لم يكن ... لقد سرقت عيناكَ من عينها حُسْناً

ولما ابتدع المأمون ما ابتدع من التشيع والاعتزال، فرح بذلك بشر المريسي- وكان بشر هذا شيخ المأمون ـ فأنشأ المريسي يقول:

قد قال مأمونُنا وسيّدنا ... قولاً له في الكتاب تصديقُ

إن عليّاً أعني أبا حسن ... أفضل من قد أرْقَلَتْ به النُّوق

بعد نبيِّ الهدى وإنّ لنا ... أعمالَنا، والقرآنُ مخلوقُ

فأجابه بعض الشعراء من أهل السنة فقال:

يا أيها الناس لا قولٌ ولا عملٌ ... لمن يقول: كلام اللّه مخلوقُ

ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر ... ولا النبي ولم يذكره صديقُ

ولم يقل ذاك إلا كل مبتدعٍ ... على الإله وعند اللّه زنديقُ

عمداً أراد به إحراقَ دينكم ... لأنّ دينهمُ واللّهِ محروقُ

أصبَحَ يا قوم عقلاً من خليفتكم ... يُمسي ويُصبح في الأغلالِ موثوقُ

وقد سأل بشر من المأمون أن يطلب قائل هذا فيؤدبه على ذلك، فقال: ويحك لو كان فقيهاً لأدبته ولكنه شاعر فلست أعرض له.

ولما تجهز المأمون للغزو في آخر سفرة سافرها إلى طرسوس استدعى بجارية كان يحبها وقد اشتراها في آخر عمره، فضمها إليه فبكت الجارية وقالت: قتلتني يا أمير المؤمنين بسفرك هذا ثم أنشأت تقول:

سادعو دعوة المضطر ربّاً ... يُثيب على الدّعاء ويستجيبُ

لعلّ اللّه أن يكفيك حرباً ... ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضمها إليه وأنشأ يقول متمثلا:

فيا حسنها إذ يغسل الدمعُ كُحلها ... وإذ هي تذري الدمعَ منها الأناملُ

صبيحةَ قالت في العتاب قَتَلْتَني ... وقتلي بما قالت هناك تحاولُ

ثم أمر مسروراً الخادم بالإحسان إليها والاحتفاظ عليها حتى يرجع، ثم قال: نحن كما قال الأخطل:

قومٌ إذا حَارَبُوا شَدّوا مآزرَهم ... دون النساءِ ولو باتت بأطهار

ثم ودعها وسار فمرضت الجارية في غيبته هذه، ومات المأمون أيضاً في غيبته هذه، فلما جاء نعيه إليها تنفست الصعداء وحضرتها الوفاة وأنشأت تقول وهي في السياق:

إن الزمانَ سقانا من مرارته ... بعد الحلاوةِ أنفاساً فأروانا

أبدى لنا تارةً منه فأضحكنا ... ثم انثنى تارةً أخرى فأبكانا

إنا إلى اللّهِ فيما لا يزال لنا ... من القضاءِ ومن تلوينِ دنيانا

دنيا تراها ترينا من تصرّفها ... ما لا يدوم مصافاة وأحزانا

ونحن فيها كأنّا لا يزايلنا ... للعيش أحياؤنا يَبْكُونَ موتانا

كانت وفاة المأمون بطرسوس في يوم الخميس وقت الظهر وقيل بعد العصر، لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين، وله من العمر نحو من ثمان وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته عشرين سنة وأشهراً، وصلى عليه أخوه المعتصم وهو ولي العهد من بعده، ودفن

بطرسوس في دار خاقان الخادم، وقيل كانت وفاته يوم الثلاثاء، وقيل يوم الأربعاء لثمان خلون من رجب من هذه السنة، وقيل إنه مات خارج طرسوس بأربع مراحل فحمل إليها فدفن بها، وقيل إنه نقل إلى بعد ذلك آذنة في رمضان فدفن بها فالله أعلم. وقد قال أبوسعيد المخزومي:

أما رأيت النجوم أغنت عن الما ... مونِ في عزّ ملكه المأسوسِ
خلّفوه بمَرْصَتي طرسوس ... مثل ما خلّفوا أباه بطُوسِ

وقد كان أوصى إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم وكتب وصيته بحضرة ابنه العباس وجماعة القضاة والأمراء والوزراء والكتاب. وفيها القول بخلق القرآن ولم يتب من ذلك حتى أدركه أجله وانقضى عمله وهو على ذلك لم يرجع عنه ولم يتب منه، وأوصى أن يكبر عليه الذي يصلي عليه خمساً، وأوصى أخاه أبا إسحاق المعتصم بتقوى الله عز وجل والرفق بالرعية، وأوصاه أن يعتقد ما كان يعتقده أخوه المأمون في القرآن، وأن يدعو الناس إلى ذلك، وأوصاه بعبد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم وأحمد بن أبي دواد القاضي، وقال: شاوره في أمورك كلها ولا تفارقه، وحذّره من يحيى بن أكثم ونهاه عنه وذمه وقال: خانني ونفر الناس عني ففارقته غير راضٍ عنه. ثم أوصاه بالعلويين خيراً، أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٦٤٦/٨-٦٦٦] للمأمون ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة لم يذكرها الحافظ ابن عساكر مع كثرة ما يورده، وفوق كل ذي علم عليم.

خلافة المعتصم بالله أبي إسحاق بن هارون الرشيد

بويع له بالخلافة يوم مات أخوه المأمون بطرسوس يوم الخميس الثامن عشر من رجب من سنة ثماني عشرة ومائتين، وكان إذ ذاك مريضاً، وهو الذي صلّى على أخيه المأمون، وقد شَغَب بعض الجند فأرادوا أن يولّوا العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس بن المأمون فقال: ما هذا الحب البارد؟ أنا قد بايعت عمي المعتصم. فسكن الناس وخمدت الفتنة وركب البرد بالبيعة للمعتصم إلى الآفاق، وبالتعزية بالمأمون. فأمر المعتصم بهدم ما كان بناه المأمون في مدينة طوانة، وأمر بإبطال ذلك ونقل ما كان حول إليها من السلاح وغيره إلى حصون المسلمين، وأذن الفعلة بالانصراف إلى بلدانهم، ثم ركب المعتصم في الجنود قاصداً بغداد وصحبته العباس بن المأمون، فدخلها يوم السبت مستهل رمضان في أبهة عظيمة وتجمل تام.

وفيها دخل خلق كثير من أهل همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان في دين الخرمية، فتجمع منهم بشر كثير، فجهز إليهم المعتصم جيوشاً كثيرة آخر من جهز إليهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب في جيش عظيم، وعقد له على الجبال، فخرج من بغداد في ذي القعدة وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية. وأنه قهر الخرمية وقتل منهم خلقاً كثيراً، وهرب بقيتهم إلى بلاد الروم، و لله الحمد والمنّة وعلى يدي هذا جرت فتنة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله وضرب بين يديه كما سيأتي بسط ذلك في ترجمة أحمد في سنة إحدى وأربعين ومائتين إن شاء الله، ربه الثقة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **بشر المريسي**: وهو بشر بن غياث بن أبي كريمة أبو عبد الرحمن المريسي المتكلم شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون، وقد كان هذا الرجل ينظر أولا في شيء من الفقه، وأخذ عن القاضي أبي يوسف. وروى الحديث عنه وعن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة وغيرهم، ثم غلب عليه علم الكلام، وقد نهاه الشافعي عن تعلمه وتعاطيه فلم يقبل منه.

وقال الشافعي: لئن يلقى الله العبد بكل ذنب ما عدا الشرك أحب إليّ من أن يلقاه بعلم الكلام. وقد اجتمع بشر بالشافعي عندما قدم الشافعي بغداد.

قال القاضي ابن خلكان: جرّد القول بخلق القرآن وحكي عنه أقوال شنيعة، وكان مرجئياً وإليه تنسب المريسية من المرجئة، وكان يقول: إن السجود للشمس والقمر ليس بكفر، وإنما هو علامة الكفر، وكان يناظر الشافعي وكان لا يحسن النحو، وكان يلحن لحناً فاحشاً. ويقال: إن أباه كان يهودياً صباغاً بالكوفة، وكان يسكن درب المريسي ببغداد. والمريس عندهم هو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر. قال: ومَرِيس ناحية ببلاد النوبة تهب عليها في الشتاء ريح باردة. قلتُ: ثم راج بشرٌ المريسيُ عند المأمون وحظي عنده، وقدّم في حضرته، ونفق سُوقُه الكاسدُ، واستُجيد ذهنُه البارِدُ.

ولَمّا تُوفي في ذي الحجة من هذا العام - أو الذي قبله في قول - صَلّى عليه رجلٌ من المحدّثين يُقال له: عبيدٌ الشُّونيزي. فلامه بعضُ المحدثين، فقال لهم: ألا تسمعون كيف دعوتُ له في صلاتي عليه؟ قلتُ: اللّهمّ إنّ عبدك هذا كان ينكر عذاب القبر، اللّهمّ فأذِقْه من عذاب القبر، وكان ينكر شفاعةَ نبيِّك فلا تجعله من أهلها، وكان ينكر رؤيتك في الدّار الآخرة فاحجُبْ وجهَك الكريمَ عنه. فقالوا له: أصبْت. وهذا الذي نطَق به بعضُ السّلف حيث قالوا: مَن كذّب بكرامةٍ لم يَنلْها.

وفي هذا العام توفي:

■ **عبد الله بن يوسف التِّنيسي.**

وأبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي.

ويحيى بن عبد الله البابلتي.

■ **أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري**: راوي السيرة عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق مصنفها، وإنما نسبت إليه فيقال سيرة ابن هشام، لأنه هذبها وزاد فيها ونقص منها، وحرر أماكن واستدرك أشياء.

وكان إماماً في اللغة والنحو، وقد كان مقيماً بمصر واجتمع به الشافعي حين وردها، وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً، وكانت وفاته بمصر لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة، قاله ابن يونس في تاريخ مصر.

وزعم السهيلي أنه توفي في سنة ثلاث عشرة كما تقدم فالله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائتين

فيها ظهر محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان يدعو إلى الرضى من آل محمد، واجتمع عليه خلق كثير وقاتله قواد عبد الله بن طاهر، ثم ظهروا عليه وهرب فأخذ ثم بعث به إلى عبد الله بن طاهر فبعث به إلى المعتصم فدخل عليه للنصف من ربيع الآخر من هذه السنة فأمر به فحبس في مكان ضيق طوله ثلاثة أذرع في ذراعين، فمكث فيه ثلاثاً، ثم حول إلى أوسع منه وأجري

عليه رزقٌ من يخدمه، فلم يزل محبوساً هنالك إلى ليلة عيد الفطر فاشتغل الناس بالعيد فدلي له حبل من كوة كان يأتيه الضوء منها، فذهب فلم يدر كيف ذهب وإلى أين صار من الأرض.

وفي يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى دخل إسحاق بن إبراهيم إلى بغداد راجعاً من قتال الخرمية، ومعه أسارى منهم، وقد قتل في حربه هذه من الخُرَّمية منهم مائة ألف مقاتل منهم.

وفيها بعث المعتصم عجيفاً في جيش كثيف لقتال الزط الذين عاثوا فساداً في بلاد البصرة، وقطعوا الطريق ونهبوا الغلات، فمكث في قتالهم تسعة أشهر، فقهرهم وقمع شرهم وأباد خضراءهم. وكان القائم بأمرهم رجل يقال له محمد بن عثمان ومعه آخر يقال له سملق، وهو داهيتهم وشيطانهم، فأراح الله المسلمين منه ومن شرهم.

وفيها توفي من الأعيان

■ سليمان بن داود الهاشمي شيخ الإمام أحمد. وعبد الله بن الزبير الحميدي صاحب المسند وتلميذ الإمام الشافعي وعلي بن عياش. وأبو نعيم الفضل بن دكين شيخ البخاري. وأبو غسان النهدي.

ثم دخلت سنة عشرين ومائتين من الهجرة

في يوم عاشوراء دخل عجيف في السفن إلى بغداد ومعه من الزط سبعة وعشرون ألفاً قد جاؤوا بالأمان إلى الخليفة، فأنزلوا في الجانب الشرقي ثم نفاهم الخليفة إلى عين زُربة، فأغارت الروم عليهم فاجتاحوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم أحد. فكان آخر العهد بهم.

وفيها عقد المعتصم للأفشين واسمه حيدر بن كاوس على جيش عظيم لقتال بابك الخرمي لعنه الله، وكان قد استفحل أمره جداً، وقويت شوكته جداً، وانتشرت أتباعه في أذربيجان وما والاها، وكان أول ظهوره في سنة إحدى ومائتين، وكان زنديقاً كبيراً وشيطاناً رجيماً، فسار الأفشين وقد أحكم صناعة الحرب في الأرصاد وعمارة الحصون وإيصال المدد، وأرسل إليه المعتصم بالله مع بغا الكبير أموالا جزيلة نفقة لمن معه من الجند والأتباع، وقد اتَّفَعَ فالتقى هو وبابك في هذه السنة فاقتتلا قتالا شديداً، فقتل الأفشين من أصحاب بابك خلقاً كثيراً أزيد من ألف، وانهزم هو إلى مدينته فأوى إليها مكسوراً، فكان هذا أول ما تضعضع من أمر بابك، وجرت بينهما حروب يطول ذكرها، وقد استقصاها الإمام أبو جعفر بن جرير [تاريخه: ٩/١١-١٧] رحمه الله.

وفي هذه السنة خرج المعتصم من بغداد فنزل القاطول فأقام بها.

وفيها غضب المعتصم على الفضل بن مروان بعد المكانة العظيمة، وعزله عن الوزارة وحبسه وأخذ أمواله وجعل مكانه محمد بن عبد الملك بن الزيات.

وحج بالناس فيها صالح بن علي بن محمد أمير السنة الماضية.

وفيها توفي من الأعيان

آدم بن أبي إياس. وعبد الله بن رجاء. وعفان بن مسلم. وقالون أحد مشاهير القراء. وأبو حذيفة النهدي.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائتين

فيها كانت وقعة هائلة بين بغا الكبير وبابك الخرّميّ فهزم بابك بغا وقتل خلقاً من أصحابه. فإنّا لله وإنا إليه راجعون. ثم اقتتل الأفشين وبابك فهزمه الأفشين وقتل خلقاً من أصحابه بعد حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير رحمه الله في تاريخه [٩/٢٣-٢٧].

وحج بالناس فيها نائب مكة محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي.

وفيها توفي من الأعيان

■ عاصم بن علي. وعبد الله بن مسلمة القعنبي. وعبدان. وهشام بن عبيد الله الرازي.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائتين

فيها وجه المعتصم جيشاً كثيراً مدداً للأفشين على محاربة الخرمية وبعث إليه ثلاثين ألف ألف درهم نفقة للجند والأتباع.

وفيها اقتتل الأفشين والخرمية قتالا عظيماً، وافتتح الأفشين البذ مدينة بابك واستباح ما فيها ولله الحمد، وذلك يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان. وذلك بعد محاصرة وحروب هائلة وقتال شديد وجهد جهيد. وقد أطال ابن جرير [تاريخه: ٩/٣١-٥١] وبسطه جداً. وحاصل الأمر أنه افتتح البلد وأخذ جميع ما احتوى عليه من الأموال مما قدر عليه.

ذكر مسك بابك الخُرَّمي وأسره وقتله

لما احتوى المسلمون على بلده المسمى بالبذ وهي دار ملكه ومقرُّ سلطانه هرب بمن معه من أهله وولده ومعه أمه وامرأته، فانفرد في شرذمة قليلة من خدمه ولم يبق معهم طعام، فاجتاز بحراث فبعث غلامه إليه ومعه ذهب فقال: أعطه الذهب وخذ ما معه من الخبز، فنظر شريك الحراث إليه من بعيد وهو يأخذ منه الخبز، فظن أنه قد اغتصبه منه، فذهب إلى حصن هناك فيه نائب للخليفة يقال له سهل بن سنباط ليستعدي على ذلك الغلام، فركب بنفسه وجاء فوجد الغلام فقال:ما خبرك؟ فقال:لا شيء، إنما أعطيته دنانير وأخذت منه هذا الخبز. فقال: ومن أنت؟ فأراد أن يعمّي عليه الخبر فألح عليه فقال: من غلمان بابك، فقال: وأين هو؟ فقال: ها هو ذا جالس يريد الغداء. فسار إليه سهل بن سنباط فلما رآه ترجل وجاءه فقبّل يده وقال: يا سيدي أين تريد؟ قال: أريد أن أدخل بلاد الروم، فقال:إلى عند من تذهب أحرز من حصني وأنا غلامك وفي خدمتك؟ وما زال به حتى خدعه وأخذه معه إلى الحصن فأنزله عنده وأجرى عليه النفقات الكثيرة والتحف وغير ذلك، وكتب إلى الأفشين يعلمه بذلك، فأرسل إليه أميرين لقبضه، فنزلا قريباً من الحصن وكتبا إلى ابن سنباط فقال: أقيما مكانكما حتى يأتيكما أمري.، ثم قال لبابك: إنك قد حصل لك غمٌّ وضيق من هذا الحصن وقد عزمت على الخروج اليوم إلى الصيد ومعنا بزاة وكلاب، فإن أحببت أن تخرج معنا لتتشرح. قال: نعم! فخرجوا وبعث ابن سنباط إلى الأميرين أن كونا بمكان كذا وكذا في وقت كذا وكذا من النهار، فلما كانوا بذلك الموضع أقبل الأميران بمن معهما من الجنود

فأحاطوا ببابك وبابن سنباط، فلما رأوه جاؤوا إليه فقالوا: ترجل عن دابتك. فقال: ومن أنتما؟ فذكرا أنهما من عند الأفشين. فترجل حينئذٍ عن دابته وعليه دراعة بيضاء وعمامة بيضاء وخف قصير وفي يده باز، فنظر إلى ابن سنباط فقال: قبحك الله فهلا طلبت مني من المال ما شئت فكنت أعطيتك أكثر مما يعطيك هؤلاء! ثم أركبوه وأخذوه معهما إلى الأفشين، فلما اقتربوا من بلاد الأفشين خرج فتلقاه وأمر الناس أن يصطفوا صفين. وأن يترجّل بابك فيدخل بين الناس وهو ماش، ففعل ذلك، وكان يوماً مشهوداً جداً. وكان ذلك في شوال من هذه السنة. ثم احتفظ به وهو في السجن عنده. ثم كتب الأفشين إلى المعتصم يخبره بأن بابك في أسره وقد استحضر أخاه عبد الله أيضاً فكتب إليه المعتصم يأمره أن يقدم بهما عليه إلى بغداد، فتجهز الأفشين بهما إلى بغداد في تمام هذه السنة ففرغت ولم يصل بهما إلى بغداد.

وحج بالناس فيها محمد بن داود المتقدم ذكره.

وفيها توفي

أبو اليمان الحكم بن نافع وعمر بن حفص بن غياث، ومسلم بن إبراهيم، ويحيى بن صالح الوحاظي.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين ومائتين

في يوم الخميس ثالث صفر منها دخل الأفشين على المعتصم سامراء ومعه بابك الخرمي وأخوه عبد الله، في تجمل عظيم، وقد أمر المعتصم ابنه هارون الواثق أن يتلقى الأفشين، وكانت أخباره تفد إلى المعتصم في كل يوم من شدة اعتناء المعتصم بأمر بابك، وقد ركب المعتصم قبل وصول بابك بيومين على البريد حتى دخل إلى بابك وهو لا يعرفه، فنظر إليه ثم رجع، فلما كان يوم دخوله عليه تأهب المعتصم واصطف الناس سماطين وأمر بابك أن يركب على فيل ليشهر أمره ويعرفوه، عليه قباء ديباج وقلنسوة سمور مدورة، وقد هُيِّيء الفيل وخُضبت أطرافه وأُلبس من الحرير والأمتعة التي تليق به شيئاً كثيراً، وقد قال فيه بعضهم:

قد خُضِّب الفيل كعاداته ... يحمل شيطان خُراسان

والفيل لا تُخضَبُ أعضاؤه ... إلا لذي شأنٍ من الشان

ولما أحضر بين يدي المعتصم أمر بقطع يديه ورجليه وجز رأسه وشق بطنه، ثم أمر بحمل رأسه إلى خراسان وصلب جثته على خشبة بسامرّا، وكان بابك قد شرب الخمر ليلة أسفر صباحُها عن قتله وهي ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من هذه السنة. وكان هذا الملعون قد قتل من المسلمين في مدة ظهوره لعنه الله- وهي عشرون سنة - مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفاً وخمسمائة إنسان - قاله ابن جرير [تاريخه: ٩/٥٤، ٥٥] - وأسر خلقاً لا يحصون كثرة، وكان من جملة من استنقذه الأفشين من أسره نحو من سبعة آلاف وستمائة إنسان، وأسر من أولاده سبعة عشر رجلا، ومن حلائله وحلائل أولاده ثلاثاً وعشرين امرأة من الخواتين، وقد كان أصل بابك لعنه الله من جارية زرية الشكل جداً، فآل به الحال إلى ما آل به إليه، ثم أراح الله المسلمين من شره بعد ما افتتن به خلق كثير وجم غفير من العوام الطغام.

ولما قتله المعتصم توج الأفشين وقلده وشاحين من جوهر، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم، وكتب له بولاية السند، وأمر الشعراء أن يدخلوا عليه فيمدحوه على ما فعل من الخير إلى المسلمين، وعلى تخريبه بلد بابك التي يقال لها البذ وتركه إياها يباباً خراباً. فقالوا في ذلك فأحسنوا، وكان من جملتهم أبو تمام الطائي وقد أورد قصيدته بتمامها ابن جرير في تاريخه [٩/٥٥] وهي قوله:

بذُّ الجلاد البذُّ فهو دفين ... ما إن بها إلا الوحوش قطين

لم يقر هذا السيف هذا الصبر في ... هيجاء إلا عز هذا الدين

قد كان عذرةَ سؤددٍ فاقتضّها ... بالسيف فحل المشرق الأفشين

فأعادها تعوي الثعالب وسْطها ... ولقد ترى بالأمس وهي عرين

هطلت عليها من جماجم أهلها ... ديَمٌ أمارتها طِلىً وشؤون

كانت من المهجات قبل مفازة ... عمراً فأضحت وهي منه معين

وفي هذه السنة - أعني سنة ثلاث وعشرين ومائتين - أوقع ملك الروم توفيل بن ميخائيل لعنه الله بأهل ملطية من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها منهم خلقاً كثيراً من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات. ومثّل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وآنافهم وسمل أعينهم قبحه الله.

وكان سبب ذلك أن بابك لما أحيط به من كل جانب في مدينته البذ واستوسقت الجيوش حوله كتب إلى ملك الروم يقول له: إن ملك العرب قد جهز إليّ جمهور جيشه ولم يبق في أطراف بلاده من يحفظها، فإن كنت تريد الغنيمة فانهض سريعاً إلى ما حولك من بلاده فخذها فإنك لا تجد أحداً يمانعك عنها. فركب توفيل لعنه الله في مئة ألف وانضاف إليه المحمرة الذين كانوا قد خرجوا في الجبال وقاتلهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، فلم يقدر عليهم وتحصنوا بتلك الجبال فلما قدم ملك الروم صاروا معه على المسلمين فوصلوا إلى زِبطْرة فقتلوا من رجالها خلقاً كثيراً وأسروا من نسائها أمة كثيرة، فلما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره فأمر بتعبئة الجيوش واستدعى بالقاضي والعدول فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة وثلثه لولده وثلثه لمواليه.

وخرج من بغداد فعسكر غربي دجلة يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى ووجه بين يديه عجيفاً وطائفة من الأمراء ومعهم خلق من الجيش إعانة لأهل زبطرة، فأسرعوا السير فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وانشمر إلى بلاده راجعاً وتفارط الحال ولم يمكن الاستدراك فيه، فرجعوا إلى الخليفة لإعلامه بما وقع من الأمر، فقال للأمراء: أي بلاد الروم أمنع؟ قالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية.

ذكر فتح عمورية على يد المعتصم

لما تفرغ المعتصم من شأن بابك لعنه الله وقتله وأخذ بلاده استدعى بالجيوش إلى بين يديه وتجهز جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه من آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله، وسار إليها في جحافل كالجبال، وبعث الأفشين خيذر بن كاوس من ناحية سروج، وعبّأ الخليفة جيوشه تعبئة لم يسمع بمثلها. وقدم بين يديه الأمراء المعروفين بالحرب، فانتهى في سيره إلى

نهر اللّميس وهو قريب من طرسوس، وذلك في رجب من هذه السنة المباركة.

وقد ركب ملك الروم في جيشه فقصد نحو المعتصم فتقاربا حتى كان بين الجيشين نحو من أربعة فراسخ، ودخل الأفشين بلاد الروم من ناحية أخرى، فجاء من وراء ملك الروم، فحار في أمره وضاق ذرعه بسبب ذلك إن هو ناجز الخليفة جاء الأفشين من خلفه فالتقيا عليه فيهلك، وإن سار إلى أحدهما وترك الآخر أخذه من خلفه. ثم اقترب منه الأفشين فسار إليه ملك الروم في شرذمة من الجيش واستخلف على بقية جيشه قريباً له فالتقى هو والأفشين في يوم الخميس لخمس بقين من شعبان منها، فثبت الأفشين في ثاني الحال وقتل من الروم خلقاً وجرح آخرين، وتَفَلَّتَ فئةٌ ملك الروم وبلغه أن بقية الجيش قد شردوا عن قرابته وذهبوا عنه وتفرقوا عليه فأسرع الأوبة فإذا نظام الجيش قد انحل، فغضب على قرابته وضرب عنقه وجاءت الأخبار بذلك كله إلى المعتصم فسره ذلك جدّاً، فركب من فوره وجاء إلى أنقرة ووافاه الأفشين بمن معه إلى هنالك، فوجدوا أهلها قد هربوا منها وتفرقوا عنها فنقبوا منها بطعام وعلوفة كثيرة ثم فرق المعتصم جيشه ثلاث فرق فالميمنة عليها الأفشين، والميسرة عليهما أشناس، والمعتصم في القلب، وبين كل عسكرين فرسخان، وأمر كل أمير من الأفشين وأشناس أن يجعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلباً ومقدمة وساقة، وأنهم مهما مروا عليه من القرى حرّقوا وخرّبوا وأسروا. وغنموا، وسار بهم كذلك قاصدا إلى عمورية، وكان بينها وبين أنقرة سبع مراحل، فأول من وصل إليها من الجيش أشناس أمير الميسرة ضحوة يوم الخميس لخمس خلون من رمضان من هذه السنة، فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها، ثم جاء المعتصم صبيحة يوم الجمعة بعده، فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها، ثم قدم الأفشين يوم السبت فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها وقد تحصن أهلها تحصناً شديداً وملئوا أبراجها بالرجال والسلاح، وهي مدينة عظيمة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كبيرة، وقسم المعتصم الأبراج على الأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له، ونزل المعتصم قباله بمكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين الأسراء، وكان قد تنصر عندهم وتزوج منهم، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين معه رجع إلى الإسلام وخرج إلى الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبُني بناء فاسداً بلا أساس فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي نصح فيه ذلك الأسير، فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألح عليها المنجنيق فكسرها فجعلوا فوقها البرادع ليردوا حدة الحجر فلمّا ألح عليها المنجنيق لم تغن شيئاً، وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسخ. فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا بالجيش في طريقهم أنكروا أمرهما فسألوهما ممن أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان لرجل من المسلمين فحُملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب ياطس نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة فيناجز المسلمين كائناً في ذلك ما كان.

فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل واحد منهما بدرة، فأسلما من فورهما فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت الحصن الذي فيه ياطس فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به ياطس معهما إلى ملك الروم فجعلت الروم تعلنهما وتسبهما. ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتفاظ فيه من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك، وألح عليهم المسلمون في الحصار، وقد أعدّ المعتصم عليها المجانيق الكثيرة والدبابات وغير ذلك من آلات الحرب. ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها عمل المجانيق في مقاومة سورها، وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وقال: ليأكل الرجل الرأس وليجيء بملء جلده ترابا فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك.

وبينما الناس في الحرس إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب من السور، فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من ينادي في الناس: إنما ذلك سقوط السور. ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً، لكن لم يكن يتّسع أن يدخل منه الجيشُ لضيقه عنهم، فأمر المعتصمُ بالمجانيق المتفرقة فجُمعت هنالك ونصبت حَولَ ذلك الموضع الذي سقط، ليضرب بها ما حوله ليتّسع لدخول الخيل والرجال إذا دخلوا. وقوي الحصار وقد وكلت الروم لكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، واثُق أنّ ذلك الأمير الذي هدمت ناحيته من السور ضُعف عن مقاومة ما يلقاه من الحصار، فذهب إلى ياطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون في حفظه.

فلما يئس منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به. فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد انهدمت وخلت من المقاتلة، فركب المسلمون نحوها فجعلت الروم يشيرون إليهم لا تَحيّوا ولا يقدرون على دفاعهم، فلم يلتفت إليهم المسلمون، ثم تكاثروا عليهم ودخلوا البلد قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون، وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وأين ثقفوهم، وقد حصروهم في كنيسة لهم هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها نهراً. وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فأحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع يحصن سوى المكان الذي فيه النائب، وهو ياطس في حصن منيع، فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه ياطس فناداه المنادي ويحك يا ياطس: هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك. فقال: ليس ياطس ههنا مرتين. فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى ياطس هذا ياطس هذا ياطس. فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلعت الرسل إليه فقالوا له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين. فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف من عنقه ثم جيء به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشي إلى مضرب الخليفة فمشى مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل، فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالا عظيمة وغنائم لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقي من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بها الروم على شيء من حرب المسلمين، وانصرف راجعا إلى ناحية طرسوس في آخر شوال من هذه السنة. وكانت إقامته على عمورية خمسة وخمسين يوماً.

ذكر مقتل العباس بن المأمون

كان العباس بن المأمون مع عمه المعتصم في غزوة عمورية، وكان عجيف بن عنبسة قد نذَّمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون حين مات بطرسوس، ولامه على مبايعته عمه المعتصم، ولم يزل به حتى أجابه إلى الفتك بعمه المعتصم وأخذ البيعة من الأمراء له، وجهز رجلا يقال له الحارث السمرقندي وكان نديماً للعباس، فأخذ له البيعة من جماعة من الأمراء في الباطن، واستوثق منهم وتقدم إليهم أنه يلي متى ما فتك بعمِّه، فليقتل كل واحد منهم مَن يقدر عليه من رؤوس أصحاب المعتصم؛ كالأفشين وأشناس وغيرهم من الكبار، فلما كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية، أشار عجيف على العباس أن يقتل عمه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد، فقال العباس: إني أكره أن أعطل على الناس هذه الغزوة.

فلما فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يفتك، فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا فلما رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوة الحرس وأخذ بالحزم واجتهد في العزم، واستدعى بالحارث السمرقندي فاستقره فأقرَّ له بجلية، وأخذ البيعة للعباس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له، فاستكثرهم المعتصم واستدعى بابن أخيه العباس بن المأمون. فقيده وغضب عليه وأهانه ثم أظهر له أنه قد رضي عنه وعفا عنه، فأرسله من القيد وأطلق سراحه، فلما كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه واستخلاه حتى سقاه واستحكاه عن الذي كان قد دبره من الأمر، فشرح له القضية، وأنهى له القصة، فإذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي. فلما أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضية ثانياً فذكرها له كما ذكرها أول مرة، فقال: ويحك إني كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلا بصدقك إياي في هذه القصة.

ثم أمر المعتصم حينئذ بابن أخيه العباس فقيد وسلم إلى الأفشين، وأمر بعجيف وبقية من ذكرهم من الأمراء فاحتيط عليهم وأُحيط بهم، ثم أخذ في أنواع النقمات يقترحها لهم، فقتل كل واحد منهم بنوع من القِتلات، ومات العباس بن المأمون بمنبج فدفن هناك، وكان سبب موته أنه جاع جوعاً شديداً، ثم جيء بأكل كثير فأكل وطلب الماء فمنع منه حتى مات، وأمر المعتصم بلعنه على المنابر وسماه اللعين. وقتل جماعة من ولد المأمون أيضاً.

وحج بالناس في هذه السنة محمد بن داود وفُتح فيها عمورية كما تقدم.

وفيها توفي من الأعيان

■ بابك الخرمي قتل وصلب كما قدمنا ذلك مبسوطاً. وخالد بن خِداش وعبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد. ومحمد بن سنان العَوَقي. وموسى بن إسماعيل

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائتين

فيها خرج رجل من آمل طبرستان يقال له مازيار بن قارن بن واندهُرْمز، وكان لا يرضى أن يدفع الخراج إلى نائب خراسان عبد الله بن طاهر بن الحسين، بل يبعثه إلى الخليفة ليقبضه منه، فبعث الخليفة من يتلقى الحمل إلى بعض البلاد فيقبضه منه ثم يدفعه إلى عبد الله بن طاهر ثم آل أمره إلى أن وثب على تلك البلاد وأظهر المخالفة للمعتصم. وقد كان المازيار هذا ممن يكاتب بابك الخرمي ويعده بالنصر.

ويقال إن الذي قوى رأس المازيار هو الأفشين ليعجز عبد الله بن طاهر عن مقاومته فيوليه المعتصم بلاد خراسان مكانه فبعث إليه المعتصم محمد بن إبراهيم بن مصعب أخا إسحاق بن إبراهيم في جيش كثيف فجرت بينهم حروب طويلة استقصاها ابن جرير [تاريخه: ٩/٨٠-١٠١]، وكان آخر ذلك أن أسر المازيار وحمله إلى عبد الله بن طاهر، فاستقره عن الكتب التي بعثها إليه الأفشين فأقر بها فأرسله إلى المعتصم وما معه من أمواله التي اصطفيت للخليفة، وهي أشياء كثيرة جداً، من الجواهر والذهب والثياب. فلما أوقف بين يدي الخليفة سأله عن كتب الأفشين إليه فأنكرها، فأمر به فضرب بالسياط حتى مات وصلب إلى جانب بابك الخرمي على جسر بغداد، وقتل عيون أصحابه وأتباعه.

وفيها تزوج الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس ودخل بها في قصر المعتصم بسامرا في جمادى، وكان عرساً عظيماً، وليه المعتصم بنفسه، حتى قيل إنهم كانوا يخضبون لحا العامة بالغالية.

وفيها خرج منكجور الأشروسني قرابة الأفشين بأرض أذربيجان وخلع الطاعة، وذلك أن الأفشين كان قد استنابه على بلاد أذربيجان حين فرغ من أمر بابك فظفر منكجور بمال عظيم مخزون لبابك في بعض البلدان، فاحتجبه لنفسه وأخفاه عن المعتصم، وظهر على ذلك رجل يقال له عبد الله بن عبد الرحمن، وكاتب الخليفة في ذلك فكتب منكجور يكذبه في ذلك، وهم به ليقتله فامتنع منه بأهل أردبيل. فلما تحقق الخليفة كذب منكجور بعث إليه بغا الكبير فحاربه وأخذه بالأمان وجاء به إلى الخليفة.

وفيها مات

■ ياطس الرومي الذي كان نائباً على عمورية، حين فتحها المعتصم ونزل من حصنه على حكم المعتصم فأخذه معه أسيراً، فاعتقله بسامراء حتى توفي هذا العام وفي رمضان منها مات:

■ إبراهيم بن المهدي بن المنصور عم المعتصم ويعرف بابن شكله، وقد كان أسود اللون ضخماً فصيحاً فاضلا.

قال ابن ماكولا [الإكمال: ١/٥١٨]: وكان يقال له التنين يعني لسواده وقد كان ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة وذكر أنه ولي إمرة دمشق نيابة عن أخيه الرشيد مدة ستين ثم عزله عنها ثم أعاده إليها الثانية وأقام بها أربع سنين. وذكر من عدله وصرامته أشياء حسنة، وأنه أقام للناس الحج سنة أربع وثمانين، ثم عاد إلى دمشق، وقد كان قد بايعه أهل بغداد في أول خلافة المأمون سنة ثنتين ومائتين كما ذكرنا وقد قاتله الحسن بن سهل نائب بغداد، فهزمه إبراهيم هذا، فقصده حميد الطوسي فهزم إبراهيم واختفى إبراهيم ببغداد حين قدمها المأمون مدة طويلة، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه وأكرمه سنة عشر، فعفا عنه وأكرمه واستمر به في منزلته التي كان عليها قبل ذلك.

وكانت مدة ولايته على بغداد ومعاملتها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوماً، وكان بدء اختفائه في أواخر ذي الحجة سنة ثلاث ومائتين، فمكث مختفياً ست سنين وأربعة أشهر وعشراً وكان الظفر به في ثالث عشر ربيع الأول من سنة عشر ومئتين وقد جرت له في اختفائه هذا أمور عجيبة يطول بسطها.

قال الخطيب البغدادي: كان إبراهيم بن المهدي هذا وافر الفضل غزير الأدب واسع النفس سخي الكف، وكان معروفا بصناعة الغناء، حاذقاً بها وذكر الخطيب قل المال على إبراهيم بن المهدي في أيام خلافته ببغداد فالح الأعراب عليه في أخذ أعطياتهم فجعل يسوف بهم. ثم خرج إليهم رسوله يقول: إنه لا مال عنده اليوم، فقال بعضهم: فليخرج الخليفة إلينا فليغن لأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات، ولأهل هذا الجانب ثلاثة أصوات. فقال في ذلك دعبل بن علي شاعر المأمون يذم إبراهيم بن المهدي في ذلك:

يا معشر الأعراب لا تغلطوا ... خذوا عطاياكم ولا تسخطوا
فسوف يعطيكم حنينية ... لا تدخل الكيس ولا تربط
والمعبديات لقوادكم ... وما بهذا أحد يغبط
فهكذا يرزق أصحابه ... خليفة مصحفه البربط

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى ابن أخيه المأمون حين طال عليه الاختفاء: وليُّ الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، وقد جعل الله أمير المؤمنين فوق كل عفو، كما جعل كل ذي ذنب دونه، فإن عفا فبفضله وإن عاقب فبحقه.

فوقع المأمون في جواب ذلك. القدرة تذهب الحفيظة وكفى بالندم إنابة وعفو الله أوسع من كل شيء.

ولما دخل إبراهيم عليه أنشأ يقول:

إن أكن مذنباً فحظي اخطأت ... فدع عنك كثرة التأنيب
قل كما قال يوسف لبني يعقـ ... ـوب لما أتوه: لا تثريب

فقال المأمون: لا تثريب.

وروى الخطيب البغدادي أن إبراهيم بن المهدي لما وقف بين يدي المأمون شرع يؤنبه على ما فعل فقال: يا أمير المؤمنين حضرت أبي وهو جدك وقد أتى برجل ذنبه أعظم من ذنبي فأمر بقتله فقال مبارك بن فضالة: يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تؤخر قتل هذا الرجل حتى أحدثك حديثاً، فقال: قل. فقال: حدثني الحسن البصري عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش: ألا ليقم العافون عن الناس من الخلفاء إلى أكرم الجزاء، فلا يقوم إلا من عفا فقال المأمون: قد قبلت هذا الحديث بقبوله وعفوت عنك يا عم وقد ذكرنا في سنه أربع ومائتين زيادة على هذا. وكانت أشعاره جيدة بليغة ساعده الله وقد ساق من ذلك ابن عساكر في تاريخه [١٩٠/٧] أشياء حسنة كثيرة.

كان مولد إبراهيم بن المهدي هذا في مستهل ذي القعدة سنة اثنتين وستين ومائة، وتوفي يوم الجمعة لسبع خلون من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة رحمه الله.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان أيضاً

■ سعيد بن أبي مريم المصري. وسليمان بن حرب وأبو معمر المقعد.

و■ علي بن محمد المدائني الأخباري أحد أئمة هذا الشأن في زمانه.

و■ عمرو بن مرزوق شيخ البخاري. وقد تزوج هذا الرجل ألف امرأة.

و■ أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي أحد أئمة اللغة والفقه والحديث والقرآن والأخبار وأيام الناس، له المصنفات المشهورة المنتشرة بين العلماء، حتى يقال: إن الإمام أحمد كتب كتابه في الغريب بيده، ولما وقف عليه عبد الله بن طاهر رتب له في كل شهر خمسمائة درهم، وأجراها على ذريته من بعده.

وذكر ابن خلكان أن ابن طاهر بن الحسن استحسنه وقال: ما ينبغي لعقل بعث صاحبه على تصنيف هذا الكتاب أن يُحوِّج صاحبه إلى طلب المعاش. وأجرى له عشره آلاف درهم في كل شهر.

وقال محمد بن وهب المسعودي: سمعت أبا عبيد يقول: مكثت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة.

وقال هلال بن العلاء الرقي: منَّ الله على المسلمين بهؤلاء الأربعة: الشافعي تفقه في والحديث، وأحمد بن حنبل ثبت في المحنة. ويحيى بن معين في نفي الكذب عن الحديث وبأبي عبيد في تفسير غريب الحديث. ولولا ذلك لاقتحم الناس في الخطأ.

وذكر ابن خلكان أن أبا عبيد ولي القضاء بطرسوس ثماني عشرة سنة، وذكر له من العبادة والاجتهاد شيئاً كثيراً.

وقد روى العربية عن أبي زيد الأنصاري والأصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وابن الأعرابي، والفراء والكسائي وغيرهم.

قال إسحاق بن راهويه: نحن نحتاج إليه وهو لا يحتاج إلينا.

وقدم بغداد وسمع الناس منه من تصانيفه.

وقال إبراهيم الحربي: كان كأنه جبل نفخ فيه روح، يحسن كل شيء.

وقال أحمد بن كامل القاضي: كان أبو عبيد فاضلا ديناً ربانياً عالماً متقناً في أصناف علوم الإسلام: من القرآن والفقه والعربية الأخبار حسن الرواية صحيح النقل، لا أعلم أحداً طعن عليه في شيء من علمه وكتبه.

وله كتاب الأموال وكتاب فضائل القرآن ومعانيه، وغير ذلك من الكتب المنتفع بها رحمه الله.

توفي في هذه السنة قاله البخاري. وقيل في التي قبلها بمكة، وقيل بالمدينة وله سبع وستون سنة رحمه الله. وقيل جاوز السبعين فالله أعلم.

و■ محمد بن عثمان أبو الجماهر الدمشقي الكفرسوسي أحد مشايخ الحديث.

و■ محمد بن الفضل أبو النعمان السدوسي الملقب بعارم شيخ البخاري ومحمد بن عيسى بن الطباع. ويزيد بن عبد ربه الجرجسي الحمصي شيخها في زمانه.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائتين

فيها دخل بغا الكبير ومعه منكجور قد أعطى الطاعة بالأمان.

وفيها عزل المعتصم جعفر بن بن دينار عن نيابة اليمن وغضب عليه وولى اليمن ايتاخ.

وفيها وجه عبد الله بن طاهر بالمازيار فدخل بغداد على بغل بإكاف لخمس خلون من ذي القعدة فضربه المعتصم بين يديه أربعمائة وخمسين سوطاً ثم سقي الماء حتى مات، وأمر بصلبه إلى جنب بابك الخرمي، وأقر في ضربه أن الأفشين كان يكاتبه ويحسن له خلع الطاعة، فغضب المعتصم وأمر بسجنه، فبنى له مكان كالمنارة من دار الخلافة يسمّى الكوة، إنما يسعه فقط وذلك حين تحقق الخليفة أنه كان يريد مخالفته والخروج عليه، وأنه يعزب على الذهاب لبلاد الخزر ليستجيش بهم على المسلمين فعاجله الخليفة بالقبض عليه قبل ذلك كله، وعقد له المعتصم مجلساً فيه قاضيه أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، ووزيره محمد بن عبد الملك بن الزيات، ونائبه إسحاق